الرحالة الأجانب في السودان

"١٧٣٠م – ١٨٥١م"

د. نسيم مقار



الرحالة الأجانب فى السودان

« ١٧٣٠ - ١٨٥١ »

الطبعة الأولى - ١٩٩٥-

مركز الدراسات السودانية

القاهرة - جمهورية مصر العربية
٣٥ شارع شامبليون شقة ١٢
تليفون / فاكس ٧٦٩٨٧٨

التجهيزات الفنية والطباعية
مركز الدراسات السودانية

د. نسيم مقار

الرحالة الأجانب في السودان

« ١٧٣٠ - ١٨٥١ »

المقدمـــة

تُعد كتب الرحالة الذين زاروا السودان خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من المصادر الهامة فى تاريخ السودان الحديث. وبخاصة الفترة التى شهدت تاريخ السلطنات الوطنية التى قامت في الأقاليم السودانية. وهى سلطنة الفونج فى سنار، وسلطنة الفور فى دارفور، ومملكة تقلى فى إقليم تقلى بغرب السودان، وتتميز بندرة الوثائق والمخطوطات المتعلقة بها. بخلاف الفترة التاريخية التى أعقبت امتداد الإدارة المصرية على السودان فى عهد محمد على باشا (١٨٢١ - ١٨٤٨م). إذ حظيت هذه الفترة التاريخية بزيارة عدد غير قليل من الرحالة الأوروبيين للسودان. وقد أمدنا أولئك الرحالة بالكثير من المعلومات والحقائق عن الأقاليم السودانية التى زاروها.

وقبل ذلك التاريخ كانت زيارة السودان تحوطها المخاوف والأخطار بسبب الضعف والانحلال الذى أخذ يدب فى كيان سلطنة سنار وما صحب ذلك من قيام الفتن والحروب الداخلية التى ترتب عليها تعرض طرق القوافل لأخطار قطاع الطرق من بدو الصحراء، وبخاصة الطريق الشرقى عبر صحراء النوبة الذى يربط بين مصر والسودان. وهذا ما يؤكده المؤرخ الإنجليزى المشهور "بدج" Budge (*) إذ يقول "إن معلوماتنا عن السودان فى العصر الحديث ندين بها إلى عدد من الرحالة الذين نجحوا فى دخول أجزاء كبيرة منه على الضفتين الغربية والشرقية للنيل. ومن هؤلاء كثيرون تجولوا فى البلاد. إما للعمل أو للمتعة والسياحة. وكانوا يمتعون النفس بمشاهدة ما كانوا يمرون به أو يسمعون عنه دون تحليل أو القيام بأبحاث أركيولوجية. ويمكننا القول بوجه عام أن الأبحاث الأركيولوجية فى السودان لم تبدأ حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر. ولكن يجب أن نذكر بإختصار بأن أهم الرحالة الذين زاروا أو مروا بالنوبة والسودان قبل القرن التاسع عشر هو بونسيه Poncet الطبيب. وقد قام برحلته إلى أثيوبيا (الحبشة) عام ١٦٩٨، ومكث هناك سنتين.،" ويضيف بأن "المعلومات التى يحدثنا بها (بونسيه) عن النوبة والسودان ضئيلة جداً. فقد كان هدفه من الرحلة ما هو ملاحظ زيارة اثيوبيا. ولو أنه مكث أكثر فى السودان لأنتج عملاً قيماً." وقد جاء بعده الرحالة جيمس بروس James Bruce الذى يعتبر أبرز وأهم الرحالة الذين زاروا السودان فى القرن الثامن عشر، والذى تبدأ دراستنا به (ص: ١٧).

ويلى "جميس بروس" بقية الرحالة، وهم حسب الترتيب الزمنى لرحلة كل منهم إلي بلاد السودان: الرحالة الإنجليزى "برون" Brone الذى قام برحلته إلى دارفور بغرب

(*) Budge: The Egyptian Sudan Its History and Monuments vol. I, p.1-4.

السودان عام ١٧٩٣ - ١٧٩٦ . ثم الرحالة محمد بن عمر التونسى الذى كانت زيارته لسلطنة درافور من عام ١٨٠٣ - ١٨١١م . فالرحالة "جون لويس بوركهارد" Burchardt السويسرى، وكانت رحلته إلى بلاد النوبة والسودان عام ١٨١٣ - ١٨١٤م . الرحالة "وادنجتون" Waddington الإنجليزى الذى قام برحلة إلى النوبة عام ١٨٢٠ - ١٨٢١م . مع حملة الأمير إسماعيل بن محمد على باشا على السودان، وكان يرافقه زميله "هنبرى" Hanbury . ثم الرحالة الإنجليزى "هوسكنز" Hoskins . الذى زار السودان عام ١٨٣٣م . والرحالة الألمانى الأمير "بكلر مسكاو" Puckler Muskau وكانت رحلته إلى السودان عام ١٨٣٧ . ثم الرحالة الألمانى "فرديناند ڤرن" Werne الذى قام برحلة إلى السودان الشمالى عام ١٨٣٩-١٨٤٠ ، وأخرى إلى السودان الجنوبى برفقة حملة البكباشى المصرى سليم قبطان الثانية عام ١٨٤٠ - ١٨٤١م للكشف عن منابع النيل الأبيض. وأخيراً الرحالة الإنجليزى "چورج ميللى" Melly . وقد جاء إلى السودان برفقة والدته وأخيه وأخته عام ١٨٥٠ - ١٨٥١م .

والنهج الذى سرنا عليه فى دراسة هؤلاء الرحالة فى السودان خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر هو :

أولاً: التعريف بشخصية الرحالة والظروف التى أحاطت بقيامه برحلته إلى السودان، والهدف الرئيسى من وراء القيام بها .

ثانياً: إبراز القيمة العلمية والتاريخية للرحلة من واقع ما دونه في كتاب رحلته، بالإضافة إلى ما قد يشير إليه أحيانا بعض المختصين فى هذا الشأن، وكذلك ما قد يرد على لسان بعض الرحالة فى تعليقهم على مشاهدات الذين سبقوهم فى زيارة هذه البلاد .

ثالثا : عرض مشاهدات الرحالة ودراساته المختلفة فى كل أقاليم السودان التى قدر له زيارتها .

وقد تناولنا تلك المشاهدات والدراسات بالعرض والتحليل والتعليق علي بعضها إذا اقتضي الأمر، بمقارنتها بأقوال غيره من الرحالة الذين سبقوه. أو بما ورد في بعض الوثائق والمخطوطات خاصاً بها الأمر. وقد التزمنا مبدأ الحيدة والموضوعية وأمانة الكلمة في كل جانب من جوانب هذه الدراسة الشاملة.

والخلاصة التي نخرج بها أن مشاهدات هؤلاء الرحالة ودراساتهم فى الأقاليم السودانية، التي قدر لهم زيارتها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، والتى سجلوها فى كتب رحلاتهم، تعطى فى مجملها صورة حية وواضحة لأحوال السودان الاقتصادية والاجتماعية والسياسية خلال تلك الفترة. إذ هى تتضمن معلومات وحقائق هامة عن نظم الحكم وطبيعة الحياة فى السلطنات الوطنية التى قامت فى الأقاليم السودانية قبل إمتداد الإدارة المصرية اليها عام ١٨٢٠ - ١٨٢١م، وهي كما أشرنا سلفاً، سلطنة سنار وسلطنة

دارفور ومملكة تقلى، بالاضافة إلى (أن هذه المعلومات والحقائق) تتناول أحداثا أخرى هامة فى تاريخ السودان الحديث فى ذلك الوقت، ومنها قيام دولة المماليك فى دنقلة عام ١٨١٢ - ١٨٢٠م، والصراع التاريخى الذى نشب بينهم وبين الشايقية الذين كانوا يمثلون أكبر قوة وطنية مناوئة فى السودان الشمالي وقتذاك.

وأخيرا يعالج بعض هؤلاء الرحالة أكبر حدث شهده السودان فى تاريخه الحديث فى أوائل القرن التاسع عشر، وهو مجىء حملة الأمير إسماعيل بن محمد على باشا إلى السودان عام ١٨٢٠ - ١٨٢١م، وقيام حكم محمد على فى السودان (١٨٢١ - ١٨٤٨م). وقد حظيت هذه الفترة فى تاريخ السودان - كما سبق أن أوضحنا- بزيارة أكبر عدد من الرحالة الأوروبيين. وتمت دراسة النظم والقوانين التى وضعها محمد على لحكم هذه البلاد وأهمها النظام الضريبى ونظام الاحتكار، وتأثير مثل هذه النظم على السودانيين، وبصفة خاصة تأثيرها على الفلاحين. بل لقد عنى بعضهم مثل الرحالة الإنجليزى هوسكنز بعقد مقارنة على الطبيعة بين حال الفلاح في السودان، ولاسيما فى بلاد النوبة، وحال الفلاح فى مصر في ظل حكم محمد على. وقد قدر له الوقوف على أحوالهما بعد زيارته لكل من البلدين أثناء هذا الحكم.

وبصفة عامة كان يطيب للرحالة أثناء زيارتهم للسودان أن يقارنوا بعض مايشاهدونه هناك بما سبق أن شاهدوه فى مصر، كأن يقارنون بين نظام الزراعة ووسائل رى الأرض فى البلدين، مع الإشارة أحيانا إلى بعض أنواع الغلات الزراعية التى دخلت زراعتها إلى السودان عن طريق مصر بواسطة الجلابة. أو أن يقارنوا بين نظام بناء المساكن فى بعض القرى السودانية، وما هو سائد فى القرى المصرية. كذلك بالنسبة لمسميات بعض الأشياء فى كل من مصر والسودان.

على أن أهم ما يلاحظ على المعلومات والحقائق التى دونها هؤلاء الرحالة في كتب رحلاتهم عن مشاهداتهم ودراساتهم في الأقاليم السودانية التي قدر لهم زيارتها، أنها قد جاءت فى معظمها مبعثرة فى أماكن متفرقة من كتاب الرحلة، وتحتاج إلى تنظيم وتنسيق تحت عناوين رئيسية بارزة، وهو ما حرصنا عليه فى دراستنا، ليسهل على الباحث الإلمام والانتفاع بها على الوجه الصحيح.

والله ولى التوفيق،

د . نسيم مقار

القاهرة : سبتمبر ١٩٨٨.

الفصل الاول

الرحالة جيمس بروس (١٧٣٠ - ١٧٩٤)

ظروف رحلته إلى الحبشة وزيارته للسودان (١٧٦٩ - ١٧٧٢)

يعتبر جيمس بروس J. Bruce من أبرز الرحالة الذين زاروا السودان في القرن الثامن عشر. ولد في اسكتلندا في ١٤ ديسمبر عام ١٧٣٠م. والتحق بجامعة أدنبرة لدراسة القانون، بيد أنه لم يوفق في دراسته الجامعية. عرض خدماته على الحكومة الإنجليزية فرفضت طلبه. ومن ثم بدأ حياة المغامرة والسياحة خارج بلاده. فقام برحلات مختلفة فى بلاد أوروبا. وانتهى به المطاف إلى بلاد الشرق، حيث زار سوريا ومصر والحبشة والسودان.

وصل جيمس بروس إلى الاسكندرية فى نهاية شهر يونيو عام ١٧٦٨م. ثم انتقل عبر نهر النيل إلى قنا، ومنها سلك الطريق البرى إلى القصير [ص: ١٨]، ومن القصير عبر البحر الأحمر إلى الطور. وتقدم إلى جدة حيث حصل على المساعدة التى مكنته من السفر إلى الحبشة. وغادر جدة إلى مصوع التى وصل إليها فى ١٩ ديسمبر عام ١٧٦٩م. وهناك واجه كثيرا من المصاعب والعراقيل من جانب الحاكم الذى اتهمه بحمل المرض إلى بلاده.

وأخيرا وصل جيمس بروس إلى أكسوم Axxium ثم وصل إلى مدينة غوندار Gondar واستقر هناك بعض الوقت حيث كون لنفسه كثيرا من الأصدقاء عن طريق خبرته ومهارته الطبية. وقد اختاره ملك الحبشة رئيسا على فرسان القصر وحاكما على إحدى المقاطعات [ص: ١٨ ، ١٩]. وتقديرا لخدماته منحه الملك مقاطعة يجرى فيها النيل الأزرق مما أتاح له فرصة الكشف عن منابعه، مما سنتعرض له بشىء من الإيضاح فى حينه.

على أنه سرعان ما نشبت الحرب بين ملك الحبشة وأعدائه، فقرر بروس العودة إلى مصر، وعرض الأمر على الملك الذى وافق على سفره إلى مصر شريطة أن يسافر عقب نهاية الحرب وعلى أن يعود من مصر فى أسرع وقت ممكن برفقة أقربائه وأصدقائه ومعهم أسلحة إنجليزية [ص: ٢٠].

وما أن انتهت الحرب حتى غادر بروس الحبشة إلى مصر عن طريق القوافل من غوندار إلى سنار. ومنها سار بمحازاة النيل الأزرق حتى الحلفاية التى تقع إلى الشمال من ملتقى النيل الأزرق بالنيل الأبيض. ومن الحلفاية تابع سيره شمالا بمحازاة نهر النيل أيضا حتى شندى، وقد وصل إليها فى ٤ أكتوبر عام ١٧٧٢ . ثم سلك طريق القوافل الشرقى إلى

أسوان التى وصل إليها بعد أن واجه صعوبات ومتاعب كثيرة فى الطريق[١].

فإتيحت له الفرصة لأن يمدنا ببعض المعلومات والحقائق عن أحوال هذه البلاد في أثناء بها أو زيارته لها (عام ١٧٧٢).

عأن المعولمات والحقائق التي أمدنا بها الرحالة عن السودان رغم قلتها تبدو علي جانب من الأهمية للباحث المتخصص في تاريخ السودان الحديث بالنسبة للفترة التاريخية التي تناولها وهي النصف الأخير من القرن الثامن عشر.

أهمية زيارة بروس للسودان (عام ١٧٧٢):

لقد طبعت رحلات بروس فى الحبشة والسودان فى سبعة أجزاء فى لندن عام ١٨٠٤م تحت عنوان:

Travels to Discover the Source of the Nile in the Years 1768, 1769, 1770, 1771,

." 1772 & 1773. (7vols) London 1804.

وهى تتضمن الكثير من المعلومات والحقائق التى تلقى ضوءاً كبيرا على أخلاق الاثيوبيين وعاداتهم وتقاليدهم، إلى جانب بعض نواحى الحياة الأخرى. أما فيما يتعلق بالسودان فإن المادة العلمية التى أمدنا بها جيمس بروس فقد جاءت قليل نسبياً. إذ من الملاحظ أن زيارته للسودان قد جاءت عرضا بعد انتهاء رحلته الطويلة فى الحبشة وهو فى طريق عودته إلى مصر، مارا ببعض المراكز والأقاليم السودانية مثل سنار وشندى والنوبة. ويؤكد هذه الحقيقة المؤرخ الإنجليزي المدقق "بدج" Budge في كتابه الشهير عن السودان المصري، إذ يقول «إن معلوماتنا عن الحوادث التي وقعت في النوبة والسودان في النصف الأخير من القرن الثاني عشر قليلة للغاية، إذ أنه لا يوجد لدينا كتب باسم سائحين في هذه البلاد في تلك الفترة. ويشك في أن هناك عالما أوروبياً زار النوبة في وقت كانت فيه البلاد غير مستقرة وقدم لنا وصفاً لما كانت عليه الأحوال وقتذاك. لذلك فإن دكتور "بوكوك" Pococke الذي سافر إلي مصر عام ١٧٣٧/ ١٧٣٨ لم يحاول السفر جنوباً أبعد من أسوان، والسائح "نيبور" Niebuhr الذي زار مصر عام ١٧٦١ اكتفي بوصف القاهرة وسكانها بعناية ولم يقل شيئاً عن مصر العليا أو النوبة. والأوروبيون الوحيدون الذين فروا بتلك البلاد. يبدو أنهم كانوا من القسس وقد مروا بها مع غيرهم من المسافرين في الطريق إلي أو من الحبشة، ولكنهم كانوا يفضلون - إذا كان ذلك ممكناً - عبور الصحراء المحرقة غرب النيل لمدة أسابيع يقاسون خلالها ندرة الماء عن السير في طريق الصحراء الشرقية تحت رحمة قبائل البدو وجشعهم ونهبهم (٢)، ومن بين المعلومات والحقائق الهامة التى أمدنا بها الرحالة جيمس بروس عن السودان ما يرويه

1- Budge: The Egyptian Sudan. Vol. I, P . P. 17-18.

2- Budge: The Egyptian Sudan, vol. I, P. 22.

عن قيام حرب وقت زيارته هذه البلاد (عام ١٧٧٢) بين سلطنة سنار وسلطنة دارفور على إقليم كردفان، وأثر هذا النزاع على تجارة هذا الإقليم. كذلك حدثنا جيمس بروس عن طرق القوافل التي كانت تربط سنار بكل من الحبشة ودارفور وفازوا علي شندي والتاكا. وهو إن لم يتعرض لوصف هذه الطرق وصفاً شاملاً وتفصيلياً، كما فعل غيره من الرحالة الذين زاروا السودان فيما بعد، إلا انه قدر أطوالها وأبعادها بما تستغرقه الإبل عادة في قطعها من الأيام والساعات.

وقد وصف بروس مدينة شندى والمنطقة التى تحيط بها وقت زيارته لها عام ١٧٧٢ وصفا ليس شاملا ولكن على جانب من الأهمية إذ لا يوجد لدينا ما يدل على أن أحد الأوروبين قد أتيحت له فرصة زيارتها من قبل إذ لشندى شهرة فى تاريخ السودان الحديث لما وقع فيها بعد هذه الرحلة من حادث إحراق الأمير إسماعيل بن محمد على باشا (عام ١٨٢١) وما لحقها من دمار وخراب على يد الدفتردار صهر الباشا انتقاما لما أصاب الأمير. والباحث حين يتعرض لهذا الحادث ومالحق شندى من الدمار والخراب بسببه يهمه أن يقف على ما كانت عليه هذه المدينة قبل وقوعه.

هذا ويكاد بروس أن ينفرد دون غيره من الرحالة الذين سبقوه فى زيارة الحبشة بحديثه الدقيق والشامل عن ميناء مصوع الذى تناول فيه أهمية موقعه الجغرافى والظروف الطبيعية للمنطقة التى يقع فيها، وتأثيرها على طبيعة الحياة والمعيشة هناك، وخضوع مصوع للحكم التركى وأثره فى مركزها التجارى، وأيضا ما لحقها نتيجة اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح إلي الهند. كما تناول تجارة مصوع مع كل من الحبشة وجدة والسودان ومصر مما يعد صفحة هامة فى تاريخ هذا الميناء قبل أن يضم إلى الإدارة المصرية فى السودان تحت حكم محمد على عام ١٨٤٦م. كذلك شرح لنا جيمس بروس في سجل سياحاته فى الحبشة والسودان الظروف التى أحاطت باكتشافه لمنابع النيل الأزرق أثناء تواجده فى بلاد الحبشة من واقع ما تحقق على يده فى هذا الشأن.

وإذا كان الصواب قد جانبه فى تفسير بعض الأحداث التاريخية لعدم قدرته الكافية على التحليل والاستنتاج [ص: ١، ٢] فإن ذلك لا يقلل بحال من الأحوال القيمة العلمية لسياحات الرحالة بروس فى الحبشة والسودان.

مشاهدات جيمس بروس في السودان

مملكة سنار (عام ١٧٧٢):

لقد أمدنا بروس بمعلومات وحقائق هامة عن مملكة سنار وقت زيارته لها عام ١٧٧٢، تناولت حدود المملكة وإمتدادها، ونظام الحكم فى المناطق التى خضعت لنفوذها، وطبيعة المنطقة التى تقع فيها مدينة سنار، والجهات المختلفة التى يوجد فيها معدن الذهب ووسائل الأهالى فى استخراجه، وأهمية موقع فازوغلى التى اشتهرت بصفة خاصة بوجود هذا المعدن فى مرتفعاتها. كما تناول الحديث عن بعض الحيوانات البرية التى تعيش فى هذه البلاد وأهم منتجاتها ذات القيمة التجارية التى تجد طريقها من سنار إلى القاهرة. كذلك حدثنا بروس عن أهمية موقع سنار الجغرافى كملتقى لعدد من الطرق الرئيسية التى كانت تربطها بالحبشة ومصر وأقاليم السودان الأخرى.

يقول بروس فى وصف حدود مملكة سنار وامتدادها شمالا وجنوبا ونظام حكم المناطق التابعة لها:

"إن ملك سنار يمتد نفوذه على جانبى النيل الأزرق وهذه البلاد على كلا الجانبين يستخرج منها الذهب ويحكمها شيوخ يختارهم ملك سنار أو وزيره. وهم أقرباء الملك أو الشخصيات الكبيرة فى بلاطه، ويسمون الفونج. وبين النيل الأزرق والنيل الأبيض يوجد أيضا الذهب والعاج وغيره. والسكان من النوبة والوثنيين. وهاتان المنطقتان أغنى جهات المملكة، وهما فى قبضة الأخوين عدلان وعبد الخالق اللذين قتلا ملكين (من ملوك سنار)، وأبقيا الملك الثالث على قيد الحياة مجردا من مصادر قوته وموارده (١). ويقول عن أهمية فازوغلى وأماكن وجود الذهب فى مملكة سنار "إن فازوغلى تعتبر المركز الرئيسى فى إقليم سنار. ومن فازوغلى يأتى الذهب. وتقع فازوغلى بين النيل الأزرق والنيل الأبيض."[ص: ٨٤، ٩١] ويضيف "أن فازوغلى بلاد جبلية والأماكن التى يوجد فيها الذهب تقع بين الأراضى الجبلية. وأهالى تلك المنطقة يؤكدون أن جميع الذهب يوجد فى التربة الحمراء، وحيث وجدت التربة الحمراء وجد الذهب، وحيث لا يوجد هذه التربة الحمراء لا توجد ذهب. وهو يوجد بوفرة في هذه الجهات فى المجارى التى تتكون عقب سقوط الأمطار." [ص:٩١، ٩٥، ٩٧، ٩٩]

ويستطرد قائلا "والذهب يوجد أيضا بجوار النهر، ولكن بكميات قليلة. وفى كل مكان يستخرج منه يكون مختلطا بالتربة الحمراء. ويغسل تراب الذهب فى أوان لفصله.

(١) James Bruce. vol. 7, P. 37.

ولا يوجد الذهب فى مناجم ويستخدم العبيد هنا فى استخراجه."[ص: ٩٧]

هذا عن حدود مملكة سنار الجنوبية. أما عن حدودها الشمالية فيذكر بروس "أن تاكاكى Takaki مركز متسع يقع إلى شمال بربر، وهى آخر حدود مملكة سنار الشمالية. وهى خاضعة لود عجيب ويرسلون إليها شيخاً. وهم من الجعليين من قبيلة الرباطاب ويمتلكون خيولا كثيرة. كما تتوافر في هذه الجهات أشجار النخيل على جانبى النيل. وهم يزرعون الذرة والقمح، ويستخدمون السواقى فى رى الأراضى الزراعية. ولكن المحصول الرئيسي هو التمر، ويمثل سلعة تجارية. ولا تسقط الأمطار في بلادهم."[ص:١٠٥] أما عن ثروة أقليم سنار من الحيوانات البرية التي تتمثل منتجاتها قيمة تجارية، فيحدثنا الرحالة جيمس بروس عن وفرة الفيلة والخرتيت والزراف في مدينة فازوغلى [ص٨٩]. ويضيف: "أن ريش النعام سلعة تجارية ترسل من سنار إلى القاهرة."

وعن أهمية موقع سنار الجغرافي يصف لنا الرحالة الطرق التى تربطها بالحبشة ومصر وأقاليم السودان الأخرى بقوله "هناك طريقان من رأس النيل (بالحبشة) إلى سنار: أحدهما من رأس الفيل إلى بيله Peylla غربا، والطريق الآخر يتبع مجرى نهر جوانجيو Guangue أى شمالا بغرب عن طريق طيوه Tewa ورشيد Rashid وإنجيديمه Engedaima.[ص٨٤] هناك أيضا طريق من دارفور يتصل بطريق سنار إلى مصر عند سليمة Selyme." [ص٨٥]

ولكنه لم يصف الطرق المختلفة التى تربط سنار بأقاليم السودان الأخرى وبالحبشة وبمصر وصفاً تفصيليا كما جرت عادة بعض الرحالة الأوربيين الذين زاروا السودان، إلا أنه حرص على أن يحدد الزمن الذى يستغرقه المسافر على الإبل فى قطع الطريق بالأيام وأحيانا بالساعات. إذ يقول "إن المسافر من سنار إلى التاكا يستغرق تسعة أيام. ومن التاكا إلى قوز أربعة أيام. ومن قوز إلى سواكن أربعة عشر يوما، باعتبار أنه يقطع من ١٤ إلى ١٦ ميلا فى اليوم. ومن سنار إلى فازوغلى سبعة أيام إذا كان الجمل غير محمل، واثنى عشر يوماً إذا كان الجمل محملا. ومن سنار إلى شندى ستة أيام." [ص: ٩٠، ٩٣، ٩٥]

مدينة شندى (عام ١٧٧٢):

يصف الرحالة جيمس بروس مدينة شندى وقت زيارته لها عام ١٧٧٢م وصفا عاماً يتناول فيه موقعها الجغرافى، والقبائل التى تقطنها. وطبيعة الأراضى التى تحيط بها، ونظم ريها واستغلالها فى الزراعة بقوله "تقع شندى بالقرب من نهر النيل على مسيرة ميلين من الشاطىء، وهى على مسيرة ثمانية أيام من بربر عن طريق كورتى. وتقطنها ثلاث قبائل من الجعليين هى الأماراب والرحاراب والشكرية. وبين مدينة شندى ونهر النيل أراض

زراعية تروى عادة بالسواقى وأيضا فى موسم الفيضانات العادية عندما تغطى مياه النهر السهل لفترة قصيرة. أما فى موسم الفيضانات غير العادية حيث تغطى المياه الأراضى لفترة طويلة فيزرع القمح فى شندى. لذلك فإن القمح يرد إلى شندى عادة من حلفانية" [ص٩٨]

مدينة الدر تحت سطوة الإنكشارية (عام ١٧٧٢):

يصف الرحالة جيمس بروس الأوضاع فى مدينة الدر وقت زيارته لها (عام ١٧٧٢) وصفاً موجزاً يشير فيه إلى الانكشارية وسوء معاملتهم للقوافل التى تمر بتلك البلاد الواقعة تحت سطوتهم بقوله "إن الانكشارية الذين فى الدر عديمو الذمة ودائماً يسرقون القوافل التى تحمل إليهم السماق Sumach والعبيد". [ص٩٥]

ويقارن جيمس بروس بين أخلاق هؤلاء الانكشارية وأخلاق الكنوز المجاورين لهم قائلا "وأما الكنوز الذين يقطنون على جانبى النهر فهم أكثر ثقة وشرفا فى معاملاتهم. وهنا تلجأ القوافل إذا كانت تخشى أن تعامل معاملة سيئة فى الدروإبريم". [ص٩٥]

دارفور وكردفان (عام ١٧٧٢م):

يقول بروس " إن دارفور بلاد غنية بالمواد الغذائية المختلفة، وتكثر فيها الماشية والإبل". [ص٨٥]

ثم يحدثنا بالتفصيل عن التكارنة الذين يعيشون فى هذه البلاد، إذ وصف ميولهم وخصالهم، ومدى تمدنهم إذا ما قورنوا بشعوب السودان الأخرى، كما وصف أخلاقهم وطباعهم وصفا دقيقا يقول فيه "والتكارنة يميلون للتجول أكثر من أى شعب آخر. لذلك فهم منتشرون فى إفريقية وآسيا. ويعرفون بعض القراءة. وهم من المسلمين المتشددين. والفقراء منهم يقومون – وهم فى طريقهم إلى مكة لأداء فريضة الحج – بكتابة التعاويذ التى تحمى الإنسان من الحسد والخوف، وتجعله موفقا فى حجه، ولا تؤثر فيه الأعيرة النارية"[ص٨٥]. ويضيف "وهؤلاء التكارنة أكثر شعوب السودان تمدنا. وهم يميلون إلى معاشرة الغرباء. وهذه ظاهرة لا تجدها فى الشعوب الإفريقية الأخرى". [ص٨٥]

ويضيف "بأنهم مشهورون بالغدر والخيانة أكثر من غيرهم". [ص٨٥]

يقول بروس فى وصف المنطقة التى تقع شمال كردفان "إنه على مسيرة تسعة أيام شمال كردفان تقع حرازة Harraza. وهى منطقة صخرية ليست على درجة كبيرة من الارتفاع. وتوجد بها جماعة النوبا. وهم يعيشون على هيئة معسكر تحيطه النباتات الشوكية. ويفرضون ضريبة على جميع القبائل التى تحصل على الماء". [ص:٩٥، ٩٦]

ثم يحدثنا عن الجهات التى تقع إلى الجنوب من كردفان فيصفها بقوله "إنه إلى الجنوب من كردفان على مسيرة ثمانية أيام والبعض يقول ستة أيام، والبعض الآخر يقول

عشرة أيام تقع مرتفعات داير Dyre وتـقلى Tegala. وهذه المـرتفعات تقطنها قبائل مختلفة فى حالة حرب دائمة مع السلطات الحاكمة فى كردفان. ومنها يأتى الرقيق. كما يوجد بها كثير من الذهب وسن الفيل وغيره". [ص ٩٦] أما عن المنطقة التى تقع على النيل الأبيض القريبة من كردفان، فيقول: "إن النيل الأبيض (عند الآيس) يبلغ ضعف اتساع مجرى النيل، وهو عميق جداً فى مجراه. وقبيل اتصاله بالنيل الأزرق توجد عدة جزر يعودون إليها فى فصل الجفاف. ومن ثم يقومون بنهب وسلب المنطقة المجاورة لهم". [ص ٩١] أما عن ثروة إقليم كردفان المعدنية فيؤكد بروس عدم وجود معدن الذهب فى هذا الإقليم، وإنما يأتى الذهب إلى كردفان من الجنوب مستندا فى تأكيد ذلك على ما قاله الرحالة "براون" فى هذا الشأن، إذ يقول "لا يوجد ذهب فى كردفان، وإنما يأتيها من مكان يقع إلى الجنوب منها، ويسمى شيجوم Shygoom ويبدو أنه شيبون Sheibon كما جاء فى سياحة براون". [ص٩٧]

الحرب بين دارفور وكردفان:

على أن أهم ما أمدنا به بروس من معلومات عن هذين الإقليمين هوما يتعلق بأخبار الحرب التى كانت قائمة بين دارفور وكردفان وقت زيارته للسودان عام ١٧٧٢م. إذ يقول "لقد جاءت الأخبار فى أول أغسطس عام ١٧٧٢ أن أهل دارفور زحفوا بجيش للاستيلاء على كردفان، وكانوا ١٢ ألفاً من الفرسان وعددا لا حصر له من المشاة. وأما كردفان فكان بها حوالى ١٥٠٠ من الفرسان بقيادة محمد أبو خالق الذى كان من المتوقع أن يهرب إلى سنار إذا لم يحاصر." [ص ٩٨]

ويتحدث عن تأثير الحرب على تجارة كردفان فيقول "والقافلة التى كانت تحمل السلع النفيسة من كردفان نهبت جميعها عند النيل الأبيض أو بالقرب منه على أيدى بنى جرار وهى قبيلة من بنى فزارة."[ص٩٨] ويستطرد قائلا " وقد عسكر الفور عند ريل جنوب غرب مدينة الأبيض (عاصمة كردفان) على مسيرة سبعة أو ثمانية أيام منها، حيث يتوافر الماء في ريل." [ص٩٨]

اكتشاف منابع النيل الأزرق (عام ١٧٧٢):

لقد أتيحت للرحالة بروس فرصة نادرة لاكتشاف منابع النيل الأزرق عندما توطدت علاقته بملك الحبشة فى أثناء رحلته في هذه البلاد، فمنحه قرية جيش Gish والأراضى المحيطة بها إلى منابع نهر "آباى" Abai وهو المعروف فى بلاد السودان باسم النيل الأزرق، وذلك تقديراً لخدماته وحسن أدائه ومهارته فيما أوكل إليه من أعمال فى أثناء وجوده فى الحبشة (١).

1- James Bruce: Travels to discover the source of the Nile ..... Vol. 7. P. 89.

وفى قرية "جيش" سيطرت على بروس فكرة الوصول إلى منابع هذا النهر. وفى صيف عام ١٧٧٠ لم يضيع فرصة التقدم إلى هذه المنابع. فأخذ يتابع مجرى النهر حتى وصل إلى بقعة عشبية وشاهد ينبوعين يتدفق منهما الماء. وقد كان سروره عظيماً عندما وقع نظره على هذا المنظر الطبيعي، إذ اعتقد أنه اكتشف حقيقة منابع نهر النيل، وأنه شاهد بعينيه وما لم يتيسر لأحد الأوروبيين مشاهدته من قبل. [ص ١٩ ، ٢٠] ثم شرب بروس نخب صحة ملكه وأصدقائه الغائبين من ماء الينابيع المتدفقة أمامه، واحتفل باكتشافه بعمل وليمة لجميع أهالى المنطقة استمرت خمسة أيام. [ص ٢٠] على أن ما قام به الرحالة جيمس بروس لم يترتب عليه فى واقع الأمر سوى متابعة أهم رافد من روافد نهر النيل وهو النيل الأزرق حتى منبعه. فقد كان يعتقد اعتقادا راسخا أنه منبع نهر النيل كله. وأما النيل الأبيض فكان يرى قلة أهميته، ولم يتخيل قط أنه نهر النيل الرئيسى. [ص ١٩، ٢٠، ٢١]

ومن هنا كان اهتمام مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر فى عهد محمد على بالكشف عن منابع النيل الأبيض، عندما أرسل هذا الوالى ثلاث حملات بقيادة البكباشى المصرى سليم قبطان إلى أعالى النيل فى الفترة من ١٨٣٩ – ١٨٤٢ للكشف عن منابع هذا النهر. وقد وصلت الحملة الثالثة إلى أقصى الجنوب عند خط عرض ٤٢´ ٤° شمال خط الاستواء، بعد أن عانت المشقات والأهوال وفقدت الكثير من رجالها. مما تعد صفحة مشرفة من جهود مصر الصادقة في الكشف عن منابع نهر النيل بخاصة ومجال الكشوف الجغرافية بعامة. (١)

ميناء مصوع (عام ١٧٦٨ – ١٧٧٢):

ميناء مصوع من الموانيء الهامة علي ساحل البحر الأحمر الغربي. وهو من المنافذ الرئيسية لتجارة شرق إفريقية وبخاصة الحبشة مع البلاد الأسيوية مثل الهند وشبه الجزيرة العربية. كما أن بعض تجارة السودان مع هذه البلاد الآسيوية كانت تمر بهذا الميناء. قد قام الرحالة جيمس بروس بدراسة هامة ومستفيضة لميناء مصوع في أثناء رحلته في الحبشة (عام ١٧٦٨ – ١٧٧٢) وقد دخل هذه البلاد عن طريق مصوع. وقد تضمنت دراسته طبيعة موقع مصوع الجغرافي، وإزدهار تجارتها قبل أن تقع تحت الحكم التركي، وأثر هذا الحكم علي تجارة الميناء. كما تناول أثر كشف طريق رأس الرجاء الصالح إلي الهند علي مركز مصوع التجاري. كذلك أوضح طبيعة الحياة والمعيشة في مصوع، ومدي إرتباطها بالحبشة، وشرح حقيقة وضع حاكم مصوع (نائب مصوع) بين ملوك الحبشة المجاورة له والأتراك في ولاية جدة التابع لها.

١- [ص١٩، بدج Budge]

طبيعة موقع مصوع الجغرافي:

يقول بروس: "إن مصوع معناها ميناء الرعاة، وإن اسمها مشتق من الأصل المصري القديم. فكلمة «ما» معناها المكان وكلمة «صوه» أو «صو» تعني الراعي." ويصف موقع مصوع الجغرافي بقوله: "مصوع جزيرة صغيرة قريبة من شاطئ الحبشة. لها ميناء ممتاز، وعمق المياه هناك يكفي لرسو السفن من أي حجم. ولذلك فهي في أمان إذا ما هبت الرياح. وقد أخذت مصوع اسمها من اسم مينائها. والجزيرة نفسها صغيرة جداً، إذ يبلغ طولها ثلاثة أرباع الميل وعرضها نصف ميل." ويصف منشأت مصوع " بأن المساكن تشغل ثلث مساحتها. والثلث الثاني تشغله أحواض المياه التي تستقبل مياه الأمطار. والثلث الأخير مخصص لدفن الموتي." [الجزء الرابع، ص ٢٠١]

أثر الحكم التركي علي مركز مصوع التجاري:

ويحدثنا عن خضوع مصوع للحكم التركي، وأثره في مركزها التجاري فيقول: "لقد كانت مصوع إحدي المدن الواقعة علي ساحل البحر الأحمر الغربي التي سقطت عقب الفتح العربي تحت الحكم التركي علي يد سنان باشا في عهد السلطان سليم إمبراطور القسطنطينية. وفي ذلك الوقت كانت مصوع مركزاً تجارياً كبيراً يسهم في تجارة الهند مع مواني البحر الأحمر الأخري قرب مدخل المحيط الهندي. وصادراتها كبيرة من السلع التي كانت تأتيها من المناطق الجبلية التي تقع خلفها. وفي جميع عصورها لم تكن كريمة وبشوشة مع الغرباء. والسلع الرئيسية التي كانت تصدرها الذهب والعاج والفيلة وجلود الحيوانات والرقيق ذات القيمة الكبيرة، فضلاً عما يوجد علي شواطئ مصوع من اللؤلؤ الذي يمتاز بكبر حجمه." ويستطرد بروس قائلاً: «وقد استمرت مصوع مركزاً تجارياً هاماً، كما كانت التجارة مزدهرة بها قبل أن تسقط فجأة تحت إستبداد الأتراك، وقبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح بضع سنوات وتأسيس مراكز برتغالية في الهند. وقد كان ذلك تحطيماً لتجارة البحر الأحمر."

ويختم "جيمس» حديثه عن أثر الحكم التركي وكشف طريق رأس الرجاء الصالح إلي الهند علي مركز مصوع التجاري بقوله: " وهكذا وقعت علي مصوع كارثتان كارثة تحول التجارة إلي طريق رأس الرجاء الصالح وكارثة الحكم التركي."

نظام الحكم التركي في مصوع:

أما عن النظام الذي وضعه الأتراك لحكم مصوع فيقول: "إن أول حكومة تركية في مصوع كانت تتمثل في الباشا الذي كانت القسطنطينية تبعث به إلي هناك. ومنذ ذلك الوقت بدأت محاولات الأتراك بصفة مستمرة وبثقة كبيرة لفتح الحبشة، ولكنها باءت

بالفشل. ومن ثم فقدت مصوع أهميتها كحصن وكمركز تجاري."

ويستطرد في وصف نظام الحكم التركي في مصوع قائلاً: ولقد كانت قبيلة بلوي – وهم من الرعاة وتقطن ساحل البحر الأحمر أسفل مرتفعات حباب عند خط عرض ١٤ْ – أكبر عون للأتراك الفاتحين. ومكافأة لهم علي هذه المعاونة، منح الأتراك زعيمهم حكم مصوع المدينة باسم «نائب مصوع». وعندما سحب الباشا من مصوع أصبح هذا النائب بمثابة ملك علي المنطقة. وقد حصل من الباب العالي العثماني علي فرمان بذلك نظير دفع جزية سنوية للباب العالي."

ويضيف بروس إلي ذلك قوله: " إن الباب العالي قد ترك جماعة «حامية» من الإنكشارية في «جزيرة مصوع» وكانوا يحصلون علي مرتباتهم من القسطنطينية. وقد ظل الحال كذلك حتي بعد أن تزاوجوا مع الأهالي وأنجبوا أطفالاً، إذا استمر هؤلاء يحصلون من القسطنطينية علي ما كان يحصل عليه أباؤهم من قبل. ونتيجة لتزاوجهم مع الأهالي، أصبحت تربطهم بهم صلات القربي، وصاروا مثلهم من رعايا نائب مصوع يخضعون النفوذ."

علاقة نائب مصوع بكل من الحبشة وجدة:

ويوضح لنا "بروس" حقيقة العلاقة بين نائب (حاكم) مصوع وباشوية جدة التركية التابع لها، ومدي تأثرها بتدهور قوة الأتراك في شبه الجزيرة العربية من ناحية، وإزدياد قوة الأحباش المجاورين له من ناحية أخري بقوله: " وعندما وجد نائب مصوع بُعد المسافة التي تفصله عن الأتراك الموجودين في شبه الجزيرة العربية علي الشاطئ الآخر للبحر الأحمر الذين أخذت قوة حامياتهم في الإضمحلال، الوقت الذي أخذ يحس فيه بقوة أعدائه وجيرانه الأحباش، أخذ يفكر في تأمين وحماية نفسه بالتقرب نحو اولئك الذين أصبح تحت رحمة قوتهم. ومن ثم اتفق «نائب مصوع» مع ملك الحبشة أن يدفع له نصف العوائد الجمركية في ميناء مصوع، مقابل أن يتركه مع حكومته دون إزعاج، ذلك أن مصوع «لحكم ظروفها الطبيعية» محرومة من المياه والمواد الغذائية ما لم تأتيها من الحبشة الجبلية." ويشرح الظروف الطبيعية التي جعلت مصوع تعتمد في معيشة أهلها علي الحبشة بقوله: «إنها ترجع إلي طبيعة المنطقة التي توجد فيها، إذ أن الشريط المنبسط من الأرض الذي يقع خلفها والذي يسمي صحراء السحّار لا يقيم فيها السكان إلا فترة معينة من السنة من شهر نوفمبر إلي شهر أبريل. وهم قبائل رعوية مختلفة هي الطورة والهازورتا والشيحو والدوبا. وهؤلاء جميعاً يسوقون قطعانهم إلي الحبشة بالقرب من المرتفعات عندما تسقط الأمطار علي هذه الجهات في الستة شهور الأخري. وهكذا لايبقون هم وقطعانهم طويلاً في سحّار أو بلاد نائب مصوع، وإنما بين أيدي الأحباش،

وبخاصة حاكم تيجرا وبهارنجاش. لذلك فإن الأحباش في إمكانهم أن يمنعوا أي مؤون من أن تصل إلي مصوع من أية جهة دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة وتكاليف إعداد جيش للزحف عليها ومحاصرتها."

ويوضح بروس أثر تلك الظروف الطبيعية لمصوع وإنعكاساتها علي سياسة نائب مصوع تجاه كل من باشا جدة التابع له وملك الحبشة الذي يجاوره، واستغلال ظروف وأحوال كل من الرجلين لصالحه فيقول: " وعندما نمت الصداقة مع الحبشة وأخذت قوة الأتراك في بلاد العرب تضمحل يوماً بعد يوم بدأ موسي نائب مصوع ينسحب تدريجياً من دفع الجزية لباشا جده حتي أمتنع عن دفعها نهائياً للباشا الذي كان مرتبطاً بالباب العالي. وبذلك أصبح الفرمان «السلطانى» شكلياً دون دفع جزية، اللهم إلا بعض الهدايا البسيطة وفي الأوقات العصيبة التي تتعرض لها الحبشة، أو عندما تتولي الأمور في «تيجر» حكومة ضعيفة، يسحب نائب مصوع نفسه من جميع إلتزاماته نحو باشا جدة باسم الجزية أو نحو ملك الحبشة في نصيبه من الرسوم الجمركية."

ويستطرد جيمس بروس في وصف الأوضاع السياسية لمصوع وقت زيارته للحبشة (١٧٦٨ - ١٧٧٢) قائلاً: "ثم حدث إنقلاب كبير في مملكة الحبشة، إذ أصبح ميشيل سيد الموقف. إلا أن نائب مصوع لم يعترف بها الإنقلاب، وكان في ذلك مخطئاً. لذلك هدده ميشيل «زعيم الإنقلاب في الحبشة» بإرسال حملة إلي مصوع لتخريبها حتي تصبح صحراء مثل قفار «صحراء سحار» ونظراً لأن ميشيل كان معروفاً في حياته بأنه يفي دائما بوعوده التي من هذا القبيل. فإن الكثيرين من التجار هاجروا من مصوع إلي بلاد العرب، وبعضهم هاجروا إلي دوباروة، وهي مدينة كبيرة علي حدود نهارا نجاشي. ومع ذلك فإن نائب مصوع لم يظهر عليه أي نوع من الخوف. كما لم يرسل بنساً واحداً لملك الحبشة أو لباشا جدة. وقد أستطاع باشا جدة أن يتصل بميشيل «ميخائيل» يطلب منه مساعدته علي نائب مصوع لدفع الجزية. وفي الوقت نفسه أرسل إلي نائب مصوع يخبره بأنه لن يكتفي بذلك فحسب، وإنما سوف يصدر أوامره في بلاد العرب في العام القادم بمصادرة البضائع التي يأتي بها التجار من طرفه إلي هذه البلاد والقبض عليهم. وأرفق بهذا التهديد فرمان القسطنطينية يطلب فيه أن تعود الجزية وكذلك الهدايا."

طبيعة الحياة وظروف المعيشة في مصوع:

يصف طبيعة الحياة وظروف المعيشة في مصوع وقت زيارته لها (عام ١٧٦٩) بقوله: "رغم أن مصوع تقع عند مدخل الحبشة وهي بلاد جميلة، إلا أن متطلبات الحياة فيها كثيرة جداً، وغير متوفرة. ويعزي ذلك إلي صعوبة وخطورة نقل السلع المختلفة عبر صحراء سحار التي تقع بين أركيكو ومرتفعات الحبشة، فضلاً عن تكاليف نقلها والرسوم

التي يفرضها نائب مصوع علي كل سلعة يعجب بها باسم الجمارك. ومن ثم يقل ربح البائع بحيث لا يتناسب مع أتعاب ومخاطرة نقلها." ويقول عن نظام التعامل بين سكان مصوع: "إنه مما تجدر ملاحظته أن أنواع العملة المتداولة في مصوع هي ذاتها المتداولة علي ساحل بلاد العرب المقابل لها. ويرجع ذلك إلي العلاقة التجارية بينهما. وكلها تقدر بقيمة دولار البندقية. أما الخرز من مختلف الألوان الصحيح منه والمكسور فيجري التعامل به كعملات صغيرة. وأما الدولار الأستامبولي فغير متداول هنا. وأولئك الذين يمتلكون هذه العملة «التركية» فإنهم لا يستطيعون تصريفها إلا للنساء اللائي يستخدمونها كحلية تعلق في آذانهن أو حول رقابهن وحول رقاب أطفالهن."

التجارة في مصوع:

أما فيما يختص بالتجارة في مصوع فيحدثنا عنها بقوله: "إن هنالك تجارة كبيرة تصل إلي مصوع رغم العوائق، وضيق الجزيرة، وقسوة الحكومة وظلمها. بيد أن التجارة يغلب عليها طابع البداوة. ولا تقوم إلا علي رؤوس الأموال الصغيرة. وأما البضائع الثمينة التي تحتاج إلي رؤوس أموال ضخمة فإننا لا نجدها هنا، إذ لا يخاطر بها أصحابها خشية أن تقع في يد ظالم قوي عند نقلها من مكان إلي آخر."

ويذكر بروس أنواع البضائع التي ترد إلي مصوع مشيراً إلي البلاد التي كانت تأتي منها قائلاً: " والبضائع التي تصل من الشاطئ العربي هي المنسوجات القطنية الزرقاء وكذلك القرمزية المسماة أو قرمسيس، والملابس الجميلة من مختلف أسواق الهند، والأقمشة القطنية الخشنة من اليمن، والقطن غير المغزول في بالات، والخرز الزجاجي من البندقية، والمشروبات والمرايا والكحل. والسلع الثلاث الأخيرة تأتي بمقادير كبيرة جداً من القاهرة. وهي تصل أولاً إلي جدة في قوارب البن، ومن جدة في قوارب صغيرة إلي ميناء مصوع. والنحاس القديم يمثل أيضاً سلعة مربحة وترد منه مقادير كبيرة. والجلا ومختلف القبائل التي تعيش غرب جوندار يلبسون قلائد من هذا النحاس. ويقال إنه بالقرب من بلاد الجونجا وجوبا يباع النحاس بوزنه ذهباً."

ويضيف بروس إلي ذلك " أن البنيان (١) كانوا في وقت مضي رؤساء التجار في مصوع. ولكن عددهم أصبح قليلاً الآن بحيث صاروا ستة أشخاص. وهم صناع فضة يقومون بصناعة الحلقان وأدوات الزينة الأخري الخاصة بالنساء في هذه المنطقة. وهم يقومون أيضاً بفحص الذهب. وبرغم ذلك يعيشون حياة فقيرة."

١- اسم يطلق في الشرق علي الهنود.

\مصادر للبحث

اولا – المصدر الأصلى

James Bruce: Travels to Discover the Source of the Nile, in the Years 1768,1769,1770,17711,1772. (7vols.) London 1804.

ثانيا– المصادر الثانوية

Budge.E.A.W. The Egyptian Sudan. vol. I. London 1907.

– نسيم مقار (دكتور): البكباشى المصرى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل القاهرة عام ١٩٦٠

– نسيم مقار (دكتور): الأسس التاريخية للتعامل الاقتصادى بين مصر والسودان القاهرة عام ١٩٨٥

●●●

الفصل الثانى

الرحالة وليم جورج برون Broune
(١٧٦٨ - ١٨١٣)

ظروف رحلته إلى السودان ودوافعها الرئيسية (١٧٩٣ - ١٧٩٦):

الرحالة وليم جورج برون Broune إنجليزى الأصل، اشتهر كرحالة قام برحلات فى بلاد الشرق (١). فبعد أن أتم دراسته فى جامعة أكسفورد بانجلترا قام برحلة إلى سوريا ومصر عام ١٧٩٢م، حيث تجول فى ربوع هذه البلاد ومدنها المختلفة ووقف على أحوالها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ومن مصر رغب فى السفر إلى سنار بشرق السودان ومنها إلى الحبشة. وكان يهدف من وراء ذلك تحقيق هدفين رئيسيين: أحدهما علمى وهو تحقيق ما ذكره الرحالة الإنجليزى جيمس بروس بأن النيل الأزرق هو نهر النيل الحقيقى. كذلك كان فى نيته بعد وصوله إلى سنار أن يعرج على إقليم دارفور. وقد علم أن بعض تجار الرقيق فى هذا الإقليم يمدون أحيانا رحلاتهم التجارية إلى البلاد الجنوبية على مسيرة أربعين أو خمسين يوما من عاصمتهم الفاشر. وكان برون تواقا إلى السفر معهم إلى هذه الجهات الاستوائية فى الجنوب التى لم يقدر لرجل أبيض زيارتها من قبل. وفى الوقت نفسه يتبع مجرى النيل الأبيض حتى منبعه. وقد كان يعتقد صواباً أنه نهر النيل الحقيقى.(٢) أما الهدف الثانى الذى يهدف إلى تحقيقه من وراء زيارة سنار والحبشة، فهو مادى صرف. فقد سمع بغنى هذه البلاد بالذهب والرقيق، فضلا عن النباتات ذات القيمة الطبية، وكان راغبا فى أن يكوّن ثروة منها. كذلك كان يرغب من وراء القيام برحلة إلى الحبشة أن يلحق ببعض التجار الإنجليز من بنى جلدته الذين كانوا قد نزلوا فى مخا على ساحل اليمن المطل على البحر الأحمر عسى أن يفيد من نشاطهم التجارى فى هذه الجهات. (٣)

وكانت رغبة برون فى أن يسلك فى رحلته إلى سنار الطريق الشرقى عبر صحراء العتباى أو العتمور الذى اعتادت أن تسلكه قوافل التجارة بين مصر وسنار. ولكن حدث أن شبّ نزاع بين المماليك الذين كانوا يحكمون مصر العليا وحاكم إبريم فى بلاد

---

(١) يلاحظ أن برون بعد رجوعه من رحلته في إقليم دارفور عام ١٧٩٦م تابع رحلاته في الشرق إلي بلاد البحر الأبيض المتوسط وتركيا في الفترة من عام ١٨٠٠ إلي عام ١٨٠٢ن، قد قام عام ١٨٠٢ برحلة إلي بلاد التتار مخترقاً بلاد الاناضول وأرمينيا وإيران، حيث قتل في تبريز عام ١٨١٣م.

(2) Hill, R. L. Auiographical doctionary of the Anglo Egyptiaons Judan Oxford 1951.

(3) Broune: Travels in Africa ....., P 20.

النوبة، وقامت الحرب بين الطرفين عام ١٧٩١. ووقفت حركة القوافل تماما بين القطرين، ولم يكن يسمح لأحد بالمرور من مصر إلى النوبة. يضاف إلى ذلك نشوب الحرب الأهلية فى مملكة سنار فى ذلك الوقت، نتيجة عزل ملكها الأخير وقتله. لذلك عدل برون عن استخدام الطريق الشرقى من مصر إلى السودان، وقرر أن يسلك الطريق الغربى (طريق الأربعين) إلى دارفور، على أمل أن يحظى بمقابلة سلطانها عبدالرحمن الذى سمع عن حسن معاملته وإكرامه للغرباء ويحصل على معاونته فى السفر إلى سنار عن طريق كردفان المجاورة. ومن سنار يمكنه السفر إلى الحبشة، ومن ثم يستطيع أن يحقق أحلامه فى زيارة تلك البلاد.

وفى شتاء عام ١٧٩٣ أعد برون العدة لمرافقة قافلة دارفور. وفى ٢١ أبريل عام ١٧٩٣ غادر بولاق ميناء القاهرة، وأبحر إلى اسيوط ليتصل بالقافلة. وهناك اشترى خمسة جمال سعر الجمل الواحد ثلاثة عشر جنيها. وفى ٢٥ مايو غادرت القافلة مدينة أسيوط، وسارت فى طريق الأربعين. وعندما وصل برون إلى دارفور أخذ يستغل خبرته الطبية، وما كان يحمله من أدوية وعقاقير فى اكتساب صداقة الشخصيات البارزة فى سلطنة دارفور، ليعينوه على التقرب للسلطان والتوسط لديه فى تحقيق رغبته. بيد أن وساطة هؤلاء لم تجده نفعا، إذ رفض سلطان دارفور السماح له بالرحيل إلى كردفان بحجة أن جنوده لا يزالون يحاربون فى هذه البلاد لإخضاعها لنفوذه، وأن دخوله كردفان فى مثل هذه الظروف سوف يعرضه للخطر لامحالة.

ومهما تكن الدوافع الرئيسية التى جعلت سلطان دارفور يرفض السماح للرحالة برون بمغادرة دارفور، فإن برون يئس من رجائه، وفقد الأمل فى السفر إلى سنار والحبشة. وأخيرا قفل راجعا من حيث أتى سالكا نفس الطريق الذى سلكه عند مجيئه، وهو طريق الأربعين. ولكن بعد أن ظل فى دارفور زهاء ثلاث سنوات استطاع خلالها أن يجمع الكثير من المعلومات والحقائق الهامة عن هذا الإقليم، ويحقق فى هذا الشأن نصراً علمياً وجغرافيا لم يسبقه إليه أحد من الرحالة الذين زاروا السوادن من قبل، وهو ما استحق من أجله التقدير والثناء.

الأهمية الجغرافية والتاريخية لرحلة برون في دارفور:

نستطيع أن ندرك أهمية الرحلة التى قام بها الرحالة برون فى دارفور (عام ١٧٩٣ - ١٧٩٦) إذا علمنا أن سلاطين دارفور فى ذلك الوقت - وقد كانوا حريصين على استقلال بلادهم - لم يسمحوا لأحد من الأجانب وبخاصة الأوروبيين المسيحيين بالسياحة فى أوطانهم خشية أن يتجسسوا عليها تمهيدا لغزوها واحتلالها. بالإضافة إلى نظرة

المواطنين التقليدية وقتذاك إلى أمثال هؤلاء الغرباء من ذوى البشرة البيضاء أنهم قوم مرضى يحملون الأمراض الخبيثة، وأن بشرتهم البيضاء غير المألوفة بين سكان هذه الجهات لدليل على ذلك، ومن ثم فالخير فى الابتعاد عنهم وعدم الاختلاط بهم.

ومن هنا اكتسبت رحلة برون فى دارفور أهميتها العلمية جغرافيا وتاريخيا. فهى من المصادر الأصلية التى يمكن للباحث المتخصص أن يعتمد عليها فى دراسة أحوال هذا الإقليم فى أواخر القرن الثامن عشر. وذلك الإقليم الذى لم يقدر لأحد من الأوربيين زيارته أو الكتابة عنه كتابة مستفيضة واضحة على الطبيعة كشاهد عيان قبل ذلك التاريخ (١٧٩٣ – ١٧٩٦). والحق أن رحلة برون فى دارفور قد جاءت بمثابة حافز للرحالة والجغرافيين الأوربيين الذين لم يكن أحد منهم يعلم بالضبط حقيقة موقع هذه البلاد وامتدادها حتى ذلك الحين.

ولئن بدا على بعض تفاصيل الرحلة عدم الدقة فى الوصف أو التعبير، فإن الكثير من المعلومات والحقائق الرئيسية التى تضمنتها، وقام الرحالة برون بجمعها قد أكدها وأثبت صحتها بطريق الاستقصاء من جاء بعده من الرحالة والجغرافيين أمثال روبل Rupel، وروسينجير Russenger الألمانيين، وبالم Palme الإنجليزى.(٢) [ص ٤ Broune]

ولقد نشر كتاب رحلة برون فى لندن عام ١٧٩٩ تحت عنوان:

"Travels in Africa, Egypt and Syria from the Year 1792 to 1788, London 1799"

ولقد قمنا بجمع المعلومات والحقائق التي اتيح للرحالة برون الوقوف عليها في أثناء رحلته في إقليم دارفور عام ١٧٩٣ – ١٧٩٦ فضمنها كتاب رحلته السالف الذكر.

وكلها – كما واضح – موضوعات علي جانب من الأهمية. إليك تفصيلها:

طبيعة إقليم دارفور النباتية:

يصف برون طبيعة إقليم دارفور النباتية وصفاً دقيقاً، وربما بسبب تخصصه فى النباتات الطبية يقول: "إن النباتات في دارفور تكثر فى الأجزاء الجنوبية منها، حيث يتوافر الماء. ويجف كل ما على سطح الأرض إلى الشمال من تأثير حرارة الشمس لمدة سبعة أو ثمانية أشهر فى السنة. والنباتات الصغيرة التى تنمو وتزدهر في فصل الخريف (فصل الأمطار) تجف بمجرد انتهاء هذا الموسم. وحتى الأشجار تجف أوراقها ولا يبقى فيها سوى الأغصان المتشعبة. والأشجار التى توجد فى دارفور تمتاز بصلابتها وأشواكها الحادة."[ص ٢٦٩]

ويصف برون أنواع الأشجار المختلفة التى تنمو فى إقليم دارفور، والخصائص الطبيعية، وكذلك القيمة الإقتصادية لكل نوع منها بقوله:

"(١) أشجار التمر هندى، وتمتاز بارتفاعها وضخامتها ووفرة ثمارها. [ص ٢٧٥]

(٣) أشجار الجميز المصرية Sycamore of Egypt ويوجد قليل منها بالقرب من مدينة كوبه، ولكن تكثر إلى الجنوب.

(٣) أشجار النبق، وفى دارفور نوعان منها يختلفان فى الحجم وفى الثمار:

النـوع الأول: وهو نفس النوع الموجود فى حدائق الإسكندرية.

والنوع الآخـــر: يمتاز بأنه يصل فى نموه إلى حجم كبير. كما أن أوراقه وثماره أصغر من أوراق وثمار النوع الأول. وكلاهما من النباتات الشوكية. ويتناول أهل دارفور النبق طازجاً أو جافاً، إذ يترك ليجف على الأشجار، حيث يظل وقتاً طويلاً من أشهر الشتاء. وفى هذه الحالة يصنعون منه عجوة لذيذة الطعم، وهى من المواد الغذائية التى يسهل على المسافرين حملها معهم فى أثناء رحلاتهم.

(٤) الهجليج أو الحجلج وهى فى حجم أشجار النبق وأوراقها صغيرة. وثمرها فى حجم التمر، وهى جافة من النوع اللزج ونواتها كبيرة. وتعمل أيضا من ثمارها عجوة، ولكن طعمها غير مقبول. ومع ذلك فإن العرب يتناولونها كدواء لعلاج بعض الأمراض. ويبدو أن لها تأثيرا فى إدرار البول. والهجليج من النباتات الشوكية التى تمتاز بوفرة أخشابها وصلابتها.

(٥) شجرة العنب وهى صغيرة، وحباتها ذات لون أرجوانى على هيئة عنقود. ولكنها تتناثر على الأغصان بين الأوراق. وحجمها هو نفس حجم حبات العنب العادى، ولكن طعمها قابض جداً. [ص ٢٧١]

ويقول الرحالة برون في موضع آخر من كتاب رحلته: "إنه توجد في دارفور عدة أنواع من أنواع الأشجار، ولكن لا يوجد ما يستحق أن تجمع ثماره إلا أشجار التمرهندي، وأما أشجار النخيل فقليلة العدد وثمارها قليلة وجافة وعديمة الطعم." ويصف النخيل: "وشجرة النخيل لا تبدو أنها أصلاً من هذه البلاد «دارفور»، وإنما نقلت إلي دارفور من البلاد المجاورة للنيل من دنقلة وسنار وغيرهما ويبدو أن الأهالي لا يجيدون استغلال أشجار النخيل ذات المحصول النافع، وربما لا يمكنهم هذا الجدب الشديد من التوسع والنهوض بهذا المحصول. لزيادة عدد النخيل وتحسين نوعه." [ص ٢٧٥ Broune]

السكان فى دارفور:

لقد أمدنا برون بمعلومات عن السكان فى إقليم دارفور (عام ١٧٩٣ - ١٧٩٦)، شملت عدد السكان فى ذلك الوقت، ونظام البيوت التى يعيشون فيها، وعناصر السكان

المختلفة التى يضمها إقليم دارفور، كما حدثنا عن علاقات أهل دارفور بسكان الأقاليم المجاورة لهم، وكذلك ببعض الأقطار الخارجية التى كانت تربطها بهم روابط تجارية ودينية مثل مصر وشبه الجزيرة العربية. يقدر عدد السكان (عام ١٧٩٣ - ١٧٩٦) بما لا يزيد على ٢٠٠ ألف نسمة. وكوبة أكثر المدن سكاناً ويقدر عدذ سكانها بما فيهم العبيد بما يزيد كثيراً على ٦ آلاف نسمة، على أن الجزء الأكبر منهم من العبيد". [ص ٢٨٤] ويصف البيوت في دارفور: "بانها منفصلة بعضها عن بعض مساحات واسعة، لأن كل شخص يختار سكنه في البقعة القريبة من الأرض التي يقوم بزراعتها. لذلك لا نجد علي امتداد المسافة التي تقدر بميلين أكثر من مائة بيت." ويصف القرى "بأن عددها كبير ولكن عدد سكانها قليل، إذا أن أكثرها سكاناً لا يزيد عدد سكانه على مئات قليلة من الأنفس. ولا يوجد سوى ثمانية أو عشرة مدن تمتاز بكثرة سكانها". [ص ٢٨٥] ويصف برون عناصر السكان فى دارفور بقوله "ويشتمل سكان دارفور على ناس أصلهم من ضفاف النيل، وعلى بعض من أهالى الأقاليم الغربية، وهم إما فقهاء جاءوا إلى دارفور، أو تجار أتوا إلى تلك البلاد بقصد التجارة. وبعضهم استوطن البلاد ولا يستطيع مغادرتها. وهم من قبائل مختلفة، ولكن الجزء الأكبر منهم رحل يتنقلون على الحدود." [ص ٢٨٥]

ويحدثنا عن العلاقات بين أهل دارفور وأهل كردفان "لقد كان سلطان دارفور لمدة سنتين مشغولاً فى حرب خطيرة مع مغتصب سلطنة كردفان. ويبدو أن هناك عداء تقليديا بين أهل دارفور وأهل كردفان. وهم دائماً فى حرب". [ص ٢٨٩] ويوضح برون أسباب العداء: "ويبدو أن أسباب ذلك العداء هو التجاور، فكردفان تقع على الطريق بين دارفور وسنار، وهو طريق هام برغم أنه ليس طريق الاتصال المباشر بين دارفور ومكة. ولا تستطيع القافلة القادمة من سواكن (على البحر الأحمر) أن تتابع سيرها إلى دارفور كما يبدو دون تصريح من حكام كردفان. كذلك فإن الحسد والتنافس فى مضمار التجارة هو أصل ذلك العداء بين الشقيقتين". [ص ٢٨٩] وفى موضع آخر من كتاب رحلته يحدثنا عن علاقة أهل دارفور بالحجاز بقوله "وبخصوص الاتصال بين دارفور ومكة فإنه لا توجد قوافل تغادر دارفور إلى الحجاز بانتظام، وإن كان بعض المواطنين فى دارفور يذهبون إلي مكة إما عن طريق قوافل التجارة الذاهبة إلى مصر (عن طريق درب الأربعين الصحراوى) أو عن طريق سواكن - جدة (عبر البحر الأحمر)". [ص ٢٥٣]

الزراعة في دارفور:

يقول الرحالة برون عن الزراعة فى إقليم دارفور: "إن الأمطار التى تسقط بصفة دائمة من منتصف يونيو إلى منتصف سبتمبر والتى كثيرا ما تسقط شديدة تكون فجأة على سطح الأرض طبقة خضراء بهيجة تجف بعد ذلك، فتصبح الأراضى جدباء، ما عدا الصحراء

التى تحول طبيعة تربتها دون نمو النبات فيها. [ص ٢٥٤] ويصف طريقة بذر الحبوب فى الأرض، والأدوات البدائية التى كانوا يستخدمونها لهذا الغرض، وكذلك الغلات الزراعية التى كان الفلاحون في دارفور يحرصون على زراعتها لحاجتهم الضرورية إليها، فيقول "وبمجرد ما تبدأ الأمطار فى السقوط يخرج كل واحد إلى حقله ومعه من استطاع جمعه (من معاونيه)، ويقومون بعمل حفر فى الأرض بواسطة معزقة، بين الحفرة والأخرى مسافة قدمين. ثم تلقى بذور الدخن فى هذه الحفر، وتغطى بالتراب بالقدم.[ص ٢٨٣] إذا أن الفلاحة عندهم لا تتطلب أدوات زراعية كثيرة. ويبذر القمح في نفس الميعاد تقريبا. والدخن لا يكاد يمضى على بذره شهران حتى ينضج. والقمح يمضى عليه ثلاثة أشهر حتى يتم نضجه. وهو يزرع بكميات قليلة. [ص ٢٥٤] ويصف برون طريقة جمع المحصول "ويجمع المحصول بطريقة بسيطة للغاية. فالمالك ومعه عبيده ورجاله يذهبون إلى الحقل، حيث يقطفون السنابل ويتركون السيقان التى يستخدمونها بعد ذلك في أعمال البناء وغيرها. وتحمل الحبوب فى سلات على رؤوسهم. وتعرض للشمس حتى تجف تماماً. ثم يعدون حفرة فى الأرض يغطون قاعها وجوانبها بالتبن لحمايتها من الحشرات. وبعد أن يملأ المخزن (الحفرة) يغطى بالقش (التبن) أيضا. ثم تسد الحفرة بالطين. وبهذه الطريقة تحفظ الذرة جيداً"[ص ٢٨٢].

أما الغلات الزراعية الأخرى التى كان أهل دارفور يقومون بزراعتها إلى جانب الدخن والقمح، فيذكر الرحالة برون "أنه تعم زراعة المبريك Mabriek، وهى غلة أكبر من الدخن. ويزرعون أيضاً السمسم بكميات قليلة، والبامية والملوخية والعدس واللوبيا وبعض أنواع الخضر الأخرى"[ص ٢٥٥]. أما أنواع الفاكهة التي اشتهر بها إقليم دارفور، فيقول الرحالة برون "أن البطيخ وبعض الفاكهة الأخرى تكثر فى فصل الجفاف".[ص ٢٥٥] ويضيف برون إلى ذلك "أن السلطان تيراب كان مهتما بجلب ما اشتهرت البساتين المصرية بزراعته إلى بلاده، إلا أن السلطان الحالى لا يعير التفاتاً لهذه الوجهة الإصلاحية، ومن ثم لم تظهر إلا نتائج قليلة لنشاط سلفه فى هذا السبيل".[ص ٢٥٥]

ويذكر برون أنواع النباتات من الخضر والفاكهة التى تزرع فى إقليم دارفور (عام ١٧٩٣ - ١٧٩٦)، وقد عرضها علي النحو التالى:

"(١) الباذنجان: وقد جلب أصلا من مصر ويستخدم في الطعام.

(٢) الحنّا: وأصلها من مصر وقد أخذت زراعتها فى الشيوع.

(٣) السنْا البرية: وهى نوع بلدى ينمو بكثرة بعد سقوط الأمطار.

(٤) الفول: ويستعمل بكثرة في الطعام. والنساء يستخدمونه فى الزينة، إذ تعقد حبّاته فى خيط مثل الخرز، ذلك أنها عندما تجف تماما تصبح صلبة جداً.

(٥) البصل : ويزرع بوفرة فى دارفور . ولكن النوع المصرى يفوقه فى الحجم واللون والطعم .

(٦) الثوم : ويقوم الأهالى بزراعته ويستخدم فى الطعام .

(٧) البطيخ : وينمو نموا برياً فى جميع الأراضى الصالحة للزراعة تقريبا .

(٨) القاوون : ويزرع من حين لآخر ، وقد أدخل الجلابة زراعته ، ولكن قلما يجد العناية اللازمة .

(٩) الخيار : وقد أدخل أيضا الجلابة زراعته فى دارفور .

(١٠) القرع : ويوجد بكثرة ، وعندما ينمو يصبح حجمه كبيراً . ويستخدم الجاف منه كأوان للشرب وغيرها . وأما الطازج منه فيؤكل . وعندما يطهى مع اللحم يكون طعمه لذيذاً جداً . القرع هناك نوعان من القرع الذى يؤكل ليس هو الذى يصنع منه أوانى الشرب .

(١١) الحنضل : وهو أيضا تنتشر زراعته فى دارفور .

(١٢) العشر : وهذا النبات ينمو بكثرة فى إقليم دارفور ، حتى أنه يغطى جميع السهول تقريبا . ولا يستفاد منه اللهم إلا فى استخدامه لوقاية الخضر والبضائع من الترميس Termis أو النمل الأبيض ، إذ تنشر فروعه وأوراقه تحتها .

(١٣) عنب الديب .

(١٤) الحشيش : وقد أصبح الآن (١٧٩٣ - ١٧٩٦) يزرع بانتظام (بصفة دائمة) ، ويستعمل بطرق مختلفة كمادة مهيجة للجنس . ويمضغ وهو فى حالة الصلابة ، أو يدخن بواسطه الغليون ، أو يخلط بمواد أخرى . ومصر تستهلك من هذه السلعة أكثر مما تستهلكه دارفور ، بيد أن أجود الأنواع هى التى توجد فى إنطاكية وسوريا .

(١٥) الأرز : ويأتى به العرب الرحل من الأماكن التى يترددون عليها ، حيث ينمو نموا طبيعيا . والكميات التى يأتون بها قليلة . ويقل تقديره واستخدامه كمادة غذائية . والواقع أن نوعه لا يغرى على الإقبال عليه .

(١٦) الشطة : وتعم زراعتها بكثرة فى منطقة معينة ، بينما تتناثر زراعتها فى المناطق الأخرى ، وتستخدم مع الطعام .

(١٧) اللوبيا والملوخية والبامية : والبامية توجد بكثرة . كما يوجد نبات آخر فى حجم الملوخية لونه أخضر داكن ذو رائحة نفاذة وطعم قوى . وينمو بكميات كبيرة ، وهو

غذاء رئيسى للأهالى ويسمونه كويل Cowel.

(١٨) السمسم: يستخرج منه الزيت. يهرس فى الهاون، ويخلط بالطعام. ويستخدم أيضا لتسمين الخيل.

(١٩) الدخن والمبريك: وهما غذاؤهما الرئيسى، وبخاصة الدخن.

(٢٠) التبغ: وينمو بكثرة فى فرتيت ودار فنجارو. ويبدو من المؤكد أن هذا النبات أصلا من هذه البلاد". [ص: ٢٧١ - ٢٧٣]

الثروة الحيوانية:

. تناول برون أنواع الحيوانات التي اشتهر أهل دارفور بتربيتها، وبخاصة العرب الرحل، مشيراً إلى الموطن الأصلى لبعض هذه الحيوانات، وكيف انتقلت إلى دارفور، مع مقارنتها بالأنواع المماثلة فى البلاد الأخرى مثل مصر. كما تناول الدور الذى لعبته هذه الثروة الحيوانية فى العلاقات التجارية بين دارفور ومصر. يقول: "ومن الحيوانات التى توجد فى دارفور الخيل. والخيول التى يمتلكها الأهالى أصلها من دنقلة، حيث يقوم العرب إلى الشرق من النيل بتربيتها. وهى أكبر حجماً من الخيول المصرية، ومشهورة بتحملها التعب". [ص ٢٥٥]

ويصف ثروة دارفور من الأغنام، ويقارن أغنام دارفور بالأغنام المصرية بقوله "الضأن فى دارفور يتميز بأنه أقل جودة من الضأن المصرى. كما أن صوفها من النوع الردىء الذى يشبه الشعر، وغير صالح لأى صناعة. أما الماعز فهى أكثر عدداً من الضأن ولحمها أرخص بعض الشىء". [ص ٢٧٥] وأما الحمير "فإن أجود أنواعها ما يأتى به الجلابة من مصر ويكثر استخدامها في الركوب عليها، لأن ركوب الخيل قاصر على الجنود ورجال البلاط الملكى (بلاط السلطان)".. [ص ٢٥٧] ويصف الرحالة برون ثروة دارفور من الماشية، بقوله "وتوجد فى دارفور الماشية ذات القرون بكثرة لدى القبائل المجاورة للنيل. والضريبة التى تدفع من هذه الماشية تكون مورداً كبيراً من دخل السلطان. كذلك يصف ثروة دارفور من الإبل إذ يقول "أما الإبل فى دارفور فهى من أصل خليط وذات ألوان وأحجام مختلفة." "ولا يفوق دارفور فى وفرة الإبل بها إلا بلاد قليلة."

الحيوانات المفترسة:

أما الحيوانات المفترسة التى تعيش فى بعض المناطق فى إقليم دارفور، فحدثنا الرحالة برون عن أنواعها وعن أماكن تواجدها والوسائل التى يتبعها الأهالى لدرء خطرها بقوله

"والحيوانات المفترسة التى توجد فى دارفور هى الأسود والنمور والضباع والذئاب وابن آوى والجاموس الوحشى. بيد أن هذه الحيوانات لا ترى دائما فى الأراضى الزراعية ما عدا الضبع وابن آوى. فالضباع تسير فى هيئة قطيع من خمسة أو ثمانية. وغالبا من عشرة وتزحف على القرى ليلاً وتأخذ ما تستطيع حمله. وهى تفتك بالكلاب والحمير حتى لو كانت داخل البيت. ويحفر الأهالى حفراً (أشراكاً) لاصطيادها. وأما ابن آوى فهو غير مفترس إلا أن صرخته المزعجة تسمع عن بعد".[ص ٢٨٥]

ويستطرد: "إن هذه الحيوانات تكثر فى البلاد المجاورة لسلطنة دارفور، وبخاصة على شواطىء بحر العادة Bahr-el-Ada، ويضاف إلى تلك الحيوانات التى تعيش فى دارفور التيتل والخرتيت والزراف وفرس النهر والتمساح".[ص ٢٦٠] ويستطرد: "إن الفيلة توجد فى الأماكن التى تتردد عليها فى شكل قطعان كبيرة تتراوح بين ٤٠٠ و٥٠٠ فيل. ويقال إنها تكون فى بعض الأحيان ٢٠٠٠ فيل. ويصيد الأهالى الفيل وهم على ظهر الحصان بأن يعزلوا فيلاً شارداً عن القطيع. أو يصوبون عليه السهام من فوق الأشجار، أو يحفرون حفراً حيث يسقط فيها. وشحمه دهان ثمين. وأسنانه كما هو معروف تدر على التجار أرباحاً طائلة".[ص ٢٦٠] ويضيف فى موقع آخر: "والتيتل والنعام ينتشر بكثرة في كل أنحاء سلطنة دارفور. وقط الزِّياد يتردد بعيداً إلى الجنوب. وكثيراً منه يحفظ فى أقفاص فى بيوت الأغنياء، ويستعمل النساء الرائحة التى تستخلص منه للتجميل والإغراء. وهكذا نجد أن ما لا يستحق أن يباع يصبح سلعة تجارية ذات قيمة".[ص ٢٦١]

وأخيرا يحدثنا "والأسود والنمور رغم أنها تكثر فى منطقة معينة، إلا أنها لا توجد بالقرب من مقر الحكومة. ويصيد العرب النمر والأسد لأخذ جلدهما، وغالباً يأكلون لحمهما، إذ يعتقدون أن ذلك يخلق فى الإنسان الشجاعة والقدرة على القتال. كما أنهم يصيدون الصغير منها لبيعه للجلابة الذين يقدمونه كهدية للعظماء فى مصر".[ص ٢٢٢]

أنواع الطيور:

«إن فى دارفور أنواعاً مختلفة من الطيور يعتبر بعضها سلعة تجارية مربحة تصدر إلى مصر مثل الدجاج الغينى Guinea Fowl والببغاء الأخضر Green Peroquet الذى يصاد وريشه لم يثبت بعد. ثم يؤخذ للمنازل حتى يستأنس ويعلم نوع من الحديث ثم يصدر إلى مصر حيث يباع بأثمان مرتفعة».[ص ٢٦٤] ويصف النحل الذى تشتهر به دارفور "بأنه يوجد بكثرة. ولكنه لا يعيش فى خلايا. كما أن العسل الذى يخرجه من النوع القاتم اللون وطعمه غير مقبول".[ص ٢٦٦]

وأخيرا يتحدث الرحالة برون عن أنواع النمل فيقول "وأما النمل الأبيض فيوجد بكثرة. وهو متلف للغاية، فلا يصل إلى شىء إلا يأكله سواء كان نباتاً أخضر أو قماشاً أو جلداً أو

ورقاً أو مواد غذائية وغير ذلك. وجلد الثور إذا لم يغط بطبقة من القطران فإنه لا يقوى على مقاومته" .[ص ٢٦٦] وأما الجراد فيقول "إن جراد بلاد العرب ينتشر بكثرة ويأكله الأهالى وبخاصة "العبيد" بعد شيِّه".[ص ٢٦٦]

تجارة دارفور مع مصر:

يقول الرحالة براون في وصف طريق الأربعين الصحراوى (من مصر إلى دارفور) عام ١٧٩٣ - ١٧٩٦ "تمر القافلة (فى بداية رحلتها) بالواحات. وعندها يدفع الجلابة للمغاربة مبلغاً من المال يقدر بـ "باتاك" على كل جمل ليقوموا بحمايتهم أو بمعنى آخر لكسب ودهم، حتى لا يعتدوا عليهم بالسلب والنهب. ويحدث أن يصل هؤلاء المغاربة (مغاربة الواحة) إلى سليمة Selime مخترقين الصحراء إلى دنقلة (وهو طريق يستغرق قطعه ثلاثة أو أربعة أيام). وهناك يسلبون البضائع، ويخطفون الأولاد الأحرار من البنين والبنات ويقومون ببيعهم في مصر. ثم تمر القافلة بعين ديزيه Aine Dizc الواقعة في أقصى شمال الواحة الكبرى، وهى أول مكان تصادف فيه القافلة الماء بعد مغادرتها أسيوط. وعلى مسيرة أربع ساعات من ديزيه تقع الخارجة، حيث يوجد في كل مكان منهما جندى أو ضابط من قبل إبراهيم بك الكبير، ومهمتهما رعاية شئون القافلة فى أثناء إقامتها هناك. وعلى مسيرة ست ساعات من الخارجة تقع بولاق Bolak وهى قرية شديدة الفقر، بيوتها من الطين أو الطوب اللبن وغير مسقوفة. وهى تمد القوافل بالماء العذب، ويعيش أهلها على التمر. وعلى مسيرة ما يقرب من أربع عشرة ساعة من بولاق فى طريق مجدب تقع باريز. وعلى مسيرة ساعتين من باريز تقع مجس Mughess وهى قرية تقع فى أقصى جنوب الواحة. وعلى مسيرة خمسة أيام تقع شبّ Sheb حيث يمكن الحصول على الماء على عمق قليل. ويستخرج منها الشبّة بكميات كبيرة كما يدل على ذلك اسم المكان. وعلى مسيرة يومين من شبّ تقع سليمة Selime ، وفيها يتوافر للقوافل أعذب مورد للماء يصادفها فى طريقها. وبالرغم من أنها بقعة خضراء تقر بها الأعين إذا قورنت بما حولها من بقاع مجدبة من قريب أو بعيد ، فإنه لا يتوافر فيها الخضر التى تقيم أود الإنسان أو الحيوان ، وهى ملتقى الجماعات التى تعبر الصحراء من مختلف الطرق. وعلى مسيرة خمسة أيام تقريبا من سليمة تقع لقية Legheu، وفيها يندر الماء الذى لا يقارن بعذوبة ماء سليمة، إذ أن ماءها آسن. وعلى مسيرة ستة أيام تقريبا من لقية يقع بئر الملح. والمنطقة المجاورة لهذا البئر تشتهر بملح النطرون الذى يختلف عن نطرون تيرانة Teerane بأنه ناصع البياض ويحمل الجلابة كميات قليلة منه إلى مصر، حيث يبيعونه بأسعار مرتفعة. ويستخدم بوجه خاص فى صناعة النشوق. والماء فى هذه البقعة يتميز بأنه آسن وطعمه غير سائغ. ويتردد على هذا البئر جماعة من أهل زغاوة على مسيرة عشرة أيام متكبدة

مشاق السفر لتبيع للمسافرين ما يحتاجون اليه من مواد غذائية بأسعار باهظة فى وقت يكون فيه كثير من المسافرين قد نفذت موادهم الغذائية وهلك الكثير من إبلهم، فيصبحون فى أشد الحاجة إلى المؤونة ويغير الكبابيش على المنطقة المجاورة لبئر الملح، حيث يمتطون الهجين السريعة لسلب المسافرين عند وقوفهم هناك. ونظراً لأن هؤلاء الكبابيش الذين يعيشو ن على السلب والنهب لا يملكون الأسلحة النارية ، فإن الكثير من المسافرين لا يتعرضون كثيرا لخطر هجماتهم. وعلي مسيرة ثمانية أيام تقريبا من بئر الملح تقع مدوة Medwa، وهى خالية من الماء .

وعلى مسيرة يومين أو أكثر من مدّوة توجد آبار وادى مرزوق Wadi Masuk وهى تقع على أول حدود الفور. وعندها يكثر النمل الأبيض (Termis) الذى يتلف كل ما يصل إليه. ويلى وادى مرزوق جنوبا قرية سوينى Sweini، وفيها يقيم ملك أو حاكم من قبل سلطان دارفور. وعند سوينى لا يجوز لرجال القافلة غرباء أو مواطنين أن يتابعوا سيرهم إلا بعد أن يتحرى عنهم الحاكم ويصدر الأمر من السلطان (سلطان دارفور) بالسماح للجلابة منهم بمتابعة سيرهم إلى مقارهم بعد دفع المكوس المقررة عليهم. [ص: ١٨٤ - ١٨٥] وهذا يقتضى منهم أن يمضوا بضعة أيام فى تلك القرية قبل مغادرتها إلى كوبة Cobba. ويعلق الرحالة برون: "وهذه التقارير التى يدعى الحاكم (حاكم سوينى) تقديمها عن الجلابة للسلطان ربما كانت خدعة ترمى إلى تعطيل الجلابة ومعهم الرقيق عن المضى في المسير، بحيث ينتظرون مدة لا يعرفون مداها ينفقون خلالها على الرقيق نفقات باهظة فى الوقت الذى يكون فيه عملاء السلطان قد سبقوا هؤلاء الجلابة إلى مصر بفترة من الزمن يتمكنون فيها من بيع مالديهم من السلع". [ص ٢٢٥ - ٢٢٦] ويختم تعليقه قائلاً "وهكذا يلحق الضرر بالجلابة من جراء احتكار السلطان الذى يذيع بوقاحة منقطعة النظير أنه قد أرسل ليتفاوض مع البكوات (المماليك) على أن يتسلموا السلع السودانية بشروط أكثر سخاء من ذى قبل". [ص ٢٢٦]

بعد هذا الوصف لطريق الأربعين يحدثنا الرحالة برون عن السلع التى كان يحملها الجلابة والتجار الفور مع قافلة دارفور إلى مصر عبر هذا الطريق الصحراوى. وهى تشمل السلع والمنتجات التجارية التى اشتهر بها إقليم دارفور وكذلك التى كانت ترد إلى دارفور من أقاليم السودان الأخرى مثل كردفان، وسنار، ومناطق الزنوج فى الجنوب. وقد حددها في كتاب رحلته على النحو التالى: "الرقيق من الذكور والإناث، الإبل، العاج، قرون الخرتيت، أسنان أفراس النهر، ريش النعام، الكرابيج المصنوعة من جلد فرس النهر، الصمغ، الفلفل الأحمر والأخضر، التمر هندى على هيئة كعك مستدير، القرب الجلدية لحفظ الماء والسلع الجافة، الببغاوات بوفرة وبعض القرود، والدجاج، والطيور الغينية Guinea Fowl، النحاس الأحمر بكميات قليلة". [ص ٣٠٤] أما أهم السلع والبضائع التى

كان الجلابة والتجار فى قافلة دارفور يعودون بها من مصر فهى كما وردت فى كتاب رحلته: "عقود الكهرمان، قطع الصفيح الصغيرة، عقود المرجان، عقود العقيق، عقود البندقية، العقيق اليمانى، الحلقات الفضية والنحاسية التى توضع حول الرقبة وحول المعصم، الأبسطة الصغيرة، المنسوجات القطنية المصرية الزرقاء اللون، القطن الأبيض، الأقطان وأنواع الشاش الهندى والموسلين الهندى، المنسوجات المصرية ذات اللون الأزرق والأبيض التى تعرف باسم الملايات، السيوف المستقيمة المصنوعة فى المانيا والواردة إلى القاهرة، المرايا الزجاجية الصغيرة، الدروع النحاسية لحماية رءوس الخيل، الأسلحة النارية، كحل العيون، رهية وهو نوع من الطحالب التركى يستخدم كطعام وكنوع من العطر، الشيح وهو نوع من التوابل يستخدم كرائحة وكعلاج له فائدة ملحوظة، البن، المحلب والقرنفل والسمبل والصندل، الدسر Dusr وهو نوع من أصداف أسماك البحر الأحمر يستعمل كعطر، الحرير المنسوج، أسلاك من النحاس الأصفر والحديد، عقود حباتها من الزجاج الخشن المصنوع فى الشام، أوان نحاسية للطبخ والإقبال عليها قليل، نحاس أحمر خام لصهره واستخدامه فى الصناعة، طرابيش مغربية، خيوط كتان مصرية (استهلاكها قليل)، منسوجات فرنسية خفيفة، منسوجات حريرية من سكيو Scio، منسوجات حريرية من طرابلس ودمشق وغيرها، أحذية جلدية حمراء، فلفل أسود، ورق للكتابة (ورق ذات ثلاثة خطوط) وهو سلعة هامة، صابون من سوريا". [ص ٣٠٢]

يصف الرحالة برون مكانة سلطان دارفور فى تجارة بلاده بقوله "إن السلطان يعتبر أكبر تاجر فى البلاد. وهو لا يكتفى بأن يرسل مع كل قافلة ذاهبة إلى مصر كميات كبيرة من بضائعه، بل يستخدم عبيده ورجاله فى التجارة فى البضائع المصرية لحسابه الخاص فى الأقاليم المجاورة للسودان". [ص ٢٩٨] **ويضيف:**

١- إن السلطان يفرض ضريبة على جميع البضائع الواردة تصل فى كثير من الحالات إلى ما يقرب من عشر قيمتها. فالبعير الذى يأتى من مصر محملا بالبضائع القطنية إذا كان يحمل مائة قطعة - وهو ما يحدث عادة - يأخذ السلطان من التجار المصريين عشرين قطعة. أما أهل البلاد والعرب الخاضعين لحكومته فيدفعون أكثر من ذلك. إلا أن هناك بعض السلع لا يدفع عليها كثيراً".

٢- يضاف إلى ذلك أنه عند ما يصبح التجار على وشك مغادرة دارفور إلى مصر يطلب منهم ضريبة أخرى على العبيد المصدرين إلى مصر بحجة إعفاء عبيدهم من الفحص". [ص ٢٩٨] ويستطرد برون قائلا "إن القافلة التى كنت برفقتها وكانت تضم حوالى خمسة آلاف عبد ويقدر ثمنها بسبعة آلاف محبوب دفعت للخبير عند وصولها مصر بين ستمائة وسبعمائة جنيه". [ص ٢٩٨]

٣- إن من حق السلطان أن يأخذ عشر البضاعة التى تأتى أيضا من جميع الجهات

الأخرى غير مصر، وبخاصة الرقيق الذى يجلب على حد قولهم – من الطرق".

أما موارد السلطان من الهدايا التى تقدم له فى المناسبات المختلفة، فيحدثنا عنها الرحالة برون بقوله: "وعندما تضرب الطبلة فى يوم ٢٧ من شهر ربيع الأول من كل عام تذهب جميع الشخصيات البارزة فى كل مدينة وقرية إلى الفاشر تحمل الهدايا إلى السلطان كل حسب مكانته الاجتماعية وقدرته المالية". ويرى أنها تمثل موردا للسلطان لا يستهان به". ويضيف إلى ذلك "أن هدية ملك الجلابة فى إحدى هذه المناسبات بلغت قيمتها ٩٠٠ محبوب، أو ما يعادل حوالى ٢٠٠ جنيه" ويستطرد قائلا "ويصل إلى السلطان يوميا، بل كل ساعة الهدايا المختلفة من أكابر رجال الدولة، ومن التجار الذين يأتون إليه لتصريف بعض الأعمال. أما هدايا التجار فهى بصفة عامة من نوع المنسوجات مثل المنسوجات الصوفية، والأبسطة، والأسلحة وغيرها. أما هدايا أهل البلاد فهى عادة من الإبل والرقيق الذكور والإناث والثيران والضأن وغير ذلك".

يقول الرحالة برون "وإن من أهم موارد السلطان الضريبة التى يدفعها العرب الذين يقومون بتربية الماشية والإبل والخيل والضأن. فأولئك الذين يقومون بتربية الخيل عليهم أن يقدموا له كل ما تلده هذه الخيل من ذكور، وإن كان غالبا ما يتحايلون على عدم دفعها. ولقد حدث أن أهمل العرب دفع هذه الضريبة لمدة سنتين (فى أثناء زيارة دارفور) فأرسل إليهم السلطان قواته التى استولت على كل ما امتدت إليه أيديهم، فبلغ عدد الثيران التى اغتصبوها ١٢ ألف ثور".

أما عن قيمة الضريبة المفروضة فيقول "إن هذه الضريبة إذا ما دفعت بانتظام سنويا تقدر بـ ٤ آلاف ثور، ولكن نظرا لأن هؤلاء العرب يسكنون فى خيام، فهم دائما يتنقلون من مكان لآخر. كما أنهم عندما يستشعرون تضامنهم ووحدتهم تضعف رغبتهم فى دفع الضريبة. كذلك الذين يقومون بتربية الإبل عليهم أيضا أن يقدموا سنويا عشر ما يملكون، أخذت مواظبتهم على دفع الضريبة تقل. وهم كغيرهم يتمردون فى بعض الأوقات".

ويصف نظام التعامل الذى كان سائداً بين أهل دارفور يقوله "إنه لا يوجد فى دارفور مايشبه العملة المتداولة. اللهم إلا حلقات صغيرة من الصفيح من مختلف الأحجام. وقيمتها فى بعض الحالات عرفية. وهم لا يتعاملون بها إلا فى مدينة الفاشر، حيث تستخدم فى شراء بعض السلع البسيطة التى يمكن فى الوقت نفسه الحصول عليها مقابل الملح والخرز. أما الدولارات النمساوية وغيرها من العملات الفضية التى تأتى من مصر فجميعها يباع لاستخدامه كنوع من الحلى للنساء. وهم يحصلون على بعض الربح من بيعها". ويستطرد قائلا "ولأن الذهب لا يوجد فى دارفور، فإنه يندر وجوده فى الأسواق. وهو إن وجد يكون على شكل حلقات تزن الواحدة ربع أوقية. وفى هذه الحالة يأتى من سنار. وأما

المحبوب المصرى، وغيره من العملات ذات القيمة الثابتة فإنها لا تستخدم فى شراء أى سلعة. أما السلع المتداولة التى يتعاملون بها فيما بينهم، فهى غالبا ما ترتبط بزيهم، مثل الأقمشة القطنية والحريرية والكهرمان والكحل. وهم يبادلونها بالثيران والإبل والعبيد".

المدن التجارية فى دارفور

كوبة Cobbe (١٧٩٣ - ١٧٩٦)

تناول برون فى وصف كوبة موقع المدينة الجغرافى وأهميتها التجارية وطبيعة الحياة فيها، والقرى التى تحيط بها، والجاليات التى تعيش فيها من أقاليم السودان الأخرى ممن استوطنوا فى المدينة منذ عدة سنوات، والنشاط التجارى الذى تمارسه، إذ يقول "إن كوبة تتمتع بميزات العواصم. فهى مركز تجارى هام تقع على الطريق الذى يخترق دارفور من الشمال إلى الجنوب. وتكثر بها أشجار النخيل وأشجار النبق. ويحصل الأهالى على الماء اللازم عن طريق الأحواض فى موسم الأمطار، وعن طريق الآبار التى لا تراعى الدقة والمهارة فى حفرها، فيترتب على ذلك تدهور جدرانها وعدم إمكان الانتفاع بها أكثر من ثلاثة أو أربعة أشهر متلاحقة.[ص: ٢٣٤ ، ٢٣٥]

ثم يحدثنا عن سكان كوبة من التجار موضحا الدور التاريخى الذى قام به سكان ضفاف النيل الذين هاجروا إلى دارفور فى فتح طريق الاتصال التجارى المباشر بين دارفور ومصر يقول "إن الجانب الأكبر من سكان كوبة من التجار. ومعظم هؤلاء التجار يتاجرون مع مصر. كما أن بعضهم من أهل دارفور، لكن العدد الأكبر منهم جاءوا من على ضفاف النيل. ويبدو أن هؤلاء الأخيرين هم الذين بدأوا بفتح طريق الاتصال المباشر بين المصريين والفور، ذلك أنه منذ عدة سنوات كانت أوطانهم فى دنقلة والمحس وجميع ضفاف النيل حتى سنار جنوبا ذات الموارد والخيرات الطبيعية التى تفوق موارد وخيرات دارفور، مسرحا للنهب وسفك الدماء. فكانت الانقسامات الداخلية تمزق شملها على الدوام، فهاجروا من بلادهم، ولاذ الكثير منهم بالجهات الغربية (دارفور). ولما كان هؤلاء قد اعتادوا الاتصال بمصر بأسهل الطرق وأقصرها، وكانوا يجنون من وراء ذلك أرباحا طائلة، فإنهم عندما حلوا بالبلاد الغربية راودتهم فكرة إمكان الاتصال بمصر مرة أخرى عن طريق آخر يحصلون منه على ما كانوا يحصلون عليه سابقا من أرباح، ففتحوا ذلك الطريق الذى يسلكه الجلابة الآن من مصر إلى كوبة بدارفور". [ص ٢٤٠] وعن سكان كوبة الآخرين يقول: "وفى كوبة بعض المصريين، وبخاصة من الصعيد، وقليل من التونسيين ومن مواطنى طرابلس، وبعضهم يأتون مع القوافل لبيع بضائعهم ثم يعودون إلى بلادهم، إلا أن البعض الآخر تزاوجوا مع أهل دارفور وتطبعوا تماما بطبائع الفور وأصبحوا

من رعايا السلطان.[ص ٢٤٠] ويصف النشاط التجارى لسكان مدينة كوبة بقوله "وباقى سكان كوبة من دنقلة والمحس وسنار وكردفان المشهورين بنشاطهم الفائق فى مضمار التجارة. ولكنهم مغامرون شجعان مثيرون للفتنة مما دفع السلطان الحالى إلى بذل الجهد لإقصائهم من بلاده. كما توجد أيضاً سلالة الذين كانوا قد هاجروا إلى دارفور وولدوا فى دارفور ذاتها".[ص ٢٤٠] وعن تجارة الرقيق فى سوق المدينة يقول: "إنه برغم أن الرقيق يؤتى به إلى السوق فى بعض الأوقات، إلا أنه يباع سرا على انفراد، إذ ينظر إليه على أنه عمل شرير، طالما فيه تيسير لبيع أشخاص مسروقين من بقاع أخرى".[ص ٢٤٣]

ويتعرض برون للمدن الأخرى مثل سوينى وكرمة[ص ٢٣٨] (تيسيرا Teiara) وكويكابيا[ص ٢٣٨] وريل ببعض التفصيل. كما يصف مدناً أخرى أقل أهمية بإيجاز مثل شبة Shaba [ص: ٢٣٦ - ٢٢٧] وجديد Gidid وكورس Cors وجله Gelle وفى كل هذه المدن يقدم رصداً للنشاط الاقتصادى والسكان.

مصادر البحث

أولا- المصدر الأصلى

1- Broune, W.G. Travel in Africa, Egypt and Syria from the year 1792 - 1788, London, 1799.

ثانيا- المصادر الثانوية

1- Budge, A.E.W. The Egyptian Sudan: In history and Monuments. (2 Vols), London, 1907.

2- Hill, R.L.A Biographical Dictionary of the Anglo Egyptian Sudan, Oxford, 1951.

3- Des Cription de L`Egypte, Tome.

الفصل الثالث

الرحالة "لويس بوركهارد Burchard "
(١٧٨٤ - ١٨١٧م)

ظروف رحلته فى النوبة والسودان (١٨١٣ - ١٨١٤م):

هو عمدة الرحالة الأوربيين الذين زاروا بلاد النوبة والسودان فى العصر الحديث، لما امتاز به من دقة الملاحظة والمشاهدة، وتحرى الصدق والأمانة فيما أمدنا به من معلومات قيمة شملت مختلف نواحى الحياة فى أقاليم النوبة والسودان التى قدر له زيارتها ولقد حاز إعجاب وتقدير الرحالة الذين زاروا النوبة والسودان من بعده، وشهدوا له بصدق رواياته. ولذلك تحظى المعلومات التى جاء بها عن النوبة والسودان باهتمام وتقدير الدارسين والباحثين فى تاريخ السودان الحديث خلال تلك الفترة.

ولد "جون لويس بوركهارد" Burchard فى لوزان عام ١٧٨٤م. والتحق وعمره ستة عشر عاماً بجامعة "ليبزج Leipzig"، حيث درس بها أربع سنوات. ومن "ليبزج" سافر إلى كوتنجن "Cöttigen". ثم تركها عام ١٨٠٥ إلى " بازل Basle" ثم سافر إلى لندن عام ١٨٠٦ وعرض خدماته على الجمعية الإفريقية وقبل طلبه. وفى يناير عام ١٨٠٩ تلقى تعليمات الجمعية عن الرحلة المزمع أن يقوم بها إلى الشرق العربى. ومنذ ذلك الوقت أخذ "بوركهارد" يعد نفسه لهذه المهمة فدرس اللغة العربية التى تفيده فى رحلته، وتلقى محاضرات فى الكيمياء والتعدين، والطب، والجراحة. وفى فترات الفراغ بين هذه الدراسات أخذ يعد نفسه ويدربها على القيام بالرحلات الطويلة مشياً على الأقدام حافى الرأس تحت وطأة حرارة الشمس. وكذلك النوم على الأرض، والاعتماد فى الطعام على أنواع من الخضر [ص: ٢٩ Budge].

وفى عام ١٨٠٩م أبحر من إنجلترا إلى طرابلس الشام. وظل فى سوريا عامين ونصف العام. وكان يعرف هناك باسم "إبراهيم بن عبد الله" وهو الاسم الذى كان قد اتخذه لنفسه أول الأمر فى مالطة. ثم أصبح بعد ذلك يقترن بلقب "حاج" وقد ساعدت إقامته فى سوريا على زيادة معلوماته فى اللغة العربية زيادة كبيرة واتساع دائرة معرفته وخبرته بها. كما أحاط علماً بالعادات والتقاليد الشرقية التى اشتهر بعد ذلك بالإلمام بها. وفى فبراير عام ١٨١٢ غادر "بوركهارد" طرابلس الشام إلى القاهرة التى وصل إليها فى ٤ سبتمبر من نفس العام. وفى نوفمبر من العام نفسه كتب "بوركهارد" إلى مجلس إدارة الجمعية الإفريقية فى لندن يخبره بأنه عزم على الرحيل إلى النوبة فى شهر ديسمبر ويقول فى

رسالته "إنْ هذه البلاد أبعد من الدر ولم يقم أى سائح بزيارتها من قبل، مع أنها كما علمت تكثر بها المعابد القديمة وغيرها من الآثار الشبيهة بآثار الأقصر وجزيرة فيلة. وأن استقرار وهدوء الحالة فى مصر يجعل القيام بمثل هذه الرحلة أقل صعوبة مما نتصور خلال القرن الماضى، لأن باشا مصر هو السيد المطلق للبلاد، وعلى علاقة ودية مع أمراء النوبة. ولو أنه على غير ذلك مع المماليك الذين استقروا فى دنقلة وامتلكوا هذا الإقليم وإنى آمل أن أصل إلى ذلك الإقليم، ولكن سوف لا أعرض نفسى لغدرهم. وسوف أكون مسروراً بالتقدم فى رحلة تستغرق خمسة أو ستة أيام إلى الجنوب من دنقلة. وربما يكون ذلك بالتوغل فى الصحراء النوبية."

غادر "بوركهارد" القاهرة فى ١١ يناير عام ١٨١٣، ووصل إلى أسوان فى ٢٢ فبراير (عام ١٨١٣). وقد أمده حاكم المدينة بدليل حتى الدر التى وصل إليها بعد أربعة أيام. وبعد ثلاثة أيام أخرى وصل إلى الشلال الثانى شمال وادى حلفا. ثم إلى السكوت وجزيرة صاى بعد أن اخترق صحراء بطن الحجاز الصخرية. وبعد أن وصل إلى "تنارة" Tanara (التى تقع جنوب أسوان بمسافة تقدر بين ٤٣٠ و٤٥٠ ميلاً) رجع إلى مصر بعد أن استغرقت رحلته من أسوان إلى تلك المدينة ذهاباً وإياباً ٣٥ يوماً [ص ٣٠] وعند رجوعه سكن فى إسنا. واستمر يرتدى زى تاجر مسلم فقير. وأخيراً عزم على مرافقة إحدى قوافل سنار عند مغادرتها دراو التى تبعد حوالى عشرين ميلاً شمال أسوان، أملاً فى الوصول إلى نهر العطبرة بعد رحلة عبر الصحراء النوبية شرق النيل. وقد غادر "بوركهارد" بالفعل دراو مع قافلة سنار فى مارس عام ١٨١٣ وعبر صحراء النوبة، وهو نفس الطريق تقريباً الذى سلكه "چيمس بروس James Bruce" عند رجوعه من الحبشة قبل ذلك التاريخ بأكثر من خمسين عاماً. ونزل بربر على النيل، ثم انتقل إلى شندى، حيث السوق الرئيسية لتجارة الرقيق، والتى تقع عند ملتقى طرق القوافل بين مصر شمالاً وسنار جنوباً ودارفور وكردفان غرباً. ومن شندى سلك طريق نهر العطبرة إلى قوز رجب، ومنها إلى التاكا أوكسلا، حيث كان يهدف إلى عبور المرتفعات شرقاً إلى مصوع على البحر الأحمر. ولكن وجد أن ذلك غير ممكن. ولذا غادر التاكا إلى سواكن التى وصل إليها فى ثلاثة عشر يوماً. ومن سواكن أبحر إلى جدة التى وصل إليها فى ٤ أغسطس عام ١٨١٤م [ص ٣١ - ٣٢]

بوركهارد فى إقليم النوبة:

الأوضاع السياسية فى النوبة الشمالية قبل مجئ حملة إسماعيل

لقد كشف الرحالة "بوركهارد" أثناء رحلته فى بلاد النوبة عام ١٨١٣ عن حقيقة الأوضاع السياسية فى ذلك الإقليم السودانى فى الفترة التى سبقت مجئ حملة إسماعيل

بن محمد على باشا والى مصر، لضمها إلى الإدارة المصرية (١٨٢٠/١٨٢١م)، وهو ما يعتبر فى واقع الأمر صفحة هامة مطوية فى تاريخ السودان الحديث لم يسبقه فى الكشف عنها أو دراستها أحد من الرحالة الأوربيين الذين سبقوه إلى زيارة بلاد النوبة، مثل الرحالة "چيمس بروس James Bruce" الذى زار تلك البلاد عند عودته من الحبشة إلى مصر عام ١٧٧٢م. وإذا كنا نفتقر إلى المزيد من المعلومات عن الأوضاع السياسية فى أقاليم السودان الأخرى فى تلك الفترة التى قامت فيها سلطنات وممالك وطنية مثل سلطنة الفونج فى إقليم سنار، وما تبعها من بلاد النوبة الجنوبية، وسلطنة الفور فى إقليم دارفور، ومملكة تقلى بالسودان الغربى، فإن معلوماتنا عن الأوضاع السياسية فى النوبة الشمالية وقتذاك أقل بكثير، وتكاد أن تكون مجهولة لنا لولا ما أمدنا به الرحالة "بوركهارد" فى هذا الشأن، بالإضافة إلى ما جاء به الرحالة "وادنجتون" الإنجليزى الأصل. بيد أن "وادنجتون" لم يتناول ما تناوله الرحالة "بوركهارد" من أحداث وأوضاع سياسية أخرى بالتفصيل فى بلاد النوبة الشمالية قبل قدوم حملة إسماعيل إليها.

يقول عن الحكام الكشاف "إنه فى أثناء زيارته للنوبة (عام ١٨١٣) كان هؤلاء الحكام ثلاثة يطلق عليهم اسم كشاف. وهم إخوة أولهما حسن كاشف، وحسين كاشف."[ص ٥٨] وهؤلاء الإخوة هم أبناء سليمان كاشف، وأن أحدهم المدعو حسن يقيم فى الدر [ص٢] وحدود أمراء النوبة تقع عند الجبهة الجنوبية لبربه Bribe، وهى قرية صغيرة مقابل فيلة التى تدخل فى نطاق هذه الحدود[ص ١٢٩ ، ١٣٠]. وإلى الشمال من فيلة تبدأ حدود أسوان التابعة لمصر.[ص٥ ، ١٣٠] ويضيف بوركهارد "أن مختلف المزارع الممتدة من هنا إلى أسوان شمالاً تكون جزءاً من حدود قرية بربه، وهى تتمتع بمقتضى فرمانات قديمة من الباب العالى بإعفاء شامل من جميع أنواع ضريبة الأرض. وأن الحكومة التى تخضع لها حكومة الرؤساء النوبيين."

أما عن علاقة هؤلاء الحكام الكشاف بمحمد على والى مصر فيذكر "بوركهارد" أن أولئك الحكام كانوا يؤيدون المماليك ويعارضون محمد على. ويستدل "بوركهارد" على ذلك "بأن محمود كاشف ظنه عند قدومه إلى بلاد النوبة أنه سائح من رجال محمد على" [ص ٥٨] ولكن حدث أن وقع خلاف بين الإخوة الثلاثة حكام النوبة [ص ١٣٦] - كما يروى "بوركهارد"- فاستعان أحدهم وهو محمود كاشف بإبراهيم باشا الذى أرسل جيشاً إلى بلاد النوبة وصل إلى جنوب الشلال الثانى عند وادى حلفا. ويضيف "بوركهارد" إلى ذلك "أن هدف حملة إبراهيم كانت القبض على أتباع حكام النوبة (المماليك) الذين لاذوا بالفرار، ولكن الحملة فشلت. [ص١٣٦]

ويقول "بوركهارد" "ومجرد أن انسحب الأتراك عاد الكشاف إلى الدر وفى عودتهم جمعوا هم أيضاً ضريبة الأرض من رعاياهم الذين أصبحوا معرضين لطمع الأتراك وطمع حكامهم. وكل منهما لا يرحم وذلك لعدم استقرار الحكم فى تلك البلاد." [ص١٣٦] ويصف طابع الظلم والاستبداد الذى تميز به حكم هؤلاء الحكام الكشاف لرعاياهم من

النوبيين وصفاً معبراً يقول فيه "إذا عسكر الحكام فى بقعة ما أثناء انتقالاتهم، فإن أهالى تلك البقعة يهجرون قراهم، إذ يفضلون ترك حقولهم ومحاصيلهم على الخضوع لابتزاز أتباع أولئك الحكام الذين يتركون عادة خيولهم وإبلهم ترعى وسط الحقول (حقول الشعير)، بينما يقومون هم بجمع الحصر من البيوت التي هجرها أهلها، لنقلها إلى معسكر الحكام، حيث تستخدم كوقود."[ص٥٨] وهناك بقايا أخرى من الحكم التركى فى شمال بلاد النوبة حدثنا عنها الرحالة "بوركهارد" خلال زيارته فى هذه الجهات (عام ١٨١٣) بقوله "وحكام صاى واسون وإبريم بما يتبعهم من حدود، مستقلون عن حكام النوبة. وعلى كل منطقة من هذه المناطق حاكمها الخاص أو الأغا. ويرجع تاريخ هؤلاء الأغوات إلى عهد سليم الأول (سلطان تركيا) الذى أرسل جنود البوشناق لحراسة تلك الجهات وقد ظلت سلالات هؤلاء الجنود تعيش فيها بعد ذلك."[ص٥٥]

ويحدثنا "بوركهارد" عن وضعهم السياسى بالنسبة للقوى الحاكمة فى شمال بلاد النوبة، ونشاطهم التجارى، وما فعله المماليك الفارين من مصر بثرواتهم عند مرورهم ببلادهم خلال تقهقرهم نحو الجنوب قائلاً "إنهم خاضعون لأغا إبريم مستقلين عن حكام النوبة، أحرار من دفع الضرائب. وهم أيضاً لا يدفعون شيئاً للأغا. وقد استطاعوا بمضى الزمن أن يكونوا لأنفسهم ثروة مالية وحيوانية عن طريق بيع التمر. ولكن المماليك فى أثناء تقهقرهم عام ١٨١٢ أبادوا فى بضعة أسابيع ما جناه هؤلاء الأتراك فى قرن. إذ استولوا من إبريم على ما يقرب من ١٥٠٠ رأس من البقر، وجميع الضأن والماعز. وسجنوا الشخصيات البارزة منهم، وطالبوا بمليون دولار أسبانى فدية لهم. وعند رحيلهم (رحيل المماليك) قتلوا الأغا، وسلبوا ونهبوا كل المؤن التى صادفتهم فى طريقهم. وأعقب ذلك مجاعة ..."[ص٣٣]

ويصف "بوركهارد" حالة الحرب المستمرة بين هذه السلالات التركية وحكام النوبة بقوله "وسكان إبريم فى حالة حرب دائمة مع حكام النوبة. وبالرغم من قلة عددهم فإنهم يمثلون شوكة فى حلق هؤلاء الحكام، إذ أنهم مزودون بالأسلحة النارية. وبالنظر إلى عدم خضوعهم للأغا خضوعاً مطلقاً، ومستقلين عن أى سلطة أخرى فهم دائماً فى معارك فيما بينهم."[ص٣٤]

وهؤلاء الرؤساء كانوا حكاماً على القبائل العربية التى تقطن مناطق النوبة المختلفة، وفى الوقت نفسه يدفعون الجزية عن شعوبهم لحكام النوبة (الكشاف) الذين سبق الحديث عنهم. وهو ما يكشف عن حقيقته الرحالة "بوركهارد" أثناء زيارته لهذه المناطق. ويضيف "بوركهارد" إلى ذلك "أن هؤلاء الأشراف يدفعون جزية بسيطة لملكهم الذى يدفع بدوره جزية إلى حكام النوبة الذين يستولون على ما يصادفونه فى طريقهم من ممتلكات هؤلاء العرب عند مرورهم ببطن الحجاز."[ص٦٣]

ويذكر أيضاً الرحالة "بوركهارد" فى موضع آخر من كتاب رحلته "أنه على واد حميد يوجد ملك قبيلة حميد العربية. وهو يدفع الجزية لحكام النوبة."[ص٥٦] كذلك يذكر أنه

فى المحس، حيث يدعى السكان أنهم ينتمون إلى قبيلة قريش، وأنهم جاءوا إلى هنا فى فترة زحف القبائل العربية على مصر والنوبة، يوجد ملك يجمع الدخل من مملكته ويقدم جزية سنوية أخرى لهؤلاء الحكام."[ص٦٤] ويستطرد الرحالة "بوركهارد" قائلاً "وإلى الجنوب من المحس عبر النيل حتى سنار يوجد ما يقرب من عشرين مملكة أو ملك يتمتعون بالاستقلال ولهم سلطة غير مقيدة (مطلقة) على رعاياهم ويستبدون بممتلكاتهم .[ص٦٤]

اتساع سطوة الشايقية وسيطرتهم على دنقلة:

يضيف "بوركهارد" نزعة الشايقية القتالية وقوتهم العسكرية التى كانت في واقع الأمر يكمن من ورائها اتساع سطوتهم فى بلاد النوبة وخارجها فى أقاليم السودان الأخرى المجاورة بقوله "إن الشايقية يعتبرون من أقوى الشعوب التى تقع إلى الشمال من سنار. وهم خيالة مهرة كما هو شأن المماليك فى مصر. يميلون إلى القتال وهم فى حرب دائمة بينهم، إذ يتكونون من عدد من القبائل. كما أنهم يقومون بغارات النهب والسلب التى تمتد أحياناً إلى دارفور غرباً وإلى وادى حلفا شمالاً. وهم مستقلون تمام الاستقلال ولا يدفعون أية ضريبة لرؤسائهم."[ص٦٩ ، ٧٠]

ثم يصف الأوضاع السياسية فى دنقلة، وما كان من أمر ازدياد نفوذ الشايقية فيها، وبخاصة السيطرة عليها قبل قدوم المماليك الفارين إليها من مصر عقب مذبحة القلعة فيقول "إن دنقلة منذ زمن كانت تحكمها أسرتان: أسرة الزبير وكانت تحكم المقاطعات الشمالية، وأسرة "فنية" Funnya وكانت تسيطر على الجهات الجنوبية. بيد أن هذه الأسر لم يكن لها سوى السلطة الإسمية. أما السلطة الحقيقية فقد كانت بيد الشايقية الذين اعتادوا أن يشنوا غارات السلب والنهب علي دنقلة، ويقومون بتخريب مقاطعاتها. وقد قاوم رؤساء دنقلة هؤلاء الشايقية حتى قتل أغلب زعماء قبيلة "فنية". واضطر الباقى منهم إلى الدخول فى اتفاق أو معاهدة مع هؤلاء الغزاة تعهدوا بمقتضاها أن يسلموا الشايقية نصف دخل الإقليم ثمناً لامتناعهم عن أعمال السلب والنهب الذى اعتادوا القيام بها."[ص٧١]

ويستطرد "بوركهارد" "ومنذ ذلك الوقت عاشوا فى سلام ولكن نظراً لاستقرار الشايقية فى دنقلة والخندق وأرقو بقصد جمع نصيبهم من الدخل، فقد ترتب على ذلك انتشار نفوذهم فى جميع أجزاء إقليم دنقلة. وسرعان ما أخذ سلطانهم فى هذه الجهات فى الرجحان. وعندما وصل المماليك إلى أرقو على أثر فرارهم من مصر رحب بهم زعيم الشايقية الأكبر محمود عدلاناب Adelanab بحكم طبيعة الكرم التى جبل عليها قومة." لكنهم انقلبوا عليه لاحقاً وقتلوه .[ص٧١ ، ٧٢]

فشل محاولة المماليك الاستيلاء على مروى:

ويمضى "بوركهارد" فى وصف تلك الأحداث، فيحدثنا عن نشوب الحرب بين المماليك والشايقية، وما كان من فشل محاولة المماليك الاستيلاء على مروى أهم مراكز الشايقية "ومنذ ذلك الوقت استمرت الحرب سجالاً بين الشايقية والمماليك الذين زحفوا فى يناير عام ١٨١٣ بكل قوتهم نحو مروى. ولكن بينما هم متجهين جنوباً عبرت جماعة من الشايقية الجبال ودهمت مؤخرة المماليك، فقتلوا أتباعهم القلائل الذين تركوهم فى أرقو والخندق، ونهبوا ما تبقى من ممتلكاتهم. وقد ترتب على ذلك عدم استطاعة بعض بكوات المماليك فى الدر الاتصال برفقائهم، فظلوا فى حصن الحنّك والمخس، حيث المواقع المنيعة. على أن المماليك وقد فشلوا فى محاولتهم ضد مروى رجعوا إلى دنقلة."[ص٧٢ ، ٧٣]

خطط المماليك التوسعية خارج السودان:

ويشرح لنا "بوركهارد" الخطط التوسعية التى جالت بخواطر المماليك بعد فشل محاولتهم للاستيلاء على مروى وعودتهم إلى دنقلة قائلاً "وكان أمام المماليك خطتان إما أن يضربوا ضربتهم اليائسة على مصر العليا إذا واتتهم الظروف رغم أن يقظة محمد على لم تكن لتدع لهم أقل فرصة لنجاح خطتهم فى هذه الجهات. أو أن يحاولوا الاستيلاء على ميناء على البحر الأحمر، حيث يمكنهم عن طريقه أن يجددوا قواهم باستيراد الرقيق الصغار من جورجيا. وقد كان ميناء مصوع خير مكان مناسب لتنفيذ هذا المشروع، إذ يبعد عن مقرهم الحالى مسافة ٢٢ يوماً، منها ٤ أيام عبر الصحراء إلى شندى و١٨ يوماً منها إلى مصوع عبر طريق معظمه أراضٍ زراعية."[ص٧٣]

أحوال المماليك فى دنقلة (عام ١٨١٣):

ويصف "بوركهارد" أحوال المماليك فى دنقلة وقت زيارته لها عام ١٨١٣ بقوله "والآن ليس لديهم (المماليك) المال. بيد أنهم يملكوْن عدداً كبيراً من العبيد الذين بواسطتهم يستطيعون شراء كل شئ. فالعبد يمثل نوعاً من العملة المتدوالة فى المناطق الجنوبية. وقد مات عدد كبير منهم فى صيف عام ١٨١٣ تحت تأثير الحمى التى تجتاح عادة دنقلة فى الفصل الحار، فتقضى على عدد كبير من السكان. ونظراً لعدم قدرتهم على تحمل الحرارة بملابسهم الصوفية السميكة التى اعتادوا ارتداءها، فإنهم شيدوا عدداً من الأكواخ الخشبية التى كانوا يظللونها بالحصر. وقد كان عبيدهم يحرصون على حفظها دائماً مبللة، ويقضون طول مدة الصيف على أسطح تلك الأكواخ الخشبية."[ص٧٣]

مشاهدات «بوركهارد» ودراساته في إقليم بربر

نظام الحكم فى إقليم بربر:

يقدم لنا "بوركهارد" فى حديثه عن نظام الحكم فى إقليم بربر خلال زيارته للإقليم عام ١٨١٣ معلومات تاريخية هامة عن النظام الذى اتبعه ملوك سنار -زمن حكم أسرة الفونج- فى حكم أقاليم السودان الذى امتد نفوذهم إليها، ومن بينها إقليم بربر، ويحدد لنا فى الوقت نفسه الحدود الشمالية لامتداد نفوذهم، إذ يقول "عندما بسط ملك سنار سلطانه -زمن حكم أسرة الفونج- على البلاد الواقعة شمالاً عبر النيل حتى حدود المحس الجنوبية، أخذ يعين على قبائل تلك الجهات ملوكاً يختارهم من بين هذه القبائل. وكان الملك لا يتوارث، إذ عقب وفاة المك أو الملك يقوم ملك سنار باختيار من يعجبه من أسرة المتوفى، أو يبيع هذا المنصب لمن يدفع أكثر من بين أفراد تلك الأسرة. وهذا النظام كان متبعاً فى قبيلة الميريفاب القاطنة بإقليم بربر."[ص٢١١] وعدا ذلك فقد كانت سلطة سنار على هذه الجهات اسمية.

ويصف "بوركهارد" نفوذ المك الذى يعينه ملك سنار على أفراد قبيلته بقوله."إن نفوذ المك ضعيف على أفراد قبيلته، وبخاصة الذين ينتمون إلى أسر قوية، كما أنه لم يكن يستطيع أخذ ضرائب على حقولهم ومنتجاتهم. بيد أنه كان يظلم الغرباء، الذين كان يجمع منهم أكبر نصيب من الدخل.[ص٢١٠]

الزراعة في إقليم بربر:

يصف "بوركهارد" الزراعة عند الميريفاب سكان إقليم بربر الأصليين وصفاً معبراً عن حقيقة مكانتها في حياة هؤلاء السكان "بعض الميريفاب يشتغل بالزراعة والبعض الآخر بالرعى(١). ويقومون بزراعة الأرض عقب الفيضان. وهم يزرعونها ذرة وقليل من الشعير. ويملكون عدداً قليلاً من السواقى لا يزيد عددها على أربعة أو خمسة فى قرية أنقهيرى Ankheyre وقرية الحصا Hassa (وهى من القرى الأربع التى يتكون منها إقليم بربر)"[ص٢٣٠]

ويصف وسيلة أهل بربر فى زراعة الأرض والنظام المتبع فى ريها، ويقارن ذلك بما هو متبع فى مصر العليا بقوله "وقبل زراعة الأرض يقومون بتقليبها بلوح من الخشب. وأما المحراث فغير متداول بينهم. وقد استخدمه أحد المصريين عام ١٨١٣ لأول مرة. وهم

يزرعون الأرض مرة واحدة فى السنة (عقب الفيضان). ولما كانت شواطئ النهر مرتفعة فى جملتها أكثر من الوجه القبلى (مصر العليا) ، فإن كثيراً من البقاع الصالحة للزراعة تظل دون أن تفيض عليها مياه النهر. وهذا القصور لا يعوض بالرى الصناعى كما هو حادث فى مصر العليا من أجل الحصول على عدة محاصيل من نفس الأرض. ولذلك كثيراً ما تنتشر بينهم (سكان بربر) المجاعة كما حدث عام ١٨١٣م، حيث بيع مدّ (كيل من المكاييل الذى تكال به الحبوب) بنصف دولار أسبانى."[ص٢٣٠] ويقارن بين حال الزراعة فى بربر وقت زيارته لها عام ١٨١٣ وما كانت عليه فى الماضى القريب قائلاً "ويبدو أن الزراعة كانت منتعشة فى هذا الإقليم من وقت غير بعيد أكثر من الوقت الحاضر، لأنه يلاحظ فى الحقول آثار قنوات عميقة أصبحت الآن مهملة للغاية، بالرغم من أنه فى الإمكان أن تحول بواسطتها حتى الأجزاء المجاورة للصحراء إلى سهل صالح للزراعة."[ص٢٣٠، ٢٣١]

أما الغلات الزراعية التى كان أهل بربر يقومون بزراعتها "فهى الذرة، المحصول الرئيسى، بل والغذاء الرئيسى للإنسان والحيوان. والقمح يزرع فى بربر، وقليل منه يوجد فى الأقاليم المجاورة. والذرة من النوع الذى يوجد فى مصر العليا، وإن كان يختلف عنه فى السيقان التى تمتاز بأنها أكثر صلابة وطولاً، حيث يصل ارتفاعها بين ١٦ - ٢٠ قدماً. ويضيف "أنه لا ينمو من الخضر فى إقليم بربر سوى البصل واللوبيا والبامية التى يطلق عليها فى هذه الجهات اسم "ويكة"، والملوخية. وجميع هذه الأصناف شائعة فى مصر. ولا تزرع الفاكهة فى هذا الإقليم. وشجرة النبق هى النوع الوحيد المعروف هناك."[ص٢٣١]

نظام المساكن فى قرى إقليم بربر:

يصف "بوركهارد" منازل القرى التى يضمها إقليم بربر، ويقارنها بمنازل القرى فى مصر العليا بقوله "من الملاحظ على القرى الأربع التى يشتمل عليها إقليم بربر وهى قرية أنقهيرى Ankheyre وقرية قوز السوق Goz Souk أو قوز وقرية قوز الفينة Goz el Funny وقرية الحصا el Hassa على مسيرة نصف ساعة من النهر وقائمة فى صحراء رملية على أطراف تربة صالحة للزراعة، ومنازلها مقسمة إلى أقسام (نزلات جمع نزلة) ولا توجد بينها شوارع منتظمة، بيد أنها مبنية بطريقة جيدة من الطمى أو الطوب اللبن، ولا تقل جودة عن منازل مصر العليا. وجميعها من طابق واحد. والمنزل مقسم إلى أقسام: قسمان منها مخصصان عادة لسكنى الأسرة، وقسم ثالث يستخدم كمخزن، وقسم رابع لاستقبال الضيوف، وقسم خامس يشغله عادة النساء العوام."[ص ٢١٢]

ويستطرد "بوركهارد" فى وصف المسكن فى قرى إقليم بربر قائلاً "ولا يوجد فى

الحجرة سوى شباك صغير لا يعطى إلا ضوءاً بسيطاً. ومن هنا كان باب الحجرة دائماً مفتوحاً. والأبواب مصنوعة من الخشب، ولها أقفال ومفاتيح من الخشب، كما هو شائع فى مصر وسوريا. بيد أنها صناعة رديئة."[ص ٢١٣]

نشاط أهل بربر الرعوى وثروتهم الحيوانية:

يتحدث عن نشاطهم الرعوى وثروتهم الحيوانية. وقد تناول فى حديثه أنواع الحيوان التي يعنى أهل بربر بتربيتها بكثرة المراعى الطبيعية فى بلادهم، وهى البقر والإبل والأغنام، إلى جانب حرصهم على اقتناء الخيل لما تؤديه من خدمات فى حروبهم مع جيرانهم. وقد أشاد بصفة خاصة بالإبل التى تربى فى بربر والمكانة التى تحتلها فى الأسواق المصرية. بيد أنه أشار فى الوقت نفسه إلى حاجة أهل بربر المستمرة إلى أنواع الحمير التى تربى فى مصر والتى تمتاز بسرعتها، والأغراض التى تستخدم فيها.

يقول "بوركهارد" فى وصف نشاط أهل بربر الرعوى على مدار فصول السنة "إن أهل بربر يقومون بتربية أعداد كبيرة من القطعان التى تمتاز بأنها من أجود الأنواع. وهم يرعون هذه القطعان فى الشتاء والربيع.عقب سقوط الأمطار على مرتفعات البشارية، حيث يعيشون عيشة البدو فى الأكواخ والخيام. ويضيف "أن الأبقار تربى فى بربر من أجل ألبانها، وأساساً من أجل لحومها. والقليل منها من أجل إدارة السواقى."[ص ٢٢١ – ٢٣٢]

أما عن إبل أهل بربر فيصفها الرحالة "بوركهارد" بأنها من أجود الأنواع ويقارنها بالإبل المصرية قائلاً "إنها أكثر قوة وتحملاً للتعب من أنواع الإبل المعروفة فى مصر." ويضيف "أن الهجين فى بربر تفوق أنواع الهجين الموجودة فى سوريا وبلاد العرب.[ص ٢٣٢] ويصف "بوركهارد" إقبال محمد على والى مصر والمصريين عامة على إبل بربر وقت زيارته لمصر والسودان (١٨١٣ – ١٨١٤) بقوله " يلاحظ فى الوقت الحاضر إقبال كبير على إبل بربر فى أسواق مصر، حيث يشتريها باشا مصر من أجل إرسالها إلى بلاد العرب لنقل المؤن. وفى كل شهر يخترق الصحراء ثلثمائة أو أربعمائة جمل. والجمل يساوى فى بربر ما بين ثمانية واثنى عشر دولاراً، بينما يباع فى دراو بثمن يتراوح بين ثلاثين وأربعين دولاراً، وفى القاهرة بين خمسين وستين دولاراً."[ص٢٣٢]

وعن اقتناء الحمير والخيول فى بربر يقول "إن كل أسرة تمتلك تقريباً حمارين وهو من النوع القوى، ويستخدم أساساً فى نقل المحاصيل الزراعية من الحقول إلى المنزل، وكذلك حمل "السبخ" (السماد) الذى يحصلون عليه من الجبال. والفلاحون يغطون حقولهم بهذا النوع من التراب (السماد) قبل بذر البذور ليزيد من خصوبة الأرض."[ص٢٣٢] أما الخيل فإنها تكثر (فى بربر)، وكل عائلة محترمة تحتفظ بواحد منها

على الأقل. ويركب عرب المناطق النوبية ذكور الخيل (الفحول) فقط. ويستخدم الميريفاب (سكان بربر) الخيل فى خروجهم مع جيرانهم. والفرسان هم الذين يقررون عادة مصير المعركة.[ص٢٣٢ - ٢٣٣] ويقول "بوركهارد" عن تربية الخيل فى بربر: "والخيل (فى بربر) تربى على الذرة. وتستخدم أوراقها الجافة بدلاً من العشب. وفى الربيع لعدة أسابيع ترعى الخيل على الشعير الأخضر. ويتراوح سعر الخيل من خمسة عشر إلى أربعين دولاراً. ولا يسمى فى بربر باسم حصان كما هو شائع فى مصر، وإنما يطلق عليه اسم "حافر."[ص٢٣٣] ويستطرد قائلاً "والسرج المستعملة فى دنقلة وسنار والحبشة تشبه تلك التى يستخدمها فرسان أوروبا. ولبس الخيل التى تغطى به ظهرها وجوانبها ورقبتها وصدرها مصنوع من الصوف والقطن السميك، وهو يحمى هذه الخيل من السيوف والرماح أثناء الحرب. ويلاحظ أن هذا اللبس الذى يستخدمه أهل بربر مصنوع بطريقة أكثر إتقاناً ورغم أنه خفيف الوزن إلا أنه متين أكثر مما يستخدمه البدو والشرقيون."[ص٢٣٣]

الصناعات البسيطة فى بربر:

لقد أشار "بوركهارد" إلى بعض الصناعات البسيطة التى كان أهل بربر يقومون بصناعتها لخدمة بعض أغراض الحياة فى إقليمهم، ومنها ما أشار إليه فى حديثه عن نظام المساكن، وهى الأبواب الخشبية ذات الأقفال والمفاتيح المصنوعة من الخشب التى وصفها "بأنها شبيهة بما هو شائع فى مصر وسوريا، ولكنها صناعة رديئة".[ص٢١٣] لذلك ذكر عدم وجود أثاث فى المسكن سوى كنبة أو سرير وأن مثل هذا السرير له مقعد من القصب الغاب ويطلق عليه اسم سرير. وأما النوع المصنوعة قاعدته من جلد الثور والذى يطلق عليه اسم "العنجريج"، وهو من أجود الأنواع، فيستورده أهل بربر من سنار."[ص٢١٣]

على أن هناك صناعة أخرى تتعلق بالدهون المعطرة، يبدو أن أهل بربر قد اشتهروا بصناعاتها وأتقنوا تركيبها. وقد وصفها بقوله "إن أهل بربر يقومون بصناعة دهان معطر، يدعون أن له تأثيراً كبيراً فى تنبيه الجسم وتنشيطه، بالإضافة إلى قدرته على تنعيم الجلد."[ص٢١٦]

ويضيف أنه استخدم شخصياً هذا الدهان، إذ دهن منه أطراف جسمه وصدره، فوجد أنه يخفف من حدة حرارة الشمس."[ص٢١٦] ويستخدمه الرجال عادة قبل الاجتماع بنسائهم ويستخدمه الرجال والنساء.[ص ٢١٥ ، ٢١٦] ويصف مكونات هذا الدهان "بأنه يتكون من دهن الكباش الممزوج بالصابون والمسك وخشب الصندل، مضافاً إليه المحلب والسنبل."[ص٢١٥] "إن هذا الدهان المعطر له رائحة طيبة"[ص٢١٥]

التجارة فى إقليم بربر :

تناول "بوركهارد" فى حديثه عن التجارة فى إقليم بربر جوانب هامة من النشاط التجارى فى هذا الإقليم تضمنت نزعة أهل بربر التجارية وميلهم إلى الاشتغال بالتجارة فى الأوقات التى لا يعملون فيها بالزراعة، وأثر ذلك فى اتساع نطاق التجارة فى بربر، فضلاً عن أهمية مركزها التجارى، حيث تمر بها قوافل التجارة القادمة من سنار وشندى وهى فى طريقها إلى مصر. [ص٢٣٣] وقد شرح ظاهرة تفضيل التجار المصريين الذهاب إلى بربر عن التقدم جنوباً إلى شندى وسنار. لذلك تناول حركة السوق التجارية فى بربر وقارنها بشندى. كما تناول نظام التعامل التجارى بين أهل بربر، ووصف أيضاً حركة القوافل التجارية القادمة إلى إقليم بربر، وبخاصة قافلة دراو بمصر العليا. وأشار إلى المخاطر التى كان يتعرض لها من جانب اللصوص وقطاع الطرق، والجهود التي بذلها محمد على والى مصر قبل أن يضم السودان إلى مصر (عام ١٨٢٠/١٨٢١)- فى تأمين هذا الطريق الحيوى بمعاونة العبابدة.

السوق التجارية فى بربر :

ويصف السوق التجارية فى بربر ويقارنه بشندى بقوله "إن أنواع التجارة التى يشتغل بها أهل بربر هى ذاتها التى يشتغل بها أهل شندى. بيد أن تجارة أهل بربر أقل من تجارة شندى، وذلك لعدم وجود علاقات تجارية مباشرة بين بربر والمنطقة الجنوبية، بخلاف شندى التى تزورها قوافل الرقيق من جميع الأقاليم، وهى تعتبر فى الوقت الحاضر (عام ١٨١٣) المدينة التجارية الأولى ربما فى أفريقيا وجنوب مصر وشرق دارفور. والرقيق وكل سلعة أخرى تعرض للبيع فى بربر تأتى من شندى."[ص٢٣٥]

ويفسر لنا لماذا يفضل التجار المصريون -رغم ذلك- الذهاب إلى السوق التجارية فى بربر عن السفر إلى الأسواق الجنوبية مثل شندى وسنار، إذ يقول "إن المصريين يفضلون دائماًهذا السوق عن الأسواق الجنوبية رغم ازدياد الأسعار، لأنهم يستطيعون أن ينجزوا أعمالهم فى بربر بسرعة أكثر، كما أنه يمكنهم أن يلحقوا في أول فرصة بأية قافلة من قوافل الإبل والرقيق التى تغادر بربر إلى دراو عبر الصحراء."[ص٢٣٥] ويضيف "أن هناك عدداً كبيراً من التجار المصريين (من دراو بمصر العليا) يأتون إلى بربر ويبيعون بضائعهم، وحيث توجد عائلاتهم، كما أنهم ينتظرون القوافل القادمة من شندى. وأيضاً يوجد فى بربر عدد كبير جاءوا إليها من سنار."[ص٢٣٧، ٢٣٩]. ويستطرد قائلاً "وبالرغم من ذلك فإن سوق بربر لا زالت لا تحوى إلا مقادير صغيرة من البضائع ولا تناسب إلا التجار المصريين من أصحاب رءوس الأموال الصغيرة."[ص٢٣٦].

ويحدثنا عن بعض السلع التى شاهدها فى سوق بربر وكان أهل إقليم بربر يستوردونها عن طريق بعض التجار بقوله "إن إقليم بربر يستورد التمر الجيد من المحس عن طريق تجار دنقلة، ويستخدم الأهالى هذا النوع من التمر فى مناسبات غير عادية، فهم يغلونه مع الخبز واللحم واللبن. كما يستخدم الأهالى البن الذى ينمو فى المرتفعات الجنوبية الغربية للحبشة، عن طريق تجار سنار. وهو يباع بسعر أرخص من السعر الذى يباع به بن مخا فى مصر بمقدار ٣٠٪، مع أن النوعين متشابهان فى الشكل والطعم. ولا يتناول البن فى بربر إلا التجار والناس الذين يحتلون المقام الأول فى المجتمع، وحتى الأخيرين لا يستخدمونه يومياً." وهناك أيضاً المنسوجات المصرية الراقية "إن نساء الطبقات الراقية فى بربر يلبسن فوق قمصانهن ملابس ذات بطانة حمراء مصنوعة فى المحلة الكبرى بدلتا مصر."

يصف نظام التعامل التجارى بقوله "إن التعامل بوجه عام فى إقليم بربر، وجميع البلاد على الطريق الممتد منها إلى سنار يقوم على الذرة والدولارات الأسبانية. وجميع الأشياء ذات القيمة القليلة يقدر سعرها بالذرة التى وحدة كيلها "السلقا" (Salgas) أو اليد المملوءة. والثمانية عشرة "سلقا" تقدر "بمد". و"السلقا" عبارة عن كمية الذرة التى تسعها يد الإنسان البائع في حالة امتدادها. وعادة تحدث مشاجرات بين البائعين والمشترين بسبب اختلاف أحجام الأيادى. وفي مثل هذه الحالة يستدعى شخص ثالث ليقوم بكيل الذرة. والعشرة "أمداد" (جمع "مد") تقدر بدولار. وبالرغم من وجود المكاييل الخشبية، فإن الأهالى لا يثقون فيها ويفضلون استخدام الأيدى عنها."[ص٢٣٤]. ويضيف "أنه إلى جانب الذرة كوسيلة للتعامل فى إقليم بربر يوجد الدمور وهو قماش من القطن ردئ الصنع، ويصنع فى الجهات المجاورة لسنار ويستخدمه أهالى تلك الجهات فى صناعة ملابسهم. والقطعة الواحدة من الدمور تكفى لعمل قميص لرجل بالغ. ويطلق على هذه القطعة اسم "ثوب"، و"الثوب" ينقسم إلى "فردتين"، "والفردة" الواحدة يستخدمها العبيد ليلفوا بها وسطهم. "والفردة" تحتوى على "فتقتين لا تستخدم فى شئ إلا كوحدة معاملة لشراء بعض الأشياء مثل التبغ."[ص٢٣٤] ويوازن "بين التعامل بالذرة والتعامل بالقماش "الدمور" فى إقليم بربر قائلاً" والذرة على العموم وسيط للتعامل أكثر قبولاً لأن البائعين لا يأخذون دائماً "الدمور" بسعر السوق الحقيقى الذى يختلف عند قدوم كل قافلة من الجنوب."[ص٢٣٤، ٢٣٥]

أما عن التعامل بالدولارات فى إقليم بربر فيقول "إن العبيد والإبل والسلع الأخرى ذات القيمة الكبيرة يدفع ثمنها بالدولارات أو بثوب "الدمور" بيد أن السمسار يأخذ نصيبه ذرة يستبدلها فى الحال بدولارات. وفى التعامل التجارى الدولاران يسميان "قسمة"، والأربعة دولارات عبارة عن مثقال، والثمانية دولارات نصف "وقية". والستة عشر دولاراً تسمى "بوما" Puma أو "وقية". وهذه المسميات مأخوذة أصلاً من أوزان الذهب. "فوقية"

الذهب تساوى فى الأصل حوالى ستة عشر دولاراً. ولكن هذه التقديرات أصبح لها مسميات ثابتة. فالستة عشر دولاراً تسمى "وقية" حتى لو كانت وقية الذهب تساوى ثمانية عشر أو عشرين دولاراً." [ص٢٢٥].

حركة القوافل التجارية إلى بربر:

إن المتتبع لحركة القوافل التجارية القادمة إلى بربر، كما يصفها "بوركهارد" يرى أنها كانت تأتى من خمس جهات مختلفة: وأول هذه القوافل وأهمها تلك التى كانت تأتى من دراو بمصر العليا، والثانية من شندى،[ص٢٣٨] والثالثة من دنقلة، والرابعة من التاكا، والخامسة من سواكن على ساحل البحر الأحمر. ولقد وصف "بوركهارد" الطريق الصحراوى بين دراو بمصر العليا وبربر عبر صحراء النوبة الذى اعتادت أن تسلكه قوافل التجارة بين البلدين وصفاً دقيقاً أشار فيه إلى الآبار والأحواض الطبيعية التى تتجمع فيها المياه، وحدد المسافة بالأيام والساعات بين كل بئر وأخرى، ونوع المياه التى توجد فيها من حيث صلاحيتها أو عدم صلاحيتها للشرب، وأماكن استراحات القوافل على طول الطريق. كما قدر المدة التى يقطعها التجار عادة بين دراو وبربر بـ ١٦ أو ١٧ يوماً فى حين قدرها بين بربر ودراو بـ ١٢ يوماً، وعلل الفرق فى الوقت بين الرحلتين "بأن التجار عند رحيلهم من بربر يكونون مزودين بعدد وفير من الإبل يسهل لهم مهمة السفر وحمل السلع والمؤن."[ص: ١٧١ - ١٧٨ - ١٨٣ - ١٨٩].

ويقول "إن هذا الطريق الذى وصفه هو الطريق الوحيد الذى تسلكه القوافل من بربر إلى مصر، وهو أيضاً الطريق العام لقوافل سنار وشندى. وإن هناك طريقاً آخر إلى الغرب يمتد من بربر إلى سبوع وهى قرية على النيل لا تبعد كثيراً عن الدر، ويقوم أهلها بتجارة الرقيق بهمة ونشاط. وهذا الطريق لا يجد فيه المسافر إلا بئراً تسمى "مرات" وتتميز بوفرة مياهها ولكنها مرّة المذاق." [ص٢٠٧ ، ٢٠٨] يصف المخاطر التى كانت تكتنف طريق القوافل التجارية بين دراو بمصر العليا وبربر عبر الصحراء، إذ يقول "وأهم خطورة كانت تعترض هذا الطريق اللص نعيم زعيم عرب مقرات Magrat القاطنة بالقرب من النيل. هذا اللص اعتاد أن يعترض طريق القوافل عند بئر نجيم Nedjeym، إذ كان يحاط علماً بكل قافلة تغادر بربر. وكانت القوافل التى تحاول تجنبه بالسير إلى الشرق من تلك المنطقة يكون مصيرها أن تضل الطريق. وإذا ما حاولت السير على ضفاف النيل، فإنها تتعرض لكثير من الضرائب التى تفرضها عليها القبائل المتعددة القاطنة على تلك الضفاف. أضف إلى ذلك أن كثيراً ما يكون تجار القافلة فى حالة عداء مع القبائل القاطنة بجوار النيل، الأمر الذى يجعلهم يتجنبون المرور بها، وبخاصة بعد مقتل نعيم على يد شيخ العبابدة الذين اعتادوا قيادة القوافل فى هذا الطريق. فأصبح عرب مقرات القاطنين بالقرب من النيل والذين ينتمى إليهم نعيم فى حالة عداء مستحكم مع العبابدة الذين كانوا

يتجنبون الاقتراب بالقوافل نحو تلك الجهات."[ص١٩٠ ، ٢٠١]

وهناك خطر آخر كان يتهدد طريق القوافل التجارية بين دراو بمصر العليا وبربر أشار إليه الرحالة "بوركهارد" وقت زيارته لبلاد النوبة عام ١٨٨٣ بقوله "وفى الوقت الحاضر أصبح لا يوجد إلا اتصال بسيط بين بربر ومقرات أو الجهات النائية من إقليم الشايقية باستثناء الحجاج والزنوج الذين يسلكون الضفاف المسكونة على جانب النيل فى طريقهم إلى مصر. فالحرب القائمة الآن بين الشايقية والمماليك وفى دنقلة لا تساعد على وجود علاقات تجارية."[ص٢٥٦]

وأخيراً يصف الرحالة "بوركهارد" وصول القافلة القادمة من دراو بصعيد مصر إلى بربر "أنه عندما تصل القافلة إلى إقليم بربر ينزل التجار فى منازل أصدقائهم بقرية أنقهيرى Ankheyre" [ص٢١٩] (وهى من أشهر القرى التى يتكون منها إقليم بربر، ومن ثم يطلق اسمها على الإقليم بأكمله)" [ص٢١٠]. وفى موضع آخر يعلل الرحالة "بوركهارد"، نزول التجار من مصر فى منازل أصدقائهم فى بربر بعدم وجود حانات عامة هناك[ص٢٠٩].

أما القوافل التجارية القادمة إلى بربر من دنقلة وشندى فيحدثنا عنها "بوركهارد" بقوله: "لقد اعتادت القوافل فيما مضى أن تذهب من بربر إلى دنقلة ليس عبر النيل لأنها تتعرض لرسوم تفرض عليها عند كل قرية، ولكنها تمر بالمرتفعات على الشاطئ الغربى للنيل. ومنذ أن كانت قبيلة الرباطاب فى حالة حرب مع جيرانهم، فإن هذا الطريق أصبح يكثر فيه هؤلاء، ومن ثم لم يعد مطروقا. وفى الوقت الحاضر يتم الاتصال بدنقلة عن طريق شندى فقط. فمنها ترحل القوافل فى اتجاه مستقيم عبر المرتفعات."[ص٢٣٨ ، ٢٣٩]

وأما القوافل التجارية التى اعتادت أن تأتى إلى بربر من التاكا وسواكن، فيحدثنا عنها بقوله "إن القوافل تأتى عادة من التاكا عبر المرتفعات الشرقية فى رحلة تستغرق من ١٠ إلى ١٢ يوماً لشراء الأشياء التى سبق ذكرها أو للحصول عليها مقابل الثيران والإبل. وهناك أيضاً قوافل صغيرة تأتى دائماً من سواكن فى رحلة تستغرق ١٠ أيام محملة بالتوابل والبضائع الهندية، وبخاصة الأقمشة البيضاء الرفيعة التيلة." [ص٢٣٩]. ويضيف "أن هذا الطريق غير مطروق دائماً من قبل التجار الأجانب خوفاً من بطش وخيانة البشارية، وإذا تصادف وجود حجاج فى بربر فى طريقهم إلى مكة، فإنه عند رجوع هذه القوافل يسلكون هذا الطريق نفسه حيث توجد المياه بكثرة. والطريق المعتاد للحجاج الزنوج إما عبر ضفاف النيل أو عن طريق (صحراء) التاكا."[ص٢٣٩].

ويصف المخاطر التى تكتنف طريق القوافل من بربر إلى سواكن عبر صحراء التاكا بقوله "والطريق عبر صحراء التاكا إلى سواكن لا يطرقه الأجانب، بل حتى أهل بربر أنفسهم لا يثقون فى السير فيه إلا إذا كانوا فى أعداد كبيرة، ومعهم البشارية الذين قد يقتلون رفقاءهم إذا كانوا يأملون فى أبسط ربح. والرجال الذين يزكيهم المك ليسوا أقل

تعرضاً للخطر. وينبغي على المسافر أن يحمل معه دائماً بعض البضاعة القليلة والأمتعة من أجل مبادلتها بالمئونة اللازمة له في الطريق، إذ أن ذلك يجعله أقل تعرضاً لخطر البشارية وإثارة حقدهم عليه. ورغم أن المسافر قد يعطى تزكية من المك يحصل عليها مقابل بعض الهدايا، إلا أنه يتعرض لانتقام هؤلاء البشارية الذين يستطيعون بدورهم من تسوية الأمر مع المك بهدية بسيطة يشترون بها سلامهم معه." [ص٢٤٠] ويعلق على هذا الجو من عدم الثقة السائد على العلاقات بين المسافرين ومك بربر والبشارية في هذه الجهات قائلاً "إن نجاح المسافر (السائح) في هذا الجزء من العالم يعتمد كثيراً على مرشديه ورفقائه المسافرين وحسن ظنهم به، ومعرفته بلغة أهالي الإقليم. فبدون معرفته بلغة القوم معرفة تامة لا يستطيع أن يختار من بينهم الأشخاص اللائقين لإرشاده أو مرافقته وفوق ذلك لا ينبغي أن يلاحظه القوم وهو يقوم بكتابة مذكراته، أو ما شابه ذلك. وعلي المسافر أن لا يعتمد على ثروته أو يعتبرها كفيلة بالحصول على الرجال المخلصين والأمناء الذين قلما يوجدون في مثل هذه الجهات التي يقطنها جنس غير جدير بالثقة."[ص٢٤١]

وأخيراً يصف الرحالة "بوركهارد" إقامة التجار الغرباء أثناء وجودهم في بربر بقوله "والتجار يفضلون دائماً الإقامة مدة وجودهم (في بربر) في منازل الشخصيات البارزة، وإذا أمكن، الشخصيات التي تكون على صلة بالرئيس مقابل بعض الهدايا . وذلك ليحتموا بنفوذ وسلطان هؤلاء الأشخاص الذين يصدون كل إساءة أو اعتداء قد يوجه إلى ضيوفهم. أما المرشدون من العبابدة الذين لا يخافون لجاجة أو وقاحة الميريفاب، فإنهم ينزلون في منزل فقيه فقير، حيث يتمتعون براحة أكثر من المسافرين." [ص٢٤٢ ، ٢٥٢]

دخل مك (ملك) بربر من القوافل:

لقد كان مك (ملك) بربر يفرض ضريبة معينة على كل فرد من أفراد القافلة القادمة من مصر. ويحدثنا الرحالة "بوركهارد" عن نوع هذه الضريبة ومقدارها، والذين كان يجب عليهم دفعها، والذين أعفوا منها، وكيف كان المك يتصرف في حصيلتها . كذلك حدثنا عن النظام الذى كان المك يتبعه مع القوافل الأخرى القادمة من الجنوب والتى تمر ببربر في طريقها إلى مصر. كما حدثنا عن الهدايا التى كان يحصل عليها مك بربر من التجار ووسائل الحصول عليها. وأخيراً أشار "بوركهارد" إلى مقدار دخل المك السنوى من القوافل، وكيفية إنفاقه لهذا الدخل، كما أشار إلى ثروة الشخصيات الأخرى البارزة في بربر بعد المك.

يقول "بوركهارد" في الحديث عن الضريبة التى فرضها مك بربر على القوافل القادمة من مصر "إنه يجب على القوافل أن تدفع في بربر ضريبة للمك. ويستمر جمع هذه الضريبة من كل فرد عدة أيام. فالمك يحصل على خمسة أثواب من قماش الدمور من كل شخص يأتى من مصر بصرف النظر عن عدد الأحمال أو الإبل التى تكون معه، سواء أكان

هذا الشخص سيداً أو عبداً. كما يجب أن يدفع ثوباً لمأموريه وآخر لعبيده. وعندما يلتقى رؤساء البشارية من قبائل العرياب Are-ab والعلياب Ali-ab أو أقرباؤهم بقافلة هنا فإنهم يطلبون ثوباً آخر. وهذا الطلب يكون بناء على أن البشارية أسياد الصحراء من هنا إلى آبار نابيه Naby. ومن شمال نابيه يدخل الإقليم في نطاق مقاطعات العبابدة الذين يدفعون ضريبة لحكومة مصر." [ص٢٣٦]. ويستطرد قائلاً "والأثواب السبعة التى يجمعها المك يقوم بتوزيع حصة رجاله منها. والبشارية يقومون بجمع ثوبهم بأنفسهم. وإذا تصادف عدم وجود أحد منهم فإن القافلة لا تدفع لهم شيئاً بعد ذلك. والمك يأخذ نصيبه من الضريبة بالدولارات أو الدامور. وإذا لم يكن لدى رجال القافلة نقوداً يدفعونها حال وصولهم –وهذا ما يحدث عادة إذ يستغلون أموالهم فى شراء البضائع قبل أن يغادروا مصر– ففى مثل هذه الحالة يأخذ المك نصيبه من الضريبة بضاعة يحدد هو قيمتها. والعبابدة معفون من ضريبة المرور لأنهم –كما يقال– أهل سلطان ... وتجار البشارية معفون أيضاً من هذه الضريبة. ولكن عددهم ضئيل منهم فقط ثلاثة أو أربعة تجار من قبيلتهم يسلكون هذا الطريق." [ص٢٣٧] .

أما عن نظام الرسوم الذى اتبعه مك بربر مع القوافل القادمة من الجنوب مثل قافلة شندى وسنار فيذكر أن الرسم الذى يفرضه المك على القوافل القادمة من الجنوب، والتى تدخل بربر فى رحلتها الصحراوية ليس ثابتاً لأن هؤلاء التجار يأتون من عاصمة مملكة. بيد أنه يأخذ منهم هدايا بسيطة من كل منهم تتناسب مع عدد الإبل والرقيق (الذين برفقتهم)." [ص٢٣٧] . وعن الهدايا التى كان مك بربر يحصل عليها من التجار القادمين من مصر يقول "إن الضرائب السابقة ليست الوحيدة التى يحصل عليها المك وجماعته، بل إنهم يقومون بالتحرى عن البضائع التى يحملها كل تاجر من مصر. ثم يطالبون بالهدايا التي يستحقونها. ويساعد المك فى تحريه هذا التجار أنفسهم الذين يدسون ضد بعضهم بعضاً لدى المك تقرباً إليه." [ص٢٣٧] . أما دخل مك بربر السنوى من القوافل فيقدره "بوركهارد" خلال زيارته لبربر عام ١٨١٣ "بما يقرب من ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف دولار أسبانى" [ص٢٣٨] . ويتحدث عن أوجه إنفاق هذا المبلغ من دخل المك بقوله "وينفق هذا المبلغ فى الاحتفاظ بعدد كبير من الرقيق الذكور والإناث، وكذلك الخيول والهجين الجميلة، وأيضاً فى إطعام ما يقرب من خمسين شخصاً يومياً فى داره مثل الغرباء. وعليه أيضاً أن يهدى بصورة دائمة أقرباءه وأتباعه الهدايا ليقوى من نفوذه عليهم. ومن أجل ذلك فهو لا يستطيع أن يجمع أى ثروة أو رأس مال محترم." [ص٢٣٨] ويستطرد قائلاً "وأكبر شخص ثرى يلي المك يملك حوالى ألفي دولار ربحها العام الماضى (١٨١٢م) أثناء حدوث المجاعة، لأنه كان يملك مخزناً كبيراً للحبوب."[ص٢٣٨]. ويضيف "أن الشخصيات البارزة (فى إقليم بربر) تنحصر فى أولئك الذين يملكون ثروة تتراوح بين ثلثمائة وستمائة دولار للشخص الواحد، بما فيها القطيع وأثاث المنزل الذى يملكه."[ص٢٣٨].

العبابدة ودورهم الرئيسى فى قيادة القوافل بيـن السودان ومصر

لعب العبابدة منذ زمن بعيد دوراً هاماً ورئيسياً فى قيادة القوافل التجارية عبر الطريق الصحراوى الشرقى الذى يخترق صحراء النوبة ويربط بين شطرى الوادى، وأهمها قوافل بربر وشندى وسنار، بالإضافة إلى توليهم مهمة حراستها وحمايتها من اللصوص وقطاع الطرق فى الصحراء. بالنظر إلى درايتهم التامة وخبرتهم النادرة بمسالك ودروب الصحراء، وما عرف عنهم بين جميع القبائل من الشجاعة وشدة البأس. ولقد كان للعبابدة فروع وعائلات بعضها يقطن فى مصر العليا والبعض الآخر يقطن فى بلاد النوبة والسودان، بل منهم من كان له بيت وأسرة فى بعض مناطق صعيد مصر مثل دراو أو أسوان، وفى الوقت نفسه كان يملك بيتاً آخر وأسرة فى بربر أو شندى أو سنار. ومن ثم فقد جمع العبابدة فى حياتهم بين شطرى وادى النيل شماله وجنوبه، حتى يمكن القول أنهم يمثلون فى الواقع مظهراً حقيقياً للوحدة والتضامن بين مصر والسودان جديراً بالبحث والدراسة.

ولقد أمدنا "بوركهارد" بمعلومات وحقائق على جانب كبير من الأهمية عن هؤلاء العبابدة وقد عايشهم واختلط بهم عن قرب، إلى جانب التحرى عن جوانب أخرى من حياتهم. وإن بعض الرحالة الأوروبيين الذين جاءوا إلى السودان من بعده حين تعرضوا للحديث عن العبابدة أشاروا إلى بعض ما ذكره "بوركهارد" عنهم، إذ اعتبروا ما ذكره عن العبابدة مصدراً ومرجعاً موثوقاً به. وقد تتبع مواطن العبابدة فى البلدين،[ص٣٤٥] وكذا أوجه النشاط التى كانوا يمارسونها فى تلك البلاد من زراعة وتجارة،[ص٣٨٥] ورعى، إلى جانب دورهم الرئيسى فى قيادة القوافل التجارية وحمايتها عبر الصحراء، وكذلك مكانتهم الاجتماعية وبعض الخصال والطبائع التى تميزوا بها.

يتحدث بوركهارد عن مواطن العبابدة فى مصر العليا وطبيعة الحياة التى يعيشونها بقوله "إن القوافل التى ترحل من مصر تبدأ رحيلها من دراو ... وهى تقع على مسيرة عشر ساعات شمال أسوان. وهى قرية كبيرة يقطنها بعض الفلاحين من المصريين والبعض الآخر من العبابدة الذين استقر الكثير منهم فى القرى الواقعة إلى الجنوب من قفط حتى أسوان. ولكن الذين استقروا منهم على الجبال يعيشون هناك عيشة البدو خلال الموسم الذى لا تتطلب فيه زراعاتهم البقاء على ضفاف النيل. وأما المدة الباقية من العام، فإنهم يقطنون خلالها فى القرى كما هو شأن الفلاحين المصريين." [ص١٦٥] ويضيف "أن هؤلاء العبابدة بالإضافة إلى مهمتهم فى إرشاد القوافل عبر الصحراء لخبرتهم بطرقها، فإنهم يقومون أيضاً بحماية تلك القوافل التى كثيراً ما يعترضها فى الطريق قطاع الطرق، إذ يسلمون أنفسهم استعداداً لمثل هذه الطوارئ. وربما كانت هذه المهمة الأخيرة أكثر

قيمة، إذ أنه لا يمكن لقافلة أن تعبر الصحراء فى أمان دون أن يكون برفقتها بعض العبابدة. فبالرغم من أن كثيراً من التجار الفلاحين يعرفون الطريق جيداً، إلا أنهم لا يخاطرون بقيادة القافلة بمفردهم. وكثير من شيوخ العبابدة يطالبون بضريبة عند نجاة القافلة فى حالة الاعتداء عليها. إلا أن بعضهم لا يتظاهر بهذه الرغبة، إذ يرى أن من واجب خبير القافلة ومرشدها القيام بحمايتها ضد هذه الأنواع من السلب والنهب."[ص١٧٢] ولقد لعب العبابدة نفس الدور فى قيادة القوافل وحراستها فى طريقها عبر صحراء النوبة من بربر وشندى وسنار إلى مصر. وهو ما عبر عنه: بقوله "والقوافل التى تأتى إلى مصر من الأقاليم الجنوبية إما أن تأتى عبر الصحراء الشرقية (صحراء النوبة) أو الصحراء الغربية. وأما التى تأتى من الصحراء الشرقية فإنها تشمل قوافل سنار وشندى وبربر والمحس وسبوع. وكل قافلة تصل من الجنوب إلى بربر تظل فيها بعض الوقت من أجل أخذ المرشدين اللائقين، والقيام بالاستعدادات الأخرى اللازمة لرحلة الصحراء. وكثير من العبابدة يقيمون فى بربر وهم على استعداد لمرافقة القافلة فى رحلتها مقابل عشرين دولاراً. وهم يعملون مع القافلة كمرشدين وحماة لها فى الوقت نفسه." [ص٢٣٦].

إن "بوركهارد" يصف لنا موقف مك بربر من العبابدة، ويفسر لنا الأسباب من وراء إعفائهم من الضريبة التى فرضها على غيرهم بقوله "والعبابدة معفون من ضريبة المرور لأنهم -كما يقال- أهل سلطان أو رجال مستقلون فى جبالهم، ولا يمكن لرئيس أن يأخذ ضريبة من زعيم أو رئيس آخر. ولكن الحقيقة أن أهل بربر يخشون العبابدة، لأنه إذا وقعت مشاجرات بين أهل بربر والعبابدة، فإن الأخيرين ينزلون من مرتفعاتهم ويشنون غارات السلب والنهب على أهل بربر فيسلبونهم قطعانهم وعبيدهم."[ص٢٣٧] أما عن موقف العبابدة من قطاع الطرق واللصوص فى الطريق الصحراوى بين دراو بمصر العليا وبربر، وهو الطريق الشرقى الرئيسى بين مصر والسودان عبر صحراء النوبة الذى اعتادوا أن يطرقوه دائماً ذهاباً وإياباً أثناء قيادة القوافل وحراستها بين البلدين، كما قدمنا، فقد حدثنا عن دورهم البارز فى تأمين هذا الطريق عندما استعان بهم محمد على باشا والى مصر فى القضاء على أحد اللصوص الخطرين فى هذا الطريق عام ١٨١٢، وهو ما يؤكد عظم مكانة هؤلاء العبابدة وشدة بأسهم فى الفترة التى سبقت امتداد الحكم المصرى إلى السودان (عام ١٨٢٠/ ١٨٢٠م).

يصف لنا بشئ من التفصيل قصة العبابدة مع هذا اللص الخطير سابق الذكر نعيم بقوله "إن أكثر خطورة كانت تعترض هذا الطريق هو اللص نعيم زعيم عرب المقرات ... فقد اعتاد اعتراض القوافل بين بربر وآبار "نجيم" Nedjeym. وبعض الأحيان كان يتبعها بعيداً حتى "شقرية" Shigre. وقد استطاع أن يجمع ثروات ضخمة من سلب القوافل المصرية. وكثيراً ما صوبت النار عليه ولكن كان ينجو منها بفضل متانة الدرع الذى كان يحمله.

وقد اشتهر بأن الرصاص لا يؤثر فيه بفضل التمائم التى تجعله بمنأى عن الموت. والواقع أن تمائم نعيم كانت تتمثل فى قدرته على التصويب بسرعة، وفى سوء نية الراغبين فى قتله. [ص: ١٩٠ ، ٢٤٥ ، ٢٥٥] ثم يضيف بقوله "وكثير من العبابدة قتلوا على يده فى إحدى هجماته، وأصبحت القبيلة كلها تأمل فى الانتقام منه. ولم يمض وقت طويل حتى واتتهم الفرصة، فالقافلة التى غادرت سنار إلى مصر عام ١٨١٢ بصحبة رسل من الباشا كانوا مزودين بمئات عديدة من العبابدة المسلحين. وقد استقرت القافلة لعدة أيام فى بربر من أجل الاستعداد لرحلتها عبر الصحراء. وقد تمكن رئيس القافلة برفقة ما يقرب من ١٠٠ راكب جمل مسلحين من محاصرة منزل نعيم بمقره، وإشعال النار فيه. وقد قتل هو وبعض رفقائه وأرسلت رأسه إلى مصر، كما أرسلت أذنيه إلى محمد على باشا ثم إلى الحجاز."[ص٢٥٥] ويواصل حديثه قائلاً "على أن سوء المصير الذى كان يصيب نعيم لم يمنع من ظهور لص آخر يخلفه فى هذه المرتفعات (الصحراء) واسمه كيرار وهو رئيس العبابدة من قبيلة "عشيباب Asheybab وقد سلب عام ١٨١٤ عدة قوافل معظمها من أهل بربر، وعاد بالغنائم إلى معسكراته بمرتفعات "أوتابى" Ottaby. وقد قام باشا مصر بعدة محاولات للقبض عليه ولكن لم تكلل بالنجاح."[ص٢٥٥ ، ٢٥٦]

على أن هناك جانباً هاماً من علاقة العبابدة بجيرانهم البشارية الذين يعيشون على المرتفعات المجاورة للبحر الأحمر تناوله الرحالة بوركهارد -كما سيجئ بعد- فى حديثه عن أوطان البشارية المجاورة للبحر الأحمر فى أثناء وصفه لجغرافية الإقليم الذى يقع فيه ميناء سواكن، إذ يقول "إن المقر الرئيسى للبشارية فيما يبدو -هو علبة Oba وهى ميناء صغير يقع على مرتفع يبعد ١٠ أو ١٢ يوماً من سواكن وحوالى ١٥ يوماً من دراو بمصر العليا. ورؤساء البشارية الأصليين يعسكرون فى أودية هذا الموقع الذى يقال أنه غنى بالمرعى ودائماً تقطنه قبائل كثيرة قوية واسمه معروف جداً فى مصر العليا. وبدو العبابدة كثيراً ما يذهبون إلى هناك بالذرة والمنسوجات القطنية المصنوعة فى مصر. كما يزوره زعماء العبابدة من أجل جمع ضريبة يدفعها لهم هؤلاء الجبليون من أجل السماح لهم برعى ماشيتهم فى فصل المطر فى هذا الجزء من مرتفعات النوبة الشمالية التى يعتبرها العبابدة إرثاً لهم. ولكن لما كانت القبيلتان دائماً فى حرب، فإن الضريبة لا تدفع بانتظام."[ص٤٤٥ ، ٤٤٥].

مشاهدات الرحالة "بوركهارد" ودراساته فى الدامر

إذا كان "بوركهارد" قد صدم بسلوك بعض الجماعات السودانية مثل جماعة البشارية الذين اعتادوا الاعتداء على القوافل فى الطريق بين بربر وسواكن عبر صحراء التاكا، ونسب إليهم بعض الصفات والخصال الرذيلة -كما مر بنا- فإنه على النقيض من ذلك قد أعجب كثير بخصال وطبائع أهل الدامر، وسلوكهم الطيب مع الناس، واحترام جميع الناس وتقديرهم لهم. حتى القبائل والجماعات التى اشتهرت بنزعتها العدوانية مثل البشارية، إلى الحد الذى جعل بعض القوافل التجارية تلجأ إلى أحد فقهاء الدامر لمرافقتها بقصد حمايتها من عدوان هؤلاء البدو الذين كانوا يعملون حساباً كبيراً لهؤلاء الفقهاء. ولقد عنى بدراسة هذه الظاهرة وبحث أصولها، حين أشار إلى اهتمام أهل الدامر بالعلم والدين، وحرص فقهائها على الذهاب إلى الجامع الأزهر بالقاهرة أو إلى مكة للتزود والتفقه بعلوم الدين والشريعة الإسلامية، فزاد عدد الفقهاء فى الدامر، وكثرت المدارس بها، التى يقصدها الدارسون من شباب دارفور وسنار وكردفان.

وصف الدامر (عام ١٨١٣):

يقول "بوركهارد" "إنها تقع على الطريق بين بربر وشندى. وهى قرية كبيرة تتكون من حوالى خمسمائة منزل. وهى نظيفة وأكثر تنسيقاً من بربر. وبها أبنية حديثة، ولا توجد بها بقايا منازل قديمة. والمنازل مشيدة بإتقان. وتوجد بينها شوارع منظمة. كما أن الأشجار المظللة توجد فى عدة أماكن فيها."[ص٢٦٥ ، ٢٧٥] ويضيف "بوركهارد" "أنه يوجد بالدامر مسجد فسيح مبنى بناء حسناً من الطوب الأحمر." [ص٢٦٧] ويضيف "أن فقهاء الدامر يذهبون كذلك إلى مصر، ليدرسوا فى الأزهر وهم أيضاً يشترون الكثير من الكتب من سوق الكتب بالقاهرة."[ص٢٦٧]. ويصف كيف كانت تدار شئون الدامر وقت زيارته لها عام ١٨١٣ والمكانة التى كان يحظى بها فقهاؤها بين جيرانها بقوله "وجميع شئون تلك المقاطعة تدار بالحكمة والاتزان. كما أن جميع السكان المجاورين لها يحترمون الفقهاء، وحتى البشارية القادرون يظهرون لهؤلاء الفقهاء كل احترام وتقدير، لدرجة أنهم لا يجرأون على الاعتداء على أحد من أهل الدامر عند سفرهم من الدامر عبر المرتفعات إلى سواكن فهم يخشون من قوة الفقهاء أن تمنع عنهم المطر فيؤدى ذلك إلى موت قطعانهم."[ص٢٦٨] لذلك يذكر الرحالة "أن الطريق بين بربر وشندى محفوف بالأخطار، والسكان على جانبه لصوص. ولكن مرافقة أحد فقهاء الدامر كافية لحماية

المسافرين والقوافل. والقوافل القادمة من الجنوب تقف عند الأطراف الشمالية لشندى حتى يصل فقيه من الدامر فيرافقها فى رحلتها." [ص٢٧١].

ويصف "بوركهارد" النشاط التجارى لأهل الدامر بقوله "والقوافل ترحل دائماً من الدامر إلى سواكن، إذ أن كثيراً من الفقهاء تجار. وتجارة الدامر الرئيسية تقوم مع دنقلة وشندى[ص٢٦٨]. وأما بربر فتوجد معها علاقة بسيطة، إذ استثنينا الاتصالات بالقوافل المصرية التى تمر فى هذا الطريق (بين بربر وشندى). وتوجد معظم سلع مصر التجارية فى مخازن تجار الدامر. ولا توجد سوق يومى، بل هناك سوق تعقد أسبوعياً يعرض فيها كل تاجر بضائعه."[ص٢٦٨]. ويضيف "أن الدامر تشتهر ببيع الأغنام، والحصر الدامرية المصنوعة من أوراق شجر الدوم وعليها إقبال شديد فى المناطق المجاورة. كما توجد فى الدامر صناعة الأقمشة رديئة الصنع مقلدة دمور سنار." [ص٢٦٨] أما عن نظام التعامل التجارى فى الدامر فيصفه "بوركهارد" بقوله "أنه لا توجد عملة معدنية فى الدامر أقل قيمة من الدولار فى شراء الأشياء ذات القيمة المنخفضة مثل مقدار بسيط من الذرة." [ص٢٦٩].

أما عن نشاط أهل الدامر الزراعى فيبدو أنه لم يكن يقل عن نشاطهم التجارى، إذ يصفه قائلاً "إن زراعة الأرض يوجه لها أهل الدامر عناية أكبر تفوق ما يوجه لها فى أى مكان آخر بين دنقلة وشندى. وهم يستخدمون الرى الصناعى بالسواقى العديدة التى تديرها الأبقار، كما هو الحال فى مصر. وهذه الوسيلة تساعد المزارعين على الحصول على محصولين فى العام. ولقد قاست الدامر أقل مما قاسته الأقاليم المجاورة خلال المجاعة الأخيرة. بيد أن عدداً كبيراً مات بالجدرى."[ص٢٧٠]. ويضيف "أن المحصول الرئيسى للأرض فى الدامر هو الذرة ويزرع قليل من القمح. ولكن ليس للتصدير، وإنما يستهلكه كبار الفقهاء. وقد تعلموا هذا الترف فى مصر. وتزرع كمية كبيرة من الشطة التى يصدر جزء منها. والأهالى مغرمون باستعمالها فى الطعام. والإقليم ينتج القطن بكثرة. كما يزرع الدخان الردئ النوع الذى يباع للبشارية."[ص٢٧٠] وعن النشاط الرعوى لأهل الدامر يقول "بوركهارد" "إنهم يعتنون بتربية القطعان أكثر من أهل بربر. ويوجد عدد قليل من الخيول، بينما تكثر الحمير. ويشترى التجار الإبل، وفى الوقت نفسه يبيعون بضائعهم."[ص٢٧٠] وأخيراً يفسر لنا السبب الرئيسى من وراء انتعاش الدامر اقتصادياً، إذ يقول "ولا تدفع ضرائب مرور للفقهاء الذين يتكون دخلهم من الزراعة والتجارة. وهذا هو سبب انتعاش الدامر، وعدم استياء القوافل من إقامتها هناك لأيام قلائل."[ص٢٧٠].

مشاهدات "بوركهارد" فى شندى

لقد أمدنا الرحالة "بوركهارد" بمعلومات وحقائق هامة ومستفيضة عن أحوال شندى في ذلك الوقت. وتضمنت كتاباته وصفاً للمدينة عام ١٨١٣ ومقارنتها ببعض المدن الكبرى فى السودان مثل بربر وسنار وكوبة (فى دارفور)، والأوضاع السياسية التى كانت سائدة فيها فى الفترة التى سبقت مجئ حملة إسماعيل بن محمد على إليها، إذ تشير إلى الحرب التى استمرت سنوات بين الملك نمر والشايقية، واضطرار الشايقية إلى عقد الصلح معه ليتفرغوا لمواجهة المماليك القادمين من مصر والذين اشتبكوا فى حرب سجال معهم. ثم ما كان من أمر عصيان أخيه (أخ الملك نمر) وقيام الحرب بينهما عدة سنوات دون أن ترجح كفة أحدهما. وهو ما يصور لنا أن حياة نمر مك شندى كانت سلسلة من المعارك والحروب تارة مع الشايقية وأخرى مع أهله، حتى كان خراب مملكته على يد الدفتردار صهر محمد على باشا على أثر اتهامه بحرق إسماعيل فى شندى.

وإليك تفاصيلها بعد أن قمنا بتنظيمها وتبويبها تحت عناوين رئيسية ليسهل الانتفاع والاستفادة بها.

وصف مدينة شندى (عام ١٨١٣م):

يصف "بوركهارد" مدينة شندى "بأنها أكبر مدينة فى السودان الشرقى، وهى تلى من حيث الأهمية سنار وكوتيه. وهى حسب تقرير التجار أكبر من عواصم إقليم دنقلة وكردفان." [ص٢٧٧] ويصف أحياء شندى ومنازلها بقوله "وتحتوى شندى على عدة أحياء بينها عدد من الأماكن الهامة أو الأسواق. وتضم هذه الأحياء من ٨٠٠ إلى ١٠٠٠ منزل مبنية على سهل رملى على مسيرة ساعة من النهر. ومنازلها تشبه منازل بربر، وإن كانت تضم عدداً كبيراً من المنازل الواسعة، وقليل من بقايا البيوت. ولا يوجد شارع منتظم بين المنازل. وإنما تنتشر على السهل فى صورة غير منتظمة إلى درجة كبيرة. والمبانى ليست مشيدة بالآجر. ومنازل الرئيس وأقربائه تحتوى على أفنية مساحتها عشرين قدماً تحيطها جدران مرتفعة. وهذا هو الوصف العام لمساكن شندى." [ص٢٧٧ ، ٢٧٨] .

نظام الحكم فى شندى (عام ١٨١٣م):

ويصف الرحالة نظام الحكم فى شندى بقوله "إن الحكومة بيد المك، ويدعى فى الوقت الحاضر نمر. والأسرة الحاكمة من نفس القبيلة التى تتربع على عرش سنار وهى ولد

عجيب. وهى فرع من "الفنية" Funnye. ووالد نمر من أصل عربى من قبيلة الجعليين، ولكن أمه من دم ملكى من ولد عجيب والمك الذى فى شندى مثل المك عند توليه الحكم والهدايا التى يرسلها فى كل مناسبة للملك ووزير الملك فى سنار.[ص٢٧٨] فإنه يعتبر مستقلاً تماماً، ويحكم مقاطعته التى تمتد على مسيرة يومين وفق رغبته وهواه."[ص٢٧٨].

ويضيف "بوركهارد" قائلا "وحكومة شندى أفضل كثيراً من حكومة بربر، فالسلطة الكاملة التى فى يد المك لا يضعفها تأثير العائلات القوية التى تميل فى هذه الأقطار إلى عدم استتباب الأمن. كما أنه لا يؤخذ بنظام الخطف الذى يجعل الغرباء فى بربر يحسون بالخوف. وقوة مك شندى المطلقة ترجع إلى تنوع القبائل العربية التى تقطن فى شندى، بحيث لا تستطيع إحداها أن تبارى أسرته وفروعهاالعديدة."[ص٢٧٩] ويستطرد فى وصف نظام الحكم فى شندى قائلاً: "ولا توجد مصالح فرعية لحكومة شندى، إذ يبدو أن المك يجمع فى شخصه كل فروع السلطة وأقاربه هم حكام القرى. وبلاطة يتكون من الكاتب والإمام والصراف والحرس الذى يتكون أساساً من العبيد."[ص٢٨٠]

ويحدثنا "بوركهارد" عن الأوضاع السياسية التى كانت سائدة فى شندى قبيل زيارته لها عام ١٨١٣، إذ يقول "وقبيل وصول المماليك إلى دنقلة كان نمر مك شندى فى حرب مع الشايقية لعدة سنوات. وقد قتلوا عدداً كبيراً من أقربائه فى القتال، واجتاحوا بجموعهم الكبيرة من الفرسان مقاطعاته، وخربوا كل الشاطئ الغربى للنهر. وفى ذلك الوقت أعلن أخوه المنوط به حكم الشاطئ الغربى العصيان عليه، واستمرت الحرب بينهما عدة سنوات دون أن تلحق خسارة كبيرة بقوات أحد الطرفين. وقد أصبح كل منهما منفصلاً عن الآخر. ولا يستطيع أحدهما أن يعبر النهر إلا برفقة جماعات صغيرة."[ص٢٨٠] .

مجتمع مدينة شندى:

يصف عناصر السكان فى شندى وقت زيارته لها عام ١٨١٣م وصفاً دقيقاً بقوله "إن سكان شندى كلهم من العرب الأحرار. ومن هؤلاء الجعليين وهم الأكثر عدداً ويليهم ١- العبابدة وهم يدعون أنهم ينتسبون إلى من ينتسب إليه عبابدة مصر العليا وهو سلمان من عرب بنى هلال القبيلة الشرقية العظيمة التى هاجرت إلى الأجزاء الشمالية من إفريقيا حتى تونس عقب الفتح الإسلامى. ٢- البطاحين ٣- الحامدية وهم أقرباء للعرب الذين يحملون هذا الاسم ويقطنون بجوار الأقصر والكرنك فى مصر العليا، ومن هنا أخذت الأقصر اسم الحامدية، وهى أكثر معرفة بهذا الاسم فى مصر العليا..."[ص٣٤٥] .

ويصف "بوركهارد" طبقات المجتمع فى شندى بقوله "إن طبقة التجار هى أكثر الطبقات احتراماً فى شندى. ويوجد بينهم عدد كبير من التجار الأجانب المقيمين فيها من سنار

وكردفان ودارفور ودنقلة. والأخيرون أكثر عدداً، فهم يشغلون حياً بأكمله في المدينة. ولكن دولتهم أقل اعتباراً من أى دولة أخرى. وهم محتقرون لعدم كرمهم. فشحهم يضرب به المثل. وأعمال السمسرة التى هى خاصة بهم تقريباً زادت من مقت الناس وكراهيتهم لهم. لذلك فإن العربى فى شندى يعتبرها إساءة إذا ما أطلق عليه اسم دنقلاوى. وهذا الاسم يناظر اسم البرمودى في أوروبا." [ص٢٧٩] وهناك طبقة أخرى كانت تعيش فى شندى في ذلك إليها بقوله "وأصحاب الحرف فى شندى هم الحدادون والصياغ الذين يصنعون الحلى للنساء. وهذه الحلى رديئة الصنع للغاية. وكذلك الدباغون، والنجارون، وصناع الأوانى الفخارية."[ص٢٧٩] .

ويصف "بوركهارد" بعض العادات والتقاليد السائدة بين سكان شندى، إذ يقول "والذهب معدن متداول بكثرة فى سوق شندى لذلك فإن النساء يكثرن من وضع الحلقات الذهبية فى أنوفهن وآذانهن أكثر مما نلاحظه بين سكان بربر. كما أن السكان يملكون أيضاً ثروة أكبر من العبيد. وإنه لأمر عادى أن ترى أسرة تملك اثنى عشر عبداً كخدم فى منزل أو كعمال فى حقل."[ص٢٨٠] . ويضيف " أن ملابس وأخلاق السكان فى شندى هى نفسها التي نلاحظها فى بربر. ويبدو أنها تعم أيضاً فى دارفور وسنار."[ص٢٨٠]. ويستطرد قائلاً "ولقد لاحظت أناساً فى شندى يلبسون ملابس أحسن مما يلبسه أهل بربر ويبدو استخدام الملابس الكتانية النظيفة بكثرة دائماً."[ص٢٨٠] .

يحدثنا عن الجريمة والعقاب فى شندى بقوله "إن أخلاق أهل شندى تشبه أخلاق أهل بربر .ولكن الوقاحة وعدم العدل يسود سلوكهم، لأنهم يدركون أن تأثير القانون على منع حدوث الجريمة ضعيف، وأنه من النادر أن يعاقبوا."[ص٢٨٠]. ويضيف "بوركهارد" أن اللصوص والسكيرين الذين يهاجمون الغرباء. وكذلك اللصوص الذين يوجدون أو يكتشفون فى السوق وغيرهم، يعرضون أمام المك. بيد أنه يكتفى عادة بسجنهم لمدة يومين أو ثلاثة أيام. ولا يسمع عن أحد حكم عليه بالإعدام أو حتى ضرب بالسياط بالرغم من أن مثل تلك الجرائم التى ذكرناها ترتكب يومياً فى شندى. والمجرمون يسمح لهم بالرجوع إلى بيوتهم عقب دفع غرامة للمك ورجاله، بينما فى كردفان يعاقب اللصوص دائماً بالإعدام."[ص٢٨٠]

ويشير إلي: "إن القبائل العديدة فى شجار دائم مع بعضها البعض، وبخاصة ما يتعلق بمسألة الأخذ بالثأر. ويساوى ثمن الدم بين الجعليين ألف ثوب من قماش الدمور، وهو ما يعادل من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ دولار أسبانى. وإذا وافق أقارب القتيل على أخذ هذا المبلغ، فإن القاتل يدفع المبلغ بالتقسيط. وقد تمضى أعوام كثيرة قبل أن يسدد القاتل المبلغ. وفى خلال ذلك يحافظ الطرفان على السلام."[ص٣٤٥] .

أوجه النشاط الاقتصادى فى شندى

١- الزراعة:

يصف طبيعة الحياة الزراعية فى شندى بقوله: "إن أهل شندى -كما هو الحال فى بربر- رعاة وتجار وفلاحون. والمواطنون لا يكرسون كثيراً جهودهم للزراعة، وإنما يتركون شئونها للفلاحين العرب المجاورين لهم. والأرض الزراعية التى تحيط بمدينة شندى ضيقة، ولكن إلى الشمال والجنوب منها توجد بعض السهول الجيدة الصالحة للزراعة. وتعم السواقى، وهى تشيد بوجه عام على الشواطئ فوق الجهات المرتفعة التى لا تفيض عليها مياه الفيضانات الغزيرة. وبواسطة هذه السواقى ينتج الفلاحون محصولاً شتوياً واحداً. أما الغلات الزراعية التى حرص أهل شندى على زراعتها فى الأراضى الصالحة للزراعة فيصفها بقوله "والذرة هى المحصول الرئيسى. والدخن والقمح يزرعان بكميات قليلة. والمحصول الأول من أجل استهلاك تجار الجهات الغربية الذين يزورون شندى. والأخير من أجل استهلاك العائلات الكبيرة. كما يزرعون كميات كبيرة من البصل، وبعض الفلفل (ينقل من كردفان). والبامية والحمص والملوخية والترمس توجد دائماً فى السوق إما خضراء أو جافة."[ص٢٨١] .

ويضيف "بوركهارد" أنه فى أثناء الفيضان يزرع بعض البطيخ والخيار، من أجل استهلاك حريم المك فحسب." ثم يقول "وما تنتجه حقول شندى وما جاورها لا يكفى مئونة السكان لحاجتهم المتزايدة إليها، بسبب استمرار وصول القوافل. وتستورد شندى الذرة رأساً من أبى حراز على الطريق إلى سنار. وتأتى القوافل من هناك محملة بالذرة إلى شندى. وسعر الذرة كان عبارة عن ١٢ كيلا بدولار واحد ثم نزل إلى ٢٠ كيلا بدولار. وسعر الحبوب يختلف كل يوم تقريباً. والسوق يتأثر بوصول كل قافلة من التجار الذين يشترون كميات كبيرة من أجل إطعام رقيقهم وإبلهم. والمك يحتكر أيضاً الحبوب حسب قدرته. وفى أبى حراز وسنار توجد الذرة بكميات زائدة. وأربعون كيلاً تباع بدولار. وهذا النوع من الذرة من نفس شكل وحجم النوع الذى يزرع فى شندى ومصر العليا، وإن كانت تختلف فى اللون، كما يقال أنها أقل فائدة، ومن ثم أقل قيمة ومكانة من النوع الآخر."[ص٢٨٥].

٢- الرعى وثروة شندى الحيوانية:

الرعى من الحرف الرئيسية التى كان يمارسها أهل شندى فهم كما وصفهم "رعاة وتجار وفلاحون". وقد وصف ماشيتهم "بأنها جيدة جداً"، وحجمها ونوعها كما أكد له أهل شندى أنفسهم، "يستمر فى الزيادة كلما صعدنا النهر." [ص٢٨١] . كذلك وصف الخيل فى شندى "بأنها توجد بكثرة إذا ما قورنت بما هو ملاحظ فى بربر وأن إناث الخيل مفضلة فى ركوبها عن الذكور عند بدو الجعليين، وإن كانت الأخيرة مفضلة عند

سكان المدينة."[ص٢٨٥]. ويصف "بوركهارد" المراعى فى ضواحى شندى والنشاط الرعوى لسكانها من عرب الجعليين "بأنه عند قرية داوه" Dawa يبلغ عرض السهل عشرة أميال على الأقل وهو مغطى بنباتات برية مختلطة بجميع أنواع أشجار السنط الشوكية. ويوجد فى هذه الجهات عدد كبير من الأكواخ والقرى المتناثرة. ويقوم عرب الجعليين هنا برعى قطعانهم العديدة من الأبقار والإبل والضأن. كما يملكون عدداً قليلاً من السواقى، ويزرعون كميات كبيرة من البصل الذى يوردونه إلى سوق شندى. والأكواخ مصنوعة من الحصر (وتكثر الألبان بينما تقل الذرة.)"[ص٢٨٥ ، ٢٨٦].

وأما عن الحيوانات البرية فى شندى ودورها فى حياة أهلها المعيشية، فيحدثنا عنها "بوركهارد" بقوله "والنمور تكثر فى الأودية الشرقية لشندى، وفى مرتفعات الدندر Dender وهى المقاطعة التى تقع تجاه نهر العطبرة. وعلى مسيرة ست أو ثمانى ساعات جنوب شرقى شندى توجد الزرافة وتصاد بواسطة عرب الشكرية والكواهلة. وسعرها مرتفع من أجل جلدها الذى يصنع منه التروس. وترد إلى سوق شندى الماعز الجبلية من أكبر الأحجام، ولها قرون طويلة منحنية حتى وسط الظهر. ويعتبر لحمها من النوع اللذيذ جداً. ويسمى هذا النوع آريل Areal، وهو الاسم الذى يطلق على الغزال الأحمر فى سوريا. ويسمى فى مصر العليا باسم تيتل، وفى سوريا باسم "بدن" Beden. ويقوم بدو الجعليين بصيده عن طريق مسكه من أنفه. وهى نفس الطريقة التى يمسكون بها النعام الذى يكثر أيضاً فى المناطق المجاورة. ومهما يكن فإن ريش النعام هنا فى شندى أقل جودة من النوع الموجود فى الصحراء الغربية. والأنواع الأكثر تقديراً فى مصر هى التى تأتى من كردفان ودارفور. ويضيف "بوركهارد" أن الفلاحين الجعليين يحملون ريش النعام إلى السوق فى حزم مخلوطة بالنوع الجيد والردئ. وهم يستبدلونها بالذرة."

أما الحيوانات البرمائية التى تعيش فى شندى فقد أشار "بوركهارد" إلى وجود فرس النهر بقوله "إن فرس النهر لا يكثر فى شندى، وإن كان يظهر فى بعض الأحيان. وليس لدى الأهالى وسيلة لقتله. وفى سنار حيث يكثر فرس البحر (النهر) يصاد فى الخنادق التى تغطى بالحشائش وتقع فيها أثناء تجوالاتها الليلية. ويقال إن الرصاص لا يستطيع أن يوقعه أرضاً ما لم يضرب على المنطقة القابلة للجرح و الطعن فوق أذنه، والكرابيج التى تعمل من جلوده تصنع فى سنار." [ص٢٨١] كذلك أشار إلى وجود التماسيح فى شندى، وفى أماكن أخرى من نهر النيل فى مصر السفلى تختفى تماماً. بالرغم من عدم وجود سبب يفسر عدم نزولها إلى النهر. بينما توجد فى مصر العليا فى المناطق المجاورة لإخميم ودندرة وأرمنت وإدفو، فهى من المناطق المحببة للتمساح. وفى مصر الوسطى يوجد عدد قليل من التماسيح فى النهر."[ص٢٨٢]. ويقارن موقف أهل شندى من التماسيح بموقف أهل بربر وسنار منها قائلاً "والأهالى فى بربر لا يخشون التماسيح، إذ يستحمون فى وسط مجرى النهر. أما فى شندى فعلى العكس يخاف الأهالى من هذا

الحيوان خوفاً عظيماً، ويتخذون الحيطة التامة عند الاستحمام أو غسل ملابسهم أو ملئ قربهم من النهر. فهم لا يتقدمون مسافة كبيرة داخل النهر. وفي الواقع أن هذا الحيوان قد يقبض على الإنسان ويقتله. وفى سنار تحمل التماسيح دائماً إلى السوق ولحمها يباع علانية هناك."[ص٢٨٢]

٣- الصناعة فى شندى:

لقد قامت فى شندى بعض الصناعات التى تخدم أغراض الحياة فيها. وقد حدثنا الرحالة "بوركهارد" عن بعض الصناعات الريفية التى اشتهر أهل الريف بصناعتها حيث شاهدها فى سوق شندى ويصفها بقوله "وسكان الريف يحملون إلي السوق الحصر والأسبتة وجلود الثيران والحيوانات والأواني الفخارية وسروج الإبل والأطباق الخشبية والأشياء الأخرى التى من صناعتهم الخاصة."[ص٢٩٦]. ويضيف: "أنه يوجد اثنا عشر من صانعى الأحذية والصنادل من الريف يعملون فى السوق فى هذين اليومين (الجمعة والسبت) وفى الإمكان عمل جوز صندل فى ساعة."[ص٢٩٦] ويصف "بوركهارد" صناعة الجلود فى شندى "بأنها صناعة جيدة. وتدبغ الجلود بنبات القرض الذى يؤخذ من أشجار السنط."[ص٢٦٩] ويقارنها بصناعة الجلود فى سنار بقوله "إن البدو القريبين من سنار -كما يقال- قد امتازوا بالمهارة فى صناعة الجلود والجراب الجلدية تباع هنا أيضاً وتستخدم لنقل العفش والبضاعة، باستثناء الذرة والصمغ العربى والملح الذى يحمل فى سلات."[ص٢٦٩ ، ٢٩٧].

كذلك يذكر "بوركهارد" "أن كثيراً من الحدادين يأتون إلى شندى من الأرياف ويقومون بصناعة وبيع السكاكين الصغيرة ذات الحدين والتى يبلغ طول الواحدة حوالى ثماني بوصات. وتوضع فى جراب من الجلد يلبس عادة حول المرفق الأيسر[ص٢٩٧]. وإلى جانب تلك الصناعات وجدت صناعات أخرى مثل صناعة حلى النساء من الذهب وقد وصفها بأنها رديئة للغاية."[ص٢٩٧]، وكذلك النجارة التى يذكر "بوركهارد" "أن النجار فى حالة بناء منزل يستدعى فقط من أجل وضع السقف وصناعة الأبواب، إذ يقوم صاحب المنزل وأقربائه وعبيده مع قليل من العمال بعملية البناء." [ص٢٩٧].

وهناك حرفة رئيسية كانت شائعة بين سكان شندى وتمثل ظاهرة لفتت نظر الرحالة "بوركهارد" وعبر عنها بقوله "إنه لا يوجد نساجون فى شندى. ولكن جميع النساء والأطفال الكبار وكثير من الرجال يلاحظون دائماً والمغزل فى أيديهم يغزلون القطن الذى يبيعونه لسكان بربر. والمغزل يشبه الذى يستخدم فى مصر وسوريا. والقطن يزرع فى الجهات المجاورة. وهو بصفة عامة يزرع فى جميع المناطق."[ص٢٩٨]. على أن هناك صناعة هامة اشتهر بها أهل شندى فى ذلك الوقت ويعنى بها صناعة الملح التى حدثنا عنها الرحالة"بوركهارد" بقوله "وفى إقليم بويضة Boeydha توجد منطقة تحتوى على قرى صغيرة منازلها تتكون عادة من حجرة واحدة فقط تستخدم فى جميع الأغراض. وهنا توجد مصانع

الملح التى تمد جميع القطر حتى سنار بالملح. والتربة هنا لمسافة تقدر بعدة أميال مشبعة تشبعاً قوياً بالملح. وهذه التربة المشبعة بالملح تجمع بواسطة العرب فى أكوام على جانب الطريق. ويفصل الملح عن التربة بواسطة الغليان فى أوانى فخارية كبيرة. والجزء الملحى يغلى بعد ذلك مرة ثانية فى أوان صغيرة. والملح يُعد بعد ذلك على شكل "كعكات" قطر الواحدة منها قدم وسمكها ثلاثةُ أقدام، ولونه أبيض تماماً. ويغلب عليه مظهر الملح الصخرى. وكل ١٢ كعكة تربط سوياً فى سلة، وخمس سلات تكون حمل جمل."[ص٢٧٦]. ويضيف "بوركهارد" "أن مصانع الملح ملك لمك شندى. ويوجد حوالى عشرين غلاية على النار" (وقد شاهدها بنفسه).

٤- التجارة فى شندى:

احتلت التجارة فى شندى مكاناً بارزاً وهاماً فى حياة أهلها. وقد كان التجار كما ذكر "بوركهارد" أكثر الطبقات احتراماً فى شندى[ص٢٧٩]. كما كانت شندى تلى سنار وكوبة (فى دارفور) من حيث أهمية مكانتها التجارية فى السودان كله.[ص٢٧٧]. ولا عجب إذا كانت ترد إليها القوافل التجارية من مختلف جهات السودان من دنقلة وبربر وسنار وكردفان ودارفور والتاكا وسواكن على ساحل البحر الأحمر[ص٣٤٩]، وخارج السودان من مصر والحبشة. وقد كانت شندى بصفة خاصة مركزاً رئيسياً لتجارة الرقيق فى السودان وإفريقية فى ذلك الوقت. ولقد قدم لنا "بوركهارد" عام (١٨١٣) وصفاً تفصيلياً ودقيقاً لأنواع السلع والبضائع التى كانت تأتى بها القوافل التجارية من الجهات المختلفة إلى شندى، حيث تعرض بصفة مستمرة فى أسواقها سواء سوقها اليومى أو سوقها الأسبوعى الذى يصفه بأنه سوق كبيرة ويفد إليها دائماً العرب المجاورون لها."[ص٢٨٩].

يقول "بوركهارد" فى وصف تجارة التبغ الذى كان يعرض فى سوق شندى "إن تجار التبغ يوجدون فى كل ركن من أركان سوق شندى. ويعتبر استهلاك التبغ من وسائل الرفاهية. وأجود أنواع التبغ ترد من سنارويطلق عليه اسم "تابا". كذلك تستورد أدوات تدخين التبغ من هذه الجهات وكثيرون يخلطون التباكو بالنطرون. وهم يكثرون من استعمال السعوط الذى يتكون من مسحوق التبغ مضافاً إليه ثلث المقدار نطروناً. كما أنهم يخلطون النطرون مع التبغ قبل مدغه. وتستورد علب السعوط المصنوعة من الأصداف من سنار."[ص٢٩١، ٢٩٢]

ويستطرد قائلاً "ويقوم تجار سواكن بشحن أحمال كثيرة من التبغ على الإبل لأسواق جدة واليمن. [ص٢٩٢، ٢٩٣].

ويصف "بوركهارد" تجارة العطارة والتوابل فى شندى بقوله "وتكثر حوانيت البقالين والعطارين الذين يبيعون القرنفل والفلفل والحبهان والتمر هندى الذى يطلقون عليه هنا اسم "العرديب" ويستورد من كردفان. وهو ينمو فى الشمال الغربى وإلى الغرب من

دارفور بين هذا الإقليم ودار صليح. ويكثر أيضاً فى الأقاليم المجاورة لكردفان. ويستعمله سكان شندى كمشروب منعش بإذابته فى الماء الساخن. وتصل كميات كبيرة من هذه الفاكهة إلى القاهرة إذ تنقل إلى مصر على الإبل ويطلق عليها اسم تمر هندى فى القاهرة، لأن جزءاً منها يستورد من الهند الشرقية، حيث يتاجر فيه التجار الهنود بكميات وفيرة فى جدة."[ص٢٩٣]. ويمضى قائلاً "وكذلك خشب الصندل ويستورد من الهند بكميات وفيرة، وهو يكون أحد عناصر المزيج العطرى الذى يدهن به الجلد. وفى حالة المرض تعطر حجرة المريض عن طريق وضع قطعة منه على النار. وهو يباع على هيئة قطع طولها حوالى ست بوصات. وكثير منه يصدر إلى سنار." [ص٢٩٣]. "والحلبة: وتستورد من مصر وتوصف فى بعض الجهات كمقوى"[ص٢٩٣]. "واللبان: وهو نوع من الصمغ يجمع بواسطة العرب الذين يقطنون الصحارى بين كردفان والشلوك على الطريق إلى سنار. ويقال إنه يستخرج من ساق الشجرة بالطريقة التى يستخرج بها الصمغ العربى. ويباع على هيئة حلقات. وهو ذو رائحة قوية يستعمله أهل الريف كمعطر ولكنه غالى الثمن. وتجار القاهرة يتسلمونه من جدة، وأهل القاهرة يعتبرونه نوعاً من البخور ويطلقون عليه "إنسينسو" Incenso "[ص٢٩٤]. والصمغ العربى: ويباع بكميات قليلة فى أسواق شندى. ويأتى تجار سنار وكردفان بأحمال الصمغ. وأجود الأنواع التى تمتاز بلونها الأبيض الصافى تأتى من كردفان من المناطق التى يقطنها بدو فضل Fadhel.[ص٢٩٤]. "والسسم: يستورد من دارفور. ويستعمل لطلاء حقن العين فى حالة الشعور بالألم. وتحمل قوافل دارفور كميات كبيرة منه إلى مصر، حيث يكون الإقبال عليه أكثر من الأقطار الجنوبية.[ص٢٩٤]. والكحل: ويباع بكميات كبيرة للأهالى من مختلف الأماكن والطبقات من أجل تسويد جفون العين. ويستعمل فى الأرياف كعملة متداولة، إذ أن زوجات الفلاحين على استعداد دائم لاستبدال ما يمكن أن ينتجنه فى منازلهن بالكحل."[ص٢٩٤]. والقرفة: وتستورد بواسطة تجار الغرب (كردفان ودارفور). والمغلى منها فى الماء يستعمل كقابض فى حالة الحمى والدوزنتاريا. وهذا النبات ينمو أيضاً بالقرب من الحبشة فى منطقة الشكرية."[ص٢٩٥]. ويضيف "بوركهارد" أن هناك أيضاً فاكهة تسمى اللوبى Allobé تجلب من سنار وكردفان، وهى فى حجم بيض الحمام. وتستخدم مادتها الداخلية كعلاج لغازات المعدة التى يشكو منها كثير من سكان هذه الجهات، وتعرف هذه الفاكهة أيضاً باسم تمر البر أو تمر السودان. وأهالى كردفان مغرمون بأكله للغاية."[ص٢٩٥].

يقول "بوركهارد" فى وصف السوق فى شندى "إنه يعقد فى مكان متسع بين الحيين الرئيسيين فى المدينة. وهناك ثلاثة صفوف من الدكاكين مبنية من الطمى، الواحد وراء الآخر. ويبلغ طول الواحد منها ستة أقدام وعرضه أربعة أقدام. وهى مغطاة بالحصر. ويحتلها التجار المشهورون بثرائهم. وهم يحملون بضائعهم إلى متاجرهم الكبيرة كل صباح، كما يرجعون بها فى المساء، لأن هذه المتاجر ليس لها أبواب تحميها. أما التجار

فيجلسون على الأرض تحت ستار الحصر التى يقيمونها على الأعمدة لتقيهم هم وزبائنهم من حرارة الشمس."[ص٢٩٠].

ويصف السلع التى تعرض للبيع فى السوق اليومى بقوله "وتعرض لحوم البقر والإبل. وتندر لحوم الضأن. ولا توزن اللحوم وإنما تباع بكميات تتراوح بين الرطل والثلاثة أرطال. ويستخدمون فى الميزان الأحجار التى يجد البائعون عن طريقها فرصة سانحة للغش. والرطل يساوى نظيره فى القاهرة."[ص٢٩٠]. أما الأسواق الكبرى التى تعقد مرتين فى الأسبوع "فهى تعقد يومى الجمعة والسبت. ويأتى إليها الناس من جهات مختلفة على مسيرة ثلاثة أو أربعة أيام من شندى. والجزء الأكبر منهم يحمل معه القطعان من أجل بيعها، ومن هؤلاء بدو الجعليين الذين يأتون من الصحراء الشرقية. وكذلك السكان المقيمين على ضفاف النيل."[ص٢٩٥] ويصف ما يعرض فى هذه الأسواق الكبرى بقوله "إن مئات من البقر والحمير وعشرات الخيل تعرض فى هذين اليومين. وكل تاجر يأخذ مكانه فى أحد المتاجر المفتوحة أو فى فناء السوق ويعرض جزءاً من بضاعته. وتجار مصر وسواكن وسنار وكردفان يكونون مجموعات كلاً على حدة فى وسط كل منها دائرة من العبيد المعروضين للبيع. وسكان الريف يحملون إلى السوق الحصر والأسبتة وجلود الثيران والحيوانات الأخرى والأوانى الفخارية غير المتقنة وسروج الإبل والطباق الخشبية والأشياء الأخرى التى من صناعتهم الخاصة. وحوالى اثنى عشر من صانعى الأحذية والصنادل من الريف يعملون فى السوق فى هذين اليومين. وفى الإمكان عمل جوز صندل فى ساعة. كذلك يأتى الحدادون من الأرياف ويقومون بصناعة وبيع السكاكين الصغيرة."[ص٢٩٦]. ويحدثنا عن دور السماسرة فى تجارة شندى قائلاً "إن السماسرة يلعبون دوراً كبيراً فى تجارة الجملة فى شندى. ومعظمهم من دنقلة، وهم أذكى وأخرق التجار الموجودين فى هذا الإقليم."[ص٢٩٨].

يقول "بوركهارد" فى وصف نظام النقد والتعامل فى شندى: "إن العملة المنتشرة فى شندى هى نفسها المنتشرة فى بربر أى الذرة والدمور. والعبيد والإبل على العموم يشترون بالدولارات، أو تستبدل كل مجموعات العبيد ببضائع مصر وسواكن. والدولارات المتداولة مسكوكة فى أسبانيا وتسمى "أبو مدفع" لوجود شكل بندقية على قلب الدولار، أو "أبو عمود". والمتداول منها المحتفظ بقيمته هو المكتوب عليه كارلوس الرابع Carolus IIII الذى يسمونه ريال أبو أربع. وهذه الأرقام أو الخطوط ينبغى أن تكون ظاهرة على الدولار لكى تكون قيمته كاملة. ويقولون أن الدولارات المكتوب عليها كارلوس الثالث Carolus III قيمتها أقل. والدولارات المسكوكة فى عهد فرديناند تفقد ثلث قيمتها. والدولارات النمساوية لا تقبل بالمرة. وهناك حداد يقوم سراً بإضافة رقم I إلى دولارات شارل الثالث Charles III ويأخذ مقابل ذلك مكيالين من الذرة عن كل دولار. وهذا التمييز للأرقام أو الأعداد يقال إن البدو هم أول من أوجدوه. ولأن هذا التمييز

معترف به بين التجار فى الوقت الحاضر، فإنه توجد ثقة كبيرة فيه."[ص٢٨٩]. ويضيف: "أن النقود الذهبية غير متداولة، ولكن الذهب الخالص على شكل قطع صغيرة أو كتل أو حلقات للأذن، يمكن الحصول عليه دائماً وبسهولة من تجار سنار بسعر السوق. ولا يوجد لدى التجار معيار للذهب ضمن ممتلكاتهم[ص٢٩٠].

تجارة شندى مع مصر:

لقد أتيحت "لبوركهارد" الفرصة لأن يقف بنفسه عن كثب على طبيعة هذه العلاقة التجارية. يقول فى وصفه التفصيلي والدقيق للسلع والبضائع التى كانت تصل إلى شندى من مصر: "إن السلع الأساسية التي تستورد من مصر هى السمبل والمحلب. وكلاهما عليه إقبال شديد فى السودان، فالأول يستعمل كعطر ودواء، والثانى يستعمل كنوع من التوابل وعادة يستعمل كدواء. والتجار يبيعون الصنفين مختلطين ببعضهما البعض بنسبة ثلاثة أجزاء من السمبل مضافاً إليها جزءاً واحداً من المحلب. ولذلك فإن حمل الجمل يكون عادة بنفس النسبة، فيتكون الحمل من ٣٥٠ رطلاً تقريباً من الصنف الأول و١٢٠ رطلاً من الصنف الآخر. ويشترى تجار سنار هذه الأصناف مقابل الدولارات أو الدمور أو العبيد."[ص٢٩٩]. ويمضى فى وصف السلع والبضائع التى كان يأتى بها التجار المصريون إلى شندى، فيقول "والصابون يرد إلى مصر وبلاد العرب مصنوع فى غزة ويافا وحبرون Habron وأورشليم. وحتى ذلك الوقت لا تنتج مصر نوعاً جيداً من الصابون. وعلى الرغم من وجود عدة مصانع للصابون فى أسيوط إلا أن الصابون المصنوع هناك من النوع الردئ. فالزيت الذى يستخدم فى هذه الصناعة من الخس وليس من الزيتون. بيد أن محمد على أنشأ أخيراً -تحت إشراف وتوجيه رجل إيطالى قدير- مصنعاً للصابون فى الدلتا، ويستحضر الزيت اللازم من "أركبيلاجو". كما أن بحيرات النطرون تغذى المصنع بالمادة القلوية اللازمة."[ص٣٠٠]. ويصف تجارة الصابون فى السودان بعامة وفى شندى بخاصة بقوله "والصابون سلعة مربحة وعليها إقبال شديد فى جميع الأقطار الجنوبية،" ويقول عن سلعة السكر التى كانت ترد أيضاً إلى شندى من مصر "إن السكر الذى يزن حوالى أربعة أرطال ويبلغ سعره الإنتاجي فى مصانع مصر العليا سدس دولار يباع فى شندى بدولار. ويرجع ارتفاع سعره إلى الأخطار الجسيمة التى تتعرض لها تلك السلعة أثناء نقلها، مثل سقوط الأمطار فجأة على الطريق. الأمر الذى يترتب عليه هلاك الشحنة بأكملها."[ص٣٠٠]. ويصف شدة الإقبال على السكر المصرى الوارد إلى شندى بقوله "إنه يوجد إقبال شديد على السكر فى جميع الأجزاء لإرساله كهدايا للشخصيات الكبيرة وللنساء. إذ أن أحدث الموضات بين نساء مدينة شندى أن يكسب ودهن بقالب سكر. ويؤكل السكر بذاته دون استخدامه فى أنواع الحلوى أو الطعام."[ص٣٠٠].

وبالإضافة إلى تلك السلع يذكر "أن هناك واردات من الصناعات المصرية (فى شندى) وهى "التاكات" Takas التى هى نوع من القماش الخشن ذات اللون الأزرق. ويستخدمه النساء وبخاصة البدويات كغطاء لأجود ملابسهن. وهو يباع على هيئة قطع صغيرة يبلغ سعر القطعة الواحدة فى شندى دولاراً. وهى أكثر السلع التجارية تداولاً بقليل من المساومات. ويقوم تجار كردفان بشراء هذا النوع من القماش وهو مقبول فى كل مكان، ويستعمل فى التعامل فى حالة عدم وجود دولارات لدى الشخص."[ص٣٠٠ ، ٣٠١].

ويصف المكانة التى كانت تحتلها بعض أنواع الأقمشة المصرية وبخاصة المصنوعة فى المحلة لدى بعض الطبقات والشخصيات البارزة فى المجتمع، إذ يقول "والأقمشة القطنية بيضاء اللون ذات الأطراف الحمراء المصنوعة فى المحلة فى الدلتا (دلتا مصر) تلبسها الشخصيات العظيمة، وبخاصة فى سنار، وأيضاً الملايات القطنية التى يلتف بها النساء من علية القوم عند نومهن. كذلك تأخذ قوافل دارفور من مصر -كهدايا للملوك والشخصيات الأخرى البارزة- الأقمشة القرمزية وبعض الأقمشة القطنية والستان المطرزة بالذهب من النوع الخفيف من ليون وفرنسا، مع أنواع مختلفة من الأقمشة الإنجليزية، وقماش الكتان المصنوع فى أسيوط ومنفلوط، وهو مطلوب بكثرة لعمل الملابس، ولكن لارتفاع سلعه لا يعمم استعماله."[ص٣٠٠].

وعن السلع والبضائع المصرية الأخرى التى كانت ترد إلى شندى من مصر يقول: "وجلود الضأن المصرية المحتفظة بأصوافها (الفروة) تعتبر من السلع الهامة المستوردة، فهى تستعمل كسروج للخيل والحمير التى يستخدمها المواطنون. كما تستعمل كأبسطة يجلسون عليها فى حجرات نسائهم."[ص٣٠٠]. كذلك يحدثنا عن الخرز الذى كان يمثل سلعة تجارية هامة تجد طريقها إلى شندى وأقاليم السودان الأخرى عن طريق مصر بقوله "والخرز يستخدم فى هذه الأقطار كنوع من العملة المتداولة. والنوع الأكثر شيوعاً هو المصنوع من الخشب ذى الحجم الصغير وهو يصنع بواسطة الخراطين فى مصر العليا ويحمله البدو والفلاحون. والأصناف الأخرى التى تصنع فى دندرة فى مصر العليا إنما تعمل من أنوية الدوم، ويلبسها أولئك الذين يرغبون فى أن يميزوا أنفسهم بأنهم أهل تقوى. وأنواع مختلفة من الخرز الأحمر والأسود اللون يستورد من أورشليم. والخرز الزجاجى ليس متداولاً هنا بالدرجة التى نراه عليها فى الحبشة ودارفور رغم أنه يلاحظ دائماً فى السوق. والنوع الجيد هو الذى يرد من البندقية. ولكن الجزء الأكبر منه مصنوع فى الجليل (أو حربون Herbon بالقرب من أورشليم)، والزجاج الأبيض اللون المصنوع فى بوهيميا يجد طريقه إلى دارفور."[ص٣٠١، ٣٠٢]. ويستطرد الرحالة فيصف لنا أهمية الخرز الزجاجى التجارية فى شندى وأقاليم السودان الأخرى فى كردفان ودارفور، مشيراً إلى مناطقه الأصلية، والأنواع التى كان يحملها تجار سواكن إلى شندى قائلاً "ويحمل تجار سواكن إلى شندى أنواعاً من الخرز المسمى "ريش" Reysh الذى يقبل على شرائه

بكثرة تجار كردفان حيث يحتل سلعة أساسية يستبدلون بها الرقيق فى إقليمهم. كما أن هناك إقبالاً على هذا الخرز فى دارفور ودار صليح وبرقو إلى الغرب من دارفور. و"الريش" يأتى من الهند الشرقية، وبخاصة من سرات. وألف (حبة) من هذا الخرز يمكن أن يشترى بها ست إناث من العبيد إذا جرى نقلهن إلى شندى أمكن بيعهن بمبلغ يقدر بمائة وعشرين دولاراً. و"الريش" يلبسه النساء كقلادة أو عقد حول الرقبة. وهو أكثر السلع التجارية ربحاً لسهولة نقل الخرز، كما يمكن حفظه بعيداً عن رقابة أعين رؤساء الإقليم.[ص٣٠٢]. وإلى جانب الخرز هناك المرجان والكهرمان كأنواع أخرى من الحلى يستخدمها أهالي تلك الجهات، ولكن أقل قيمة.

وهناك أيضاً السلع والمصنوعات الأوروبية التى كانت ترد إلى شندى وأقاليم السودان الأخرى (الغربية) عن طريق مصر إلى جانب السلع والبضائع المصرية "والورق من جنوة ولجهورن والقصدير ذات القضبان الرفيعة يكون بكمية قليلة والنحاس الأحمر القديم، وبخاصة المُصنع فى شكل أوانٍ كبيرة وأوعية ينقلها تجار الرقيق لاستخدامهم الشخصى. وسلك النحاس الأصفر الذى يلاحظ عليه إقبال شديد فى جميع تلك الأقاليم لاستعماله فى تزيين القلادات أو العقود.[ص٣٠٣]. ويضيف قائلاً "ومن البضائع المعدنية الأكثر تداولاً الأمواس وهى تصنع فى ألمانيا، والمبارد التى يحول جميعها تقريباً إلى سكاكين للحصول على أنصال جيدة من الفولاذ، والكُستبان، والمقصات، والإبر من النوع الخشن المصنوعة فى نورمبرج. والسيوف التى يعم استعمالها فى جميع مواطن السودان تأتى من سوليجن Solingen فى ألمانيا. وحوالى ثلاثة آلاف منها تباع سنوياً فى القاهرة لتجار الأقطار الجنوبية. وحجر الكحل فى شكل كتل صغيرة، والقطران الذى تطلى به القرب كى تحتفظ بالمياه، كما تطلى به ظهور الإبل لتحفظها من الجرب أو لعلاجها من هذا المرض. والحلى الفضية للنساء مثل العقود والحلقان تأخذ منها قوافل دارفور كميات وفيرة من مصر. والأجراس الصغيرة التى يزين بها أهالى سنار ودارفور سنام ولجام الإبل .. والمرايا المذهبة المصنوعة فى البندقية وتريستا تعتبر سلعة بارزة فى التجارة المصرية. والأنواع الأكثر انتشاراً هى التى تبلغ مساحتها ٤ بوصات مربعة، والبعض الآخر مستدير من نفس الحجم وذات مقبض طويل مصنوع فى القاهرة. ولا تتزوج الفتاة هنا دون أن تزين حجرتها بمثل هذه المرآة."[ص٣٠٤، ٣٠٥].

ويصف "بوركهارد" الأرباح الكبيرة التى كان التجار المصريون يحصلون عليها بصفة عامة من تجارتهم مع السودان، رغم صعوبة الرحلة إلى هذه البلاد ومتطلبات الحكام والرؤساء بقوله "إنه من الملاحظ أن أرباح المصريين عظيمة، فالواقع أنه لا توجد سلعة مصنوعة فى مصر وأوروبا تباع فى شندى بأقل من ضعف أو ثلاثة أضعاف السعر الذى تباع به فى مصر. كما أن منتجات الأقطار الجنوبية تدر ربحاً كبيراً إذا بيعت فى مصر."[ص٣٠٦]. وبعد أن يعدد نفقات النقل عبر الصحراء والضرائب التى يتعرض لها التجار خلالها التى يصفها بأنها فى الواقع عوائق ثقيلة[ص٣٠٦] يقول "ولكن مع ذلك

فالأرباح لا زالت وفيرة، فمن المؤكد أن مجموعة من البضائع المتنوعة إذا اختيرت اختياراً حسناً، ونقلت من دراو إلى شندى من أجل بيعها، فإنه عقب بيع الشحنة العائدة (من شندى) فى دراو يمكن الحصول على ربح يقدر بـ ١٥٠٪. فإن ما يحمله الجمل من السمبل والمحلب عقب استبداله فى شندى بالعبيد يدر فى القاهرة ربحاً يقدر بـ ٥٠٠٪ تقريباً."[ص٣٠٦].

ويستطرد "بوركهارد" فى وصف أرباح التجار المصريين من السودان قائلاً "ولقد وجد التجار المصريون أخيراً أن الدولارات أعظم السلع المستوردة من أوروبا فائدة، لأنه بالدولارات يمكن الحصول حالاً على أكبر عدد من الإبل، ولكن هذا التفصيل سيستمر مادام الإقبال فى مصر على الإبل مستمراً من أجل حركة النقل بين قنا والقصير، من أجل إمداد الجيش التركى فى الحجاز. ولا يوجد إلا عدد قليل من التجار المصريين الأغنياء الذين أتوا إلى شندى برءوس أموال كبيرة."[ص٣٠٦، ٣٠٧]. ويصف بصفة عامة حجم تجارة مصر مع السودان وقت زيارته (١٨١٣) "بأن جملة المبلغ الذى يستغله التجار المصريون فى تجارة السودان بين ستين وثمانين ألف دولار. ولكن نظراً لأن هذا المبلغ يدر ربحاً مضاعفاً وفى بعض الأحيان ثلاثة أمثاله فى العام الواحد حسب عدد الرحلات فإن جملة قيمة الواردات إلى تلك الأقطار من مصر يمكن تقديرها بمعدل ألف وخمسمائة أو ألفين دولار كل عام."[ص٣٠٧]. ويضيف: "أنه لا تصدر من الأقطار الجنوبية دولارات، إذ أنها تبدد أو تخزن سراً عن طريق الرؤساء أو أشخاص آخرين ينفقونها لمصلحتهم الخاصة. ومن أجل ذلك فالسودان يضيع بصفة مستمرة جزءاً من فضة أوروبا."[ص٣٠٧].

أخيراً يختم "بوركهارد" دراسته لتجارة شندى مع مصر، وبخاصة عن الطريق الشرقى عبر صحراء النوبة بإبداء رأيه فيها، بقوله: "إن التجارة (تجارة مصر مع السودان عن الطريق الشرقى) ينبغى أن تصلح شئونها كثيراً سواء أكان عن طريق تنظيم رحيل القوافل (إذ يجب أن تغادر دراو مثلاً مرة كل أسبوع)، أو عن طريق تأسيس شركات فى بربر وشندى، لأنه فى الوقت الحاضر تظل القوافل من جميع الجهات دائماً فى انتظار قدوم القوافل الأخرى التى عن طريقها فقط تستطيع تصريف بضائعها. وصحراء النوبة يخترقها فى الحقيقة كل أسبوعين جماعات صغيرة من المخاطرين، ولكنهم يتأخرون فى مكان على الطريق. والبضائع المصرية قلما تتوافر فى شندى (و أعتقد أن ذلك يحدث أيضاً فى سنار) إلا عقب مجئ القوافل الكبيرة التى أصبح رحيلها من دراو فى الوقت الحاضر غير منتظم بالمرة. وقافلة سنار ترحل من مصر العليا عادة مرة فى العام وترجع فى العام التالى. إنها تستريح فى بربر والدامر وشندى. وعادة تستغرق من شهرين إلى ثلاثة أشهر فى طريقها من دراو إلى سنار. وهذه القافلة تتكون من ثلثمائة إلى أربعمائة رجل وعدد كبير من الإبل، وتتصل عند رجوعها بعدد كبير من تجار سنار، وبخاصة وكلاء ملك سنار ووزيره الذين هم أهم التجار الموجودين فى ذلك المكان."

تجارة شندى مع سنار

قدم وصفاً عن تجارة شندى مع سنار، تناول فيه مواعيد وصول قوافل سنارإلى شندى وعددها، والسلع والبضائع التى كانت تحملها إلى شند ى من منتجات سنار ذاتها، والأقطار المجاورة لها مثل الحبشة التى كانت تربطها بسنار علاقات تجارية. كذلك ما كانت تعود به تلك القوافل من السلع والبضائع المختلفة التي كانت ترد إلى شندى عن طريق القوافل التى كانت تأتيها من مصر وأقاليم السودان الأخرى مثل دنقلة وسواكن ودارفور، وبخاصة الرقيق الزنوج. يقول فى وصف قوافل سنار القادمة إلى شندى: "إن القوافل من سنار تصل إلى شندى كل ستة أسابيع أو شهرين. وعندما تحمل ذرة يبلغ عدد الإبل المحملة من خمسمائة إلى ستمائة، ولكن إذا كانت تحمل بضاعة وعبيدا فقط فإنه قلما تضم مائة جمل".[ص٣٠٨]. ويصف السلع والبضائع التى كانت تحملها قوافل سنار عادة إلى شندى بقوله " والشيء الرئيسى الذى يصدر من سنار هو الدمور أو القماش المصنوع من القطن الذى لا يستعمل على طول ضفاف النيل حتى دنقلة فحسب، بل وأيضا فى كردفان وفى جزء كبير من دارفور والحبشة، وفى جميع بلاد النوبة شرق النيل حتى البحر الأحمر. وهذه السلعة عليها دائما إقبال شديد. ويمكن الحصول بها على جميع السلع التجارية تقريبا. ومصانع سنار وباقرمه Bagerme الواقعة إلى الغرب من دارفور تمد الجزء الأكبر من إفريقية الشمالية الشرقية بالأقمشة".[ص٣٠٨].

ويمضى "بوركهارد" في وصف السلع والبضائع التي كانت تحملها قوافل سنار إلى شندى قائلا "والذهب هو ثاني سلعة في تجارة سنار ويقوم تجار سنار بشرائه من تجار الحبشة. ولكن لا نعلم بالتأكيد في أى مقاطعة من الحبشة الغربية يوجد ويبدو أن السوق الرئيسية للذهب فى "رأس الفيل" Ras El Fil وهى علي طريق القافلة من سنار "لجوندار" Gondar علي مسيرة أربعة أيام. وهذا الطريق في الوقت الحاضر يطرقه كثيرا تجار سنار كما هو الحال بالنسبة لطبقة التجار الأحباش التى يطلق عليها اسم "جبرت" Jebert الذين هم رؤساء وتجار العبيد والذهب فى ذلك الإقليم" [ص٣١٠]. ويصف "بوركهارد" تجارة الذهب في شندى الذى كان يأتيها من سنار بقوله "والذهب الذى يرد من سنار يشتريه فى المقدمه تجار سواكن الذي يحملونه إلى جدة، حيث يدفع ثمنا للبضائع الهندية. وقلما يشتريه التجار المصريون، لأنه لا يأتى بربح كبير. وفى سنار يبلغ سعر أوقية الذهب الخالص اثنى عشر دولاراً، وفى شندى ستة عشر دولارا، وفى سواكن عشرين دولارا، وفى جدة إثنان وعشرين دولارا وبالرغم من أن تجار سواكن فى استطاعتهم أن يشتروا من شندى كثيرا من السلع الأكثر ربحا من الذهب، فإنهم يفضلون الذهب بالنظر إلى سهولة نقله وإخفائه وتجنب دفع أى ضريبة فى الطريق".[ص٣١٠].

وكان تجار سنار يحملون الرقيق إلي شندي. ويصفه: "والرقيق إما أحباش أو من جنس يسمي «النوبا» [ص ٣١١]. والرقيق الأحباش يكونون عادة من نساء مالك «الجالة» وعدد قليل من «الأمرار» وعدد رقيق الأحباش الذي يرسل إلي الشمال عن طريق شندي قليل. وأحسن النساء من الخاسة. وفي بلاد العرب ومصر يكون سعر رقيق الأحباش الوارد من مصوع عن طريق التجار «الجبرتا» الذين يبيعونه في جده أرخص ويقدر عدد النساء الحبشيات اللائى يصدرن سنويا من سنار إما إلى سواكن أو إلي مصر حوالى المائة. وقد اشترى المماليك عددا كبيرا منهن. والحبشيات يفضلن عن النساء السود من أجل جمالهن وحرارة وثبات حبهن لسيدهن الذى يعلمهن كيف يحببنه".[ص٣١٠، ٣١١]. ويضيف أن الرقيق النوباويين يفضلون فى مصر، كما فى بلاد العرب عن غيرهم فى العمل. وهم يمتازون بخلق حسن. ويباعون فى شندى وفي مصر بسعر يزيد ٢٠٪ عن الزنوج الآخرين. وعلى النقيض من ذلك الأحباش الذكور فهم مشهورون بقلة صلاحيتهم للعمل الجسمانى، ولكن يمتازون بإخلاصهم وصلاحيتهم كخدم فى البيت. وعادة يعملون كتبة، ويفوقون الرقيق السود عقلية. ويقال إن تركيب بنية النوباويين أكثر قوة، كما أنهم أقل إصابة بالأمراض. والجزء الأكبر منهم يصدر إلى مصر، ولكن بعضهم يرسل إلى سواكن" .[ص٣١٢].

ومن السلع الأخرى التى كانت تحملها قوافل سنار إلى شندى العاج. وقد وصف "بوركهارد" تجارته بقوله "إن التجار المصريين يشترون أنياب الفيل ولكن بكميات قليلة. وهذا الفرع من التجارة يبدو أنه كان أول الأمر أكثر انتعاشا، بيد أنه في الوقت الحاضر أصبح الإقبال على العاج فى مصر قليلاً. ومن المحتمل أن ذلك راجع إلى أن أوروبا تحصل الآن على حاجتها منه بسعر رخيص من بربرة والهند الشرقية. ومهما يكن من أمر فإن استيراد العاج كثيرا ما يعتريه الكساد فى سوق القاهرة" [ص٣١٢]. كذلك قرون الخرتيت الذى يذكر: "أنها تستعمل فى القاهرة للزينة كمقابض للسيوف والخناجر حسب موضة (تقليد) المماليك وأنها غالية الثمن"[ص٣١٢]. والكرابيج التى يشير إلى أنها تستورد من سنار فقط[ص٣١٣]. والأبنوس الذى يقول "إنه يجلب علي شكل قطع صغيرة، ويذكر "أن الغابة التى ينمو فيها تقع إلى الجنوب من سنار، ولكن علي مسافة كبيرة، ولذلك فسعره مرتفع جداً، ومقابض السكاكين المصنوعة منه بدقة تأتى من سنار والجلابة أو تجار الرقيق لا يحملون الأبنوس إلى مصر. والقاهرة تحصل عليه من جدة" [ص٣١٣، ٣١٤].

وهناك أيضا تجارة الجلود التى اشتهرت بهاسنار "إن أحسن مصانع الجلود فى المنطقة الممتدة من دارفور حتى البحر الأحمر توجد فى سنار" ... "إن مهارة الصناع تظهر بصفة خاصة فى صناعة سروج الإبل والأكياس الجلدية والصنادل. والأولى تصدر إلى مصر من أجل الإبل المعدة للركوب. وتباع هناك بسعر مرتفع يبلغ عشرين دولاراً. والأكياس الجلدية يقوم بشرائها تجارسواكن، ثم يبيعونها لأهالى اليمن الذين يستعملونها فى حمل

مؤنهم أثناء السفر، وهى تحاك بإتقان تام، وبعضها يقفل بقفل. وقد بيع عدد كبير منها فى مكة للوهابيين بواسطة أهالى سواكن. والجلد من أجود الأنواع، ويفوق كثيرا المصنوع فى مصر وسوريا، وهو تقريبا مثل جلد الروسيا من حيث الجودة. وصنادل سنار يلبسها الرجال والنساء المعروفون بحسن هندامهم فى بلاد النوبة. ويبلغ سعر الصندل الجيد دولارين. وكل مكان في هذه الأقطار له موضة خاصة به فى شكل الصندل الذى اعتاد سكانه أن يلبسوه. ولذلك عن طريق الخبرة يمكن التأكد من موطن الشخص بالنظر إلى قدمه". [ص٣١٤، ٣١٥]. كذلك يذكر "بوركهارد" "أن العسل يستورد بكمية كبيرة من سنار. والعرب القريبون من سنار يجمعون العسل البري بكميات عظيمة [ص٣١٥]. على أن الذرة والإبل كانتا أهم السلع التى ترد من سنار إلى شندى ولولا ذرة سنار لهددت شندى المجاعة [ص٣١٥].

ويقارن "بوركهارد" بين درجة ثراء تجار سنار والتجار المصريين الذين يأتون إلى شندى من واقع ملاحظاته قائلا "وتجار سنار أكثر ثراء من التجار المصريين. وليس من النادر أن تجد تاجراً من سنار يملك عشرة أحمال إبل من قماش الدمور ومجموعة كاملة من الرقيق. وهناك تاجر من سنار اشترى وهو موجود فى شندى كل أحمال القافلة المصرية التي كانت تحتوى ثلاثين حملاً [ص٣١٥]. وأخيرا عن السلع والبضائع التي كان تجار سنار يعودون بها من شندى، مماكانت تأتى بها إليها القوافل من مصر وأقاليم السودان الأخرى فيقول: "ويأخذ تجار سنار عند رجوعهم من التجار المصريين السمبل والمحلب بكميات وفيرة وكذلك السكر والصابون، وتقريباً كل سلع أسواق مصر وسواكن. ومنذ أن انقطع الاتصال المباشر بين سنار وكردفان أصبح سكان سنار يشترون من شندى الرقيق الزنوج الذين يأتون من كردفان إذ يمكن هنا الحصول على هذا النوع من الرقيق بأسعار منخفضة عن أسعار الرقيق النوباويين" [ص٣١٦]. ويضيف: " أنه فى أثناء إقامته فى شندى أصبح الطريق عبر النيل إلى سنار خطراً بالنظر إلى المشاحنات التى قامت بين ملوك "الحلفاية وإربجى" ، ولذلك فضلت القوافل أخذ طريق الصحراء، الذى يقع محازياً للنهر ولا تقع سوى بئر واحدة علي هذا الطريق على مسيرة ثلاثة أيام من شندى تقريباً. وحتى هذا الطريق فى بعض الأوقات لا تسلكه القوافل نظرا لتردد بدو الشكرية الذين يخشاهم سكان سنار بشدة عليه"[ص٣١٦]. وعن الدور الذى كان يلعبه ملك سنار فى تجارة بلاده مع شندى يذكر: "أنه لا تفرض ضرائب مرور أو جمارك فى سنار، وإن العائق الوحيد الذى يعوق التجارة هو أن الملك دائما يعرض بضائعه الخاصة على المشترى دون مساومة" [ص٣١٦].

تجارة شندى مع كردفان

يصف "بوركهارد" طبيعة العلاقات التجارية بين كردفان وشندى بقوله: "إن وصول قوافل كردفان إلى شندى غير مؤكد، إذ يتوقف على تقلب خواطر حاكم كردفان الذى كثيرا ما يمنع التجار من الرحيل لأجل زيادة منافعه التجارية. وفى بعض الأحيان تنقضى ثلاثة شهور دون وصول أى قافلة، ثم يتتابع وصولها سريعاً. والطريق من الأبيض عاصمة كردفان إلى شندى آمن للغاية. ويستغرق قطعه أربعة عشر يوماً، والخمسة أيام الأخيرة منها تمضى فى صحراء دون ماء. ويأتي مع قوافل كردفان أيضا تجار من دارفور. والعلاقة بين كوبة عاصمة دارفور والأبيض (عاصمة كردفان) يقال إنها في حالة نشاط كبير واستقرار تام. وكردفان لا تملك عبيداً آخرين أكثر مما يأتون إليها من دارفور. إذ يبدو أن سكانها لا يتعاملون مع أقاليم الزنوج الجنوبية. ومنذ أن وصل المماليك إلى دنقلة انفتح طريق التجارة بين ذلك الإقليم وكردفان التى يقال إن الأطراف الشمالية منها تقع على مسيرة ستة أيام فقط من دنقلة".[ص٣١٦].

ويتناول "بوركهارد" الحديث عن السلع والمنتجات التى اعتادت قافلة كردفان أن تحملها إلى شندى قائلا "إن وصول أى قافلة من كردفان إلى شندى تملأ السوق بالرقيق الذين يمثلون الوارد الرئيسى من هناك. ويحمل تجار كردفان معهم أيضا الصمغ العربى، وهو من أجود الأنواع المعروفة فى أقطار السود وهو على شكل حبوب صغيرة ولونه أبيض ناصع[ص٣١٧]. وكذا العرديب والصمغ اللبان والنطرون من دارفور والسمسم الذى يستخدم في مصر لعلاج أمراض العيون. والبسلة الصغيرة التى تنمو فى كردفان ودارفور. والبسلة التى تزرع فى دارفور تمتاز بجمال منظرها، وتلبس فى خيوط على هيئة عقود. كذلك يبيع تجار كردفان في شندى الحبال المصنوعة من الجلد. والسكان الذين يعيشون علي ضفاف النيل يصنعون الحبال من الليف أو من النباتات التى تنمو علي ضفاف النهر، ولكن جميع المناطق الغربية حيث لا ينمو النخيل يستعملون لربط أحزمتهم السيور الجلدية المفتولة وتمتاز بصلابتها وقوتها، وهى ذات أهمية كبيرة في السفر عبر الصحارى بالإبل المحملة بالأحمال الثقيلة وهذه الحبال تباع لتجار مصر وسواكن، بالإضافة إلى الأكياس الجلدية المصنوعة من جلد الثور فى كردفان ودارفور. وهذه الأكياس تستعمل في نقل خبز الذرة كطعام للرقيق. أما قرب الماء الكبيرة المصنوعة من جلود الثيران فيستعملها التجار الذين يكون معهم عدد كبير من الرقيق لنقل الماء عبر الصحراء. واثنتان من هذه القرب تكونان حملاً علي الجمل. وتلك القرب تحفظ كمية من الماء أكثر من القرب المصنوعة من جلد الماعز، كما أن سمك الجلد يمنع الماء من التبخير بسرعة والقرب تمثل سلعة تجارية هامة بين دارفور ومصر إذ أنها تستخدم فى كل مدن مصر، وبخاصة فى القاهرة لنقل الماء من النهر إلى المدينة لحاجة السكان اليومية. وتجار كردفان يحملون أيضا القرب المصنوعة من جلد الضأن، وتظهر المهارة الفائقة فى

صناعتها، إذ يسلخ الجلد بعناية دون إحداث أى قطع فيه. وهناك سلعة أخرى ترد من كردفان وهى الأطباق الخشبية المتسعة والسلطانيات (نوع من الأوانى) كثيراً ما تحل محل الأنواع الصينية. والأوانى والأطباق والفناجين وغيرها توضع على الرفوف فى حجرات الاستقبال كزينة في البلاد المحترمة في الشرق. وبعض هذه السلطانيات كبيرة الحجم بحيث تسع من الطعام ما يكفى اثنا عشر شخصاً، وهى مصنوعة بإتقان بحيث لا يلاحظ أثر الآلات التى تستعمل فى صناعة هذه الأوانى" [ص٣١٧، ٣١٨]. كذلك كان تجار كردفان يحملون إلى شندى ريش النعام عليه عليه إقبال شديد [ص٣١٨]. ويصف "بوركهارد" تجار كردفان الذين يترددون على شندى "بأنهم من ذوى الأملاك (رءوس الأموال) المتوسطة. والجزء الأكبر منهم له زوجات فى شندى وفى دارفور كما فى الأبيض. وهم يشترون الرقيق من دارفور ويظلون بعض الوقت مع عائلاتهم فى الأبيض. ثم بعد ذلك يحملون عبيدهم إلى شندى وهم يمتازون بخلق حسن" [ص٣١٨، ٣١٩]. ويقارنهم بسكان سنار "بأنهم أكثر أمانة منهم، ولكن هذه الفكرة الحسنة المعروفة عنهم لا تغرى أى إنسان بأن يعطيهم بضاعة بالأجل [ص٣١٩].

ثم يحدثنا "بوركهارد" عن السلع والبضائع التي كان تجار كردفان يعودون بها إلى بلادهم من شندى بقوله "إنهم يأخذون عند رجوعهم إلى بلادهم من شندى القليل من السمبل والمحلب وبعض الكحل والخرز وكميات كبيرة من التوابل، وبخاصة القرنفل الذى يوجد إقبال شديد عليه فى الأقاليم الغربية. وقليل من المصنوعات المعدنية والدمور من إنتاج سنار، والكتان من إنتاج مصر. والأقمشة القطنية المستوردة من سواكن، وقليل من الملابس المصنوعة من الأقمشة الحريرية الواردة من الحجاز التى يلبسها الزعماء كعلامة مميزة لهم. وبعض حبوب القهوة[ص٣١٩]. ولكن فوق كل ذلك "الريش" أو الخرز الزجاجي الهندى"[ص٣١٣]. ويشير إلى نظام التعامل فى كردفان موطن هؤلاء التجار قائلاً "والعملة السائدة في كردفان إلى جانب الذرة هى القطع الحديدية الصغيرة التي يمكن أن يشترى بها من السوق اللبن وخبز الدخن: وهذه القطع الحديدية تجمع ويعمل منها فئوس ورءوس الحراب. والأبقار تستعمل أيضا كوسيلة للتبادل. والعبيد كثيرا ما يشترى بهم عدد كبير من الأبقار. والمروج البرية اللازمة لإطعام الأبقار من الوفرة بحيث لا يعترض أحد على الاحتفاظ بأعداد كبيرة من هذه الحيوانات فى الأحواش الخاصة"[ص٣١٩].

تجارة شندى مع سواكن:

سواكن ميناء هام على الشاطىء الغربى للبحر الأحمر. وقد كان على مر العصور المنفذ الرئيسى لتجارة السودان مع بلاد العرب وأقطار جنوب شرق آسيا مثل الهند وجزر الهند الشرقية[ص٣٢١]. وكانت تربطه بأقاليم السودان فى الداخل طرق ومسالك اعتادت قوافل

التجارة أن تسلكها دائماً. وقد اشتهر تجار سواكن من الحداربة برحلاتهم التجارية إلى بعض الأقاليم السودانية قبل سنار وكردفان وشندى. يقول: "بوركهارد" فى وصف حركة التجارة بين سواكن وشندى والقائمين بأمرها "إن أكثر التجار ثروة الذين يترددون على سوق شندى فى الوقت الحاضر هم من سكان سواكن، أو كما يعرفون باسم الحداربة أو الحضارمة أى سكان حضرموت جنوب بلاد العرب وهى الموطن الأصلى لهم. وبعض هؤلاء التجار موجودون دائما فى شندى. وترحل القوافل من سواكن إلى شندى وبالعكس. ولا يمر شهر دون أن تأتى قوافل من سواكن. والحداربة يزورون أيضا سوق سنار [ص٣١٣، ٣٢١]. وقوافلهم التى تذهب إلى هناك تأخذ إما طريق شندى أو الطريق القريب وهو طريق قور رجب على نهر العطبرة ومنها يتقدمون فى اتجاه مستقيم عبر الصحراء إلى سنار. وبعض الحداربة يترددون على الأبيض فى كردفان. ولكن ليس بالعدد الكافى الذى يكون قافلة. لذلك فهم يتصلون بتجار سكان هذه البلاد فى شندى. وقوافلهم فى شندى تجد ترحيبا من أهالى كردفان وسنار. إذ أنهم أكثر المشترين إقبالاً على بضائعهم، ولكنهم يخلقون غيرة كبيرة وسط التجار المصريين المنافسين لهم فى مختلف السلع الواردة" [ص٣١٩، ٣٢٠].

وعن السلع والبضائع التى كان تجار سواكن يأتون بها إلى شندى يقول "بوركهارد": "وتجار سواكن يمدون شندى بالبضائع الهندية الرئيسية مثل الأنواع المختلفة من قماش البفتة، ونوع آخر يسمى "بنوه" من مدراس وسرات، وكذلك قماش الموسلين الخشن من البنغال الذى يستعمله بعض سكان شندى وسنار. ولكن الجزء الأكبر يعطى لتجار كردفان مقابل العبيد. ويأتون كذلك بالتوابل وبخاصة القرنفل والزنجبيل والسكر الهندى وخرز مخا كما يسمونه كذلك على الرغم من أن لا شىء من هذا القبيل يصنع فى مخا، وأيضا خشب الصندل الذى له أهمية تجارية، إذ يجد طريقه من هنا إلى المناطق الغربية من دارفور حتى باقرمى Bagerme كذلك يحملون "الضفرة" الذى يشتريه تجار سنار ودارفور. و"الضفرة" صدف حيوان يعيش فى البحر الأحمر يقطع إلى أجزاء صغيرة، وتستخدم كعطر يأتى برائحة زكية عندما يوضع فوق النار. وأحيانا تقطع "الضفرة" إلى أجزاء مثل الخرز يستعملها السيدات في الحجاز ومصر كقلادات ولونه أسود أو أزرق داكن ذات عروق براقة اللون. وسكان سواكن يصدرونه أيضا إلى جدة" [ص٣٢٠].

أما السلع والبضائع التى كان الحداربة من تجار سواكن يعودون بها من شندى إلى بلادهم فيحدثنا عنها بقوله "والحداربة يأخذون عند رجوعهم الذهب والعبيد (مفضلين الأحباش) وجميع السلع الأخرى التى تدخل فى نطاق تجارة السود، ماعدا الصمغ العربى، مع أنهم فى بعض الأحيان يأخذون هذه السلعة أيضا ويبيعونها فى مخا للتجار الإنجليز والأمريكان. كذلك فإن كل قافلة من سواكن تشترى من شندى ويقارنهم بغيرهم من التجار الغرباء الذين يفدون إليها قائلاً "وهؤلاء التجار يتمتعون في شندى بثقة أكبر من

غيرهم، لأنهم أكثر ثروة وعدداً. وهم عرب أحرار وليسوا فلاحين مثل أولئك الذين يأتون من مصر العليا أو سود مثل أولئك الذين يأتون من كردفان. ولكنهم ينتمون بوجه خاص إلى أرقى العائلات فى سواكن. وهم على استعداد لأن ينتقموا من أية إهانة توجه لواحد منهم. والمك يعاملهم دائما بأدب، وإليه يقدمون هدايا أضخم من تلك الهدايا التى يقدمها التجار الآخرون" [ص٣٢١].

تجارة شندى مع دنقلة

يصف "بوركهارد" تجارة دنقله مع شندى "بأنها ذات أهمية قليلة" [ص٣٢١]. ويضيف "أن أهل دنقلة يحملون إلى شندى التمر الذى يشترونه من المحس، والتبغ الذى ينمو فى بلادهم. والتمر يجد طريقه إلي سنار وكردفان حيث يرسل كهدايا للرؤساء. وتعتبر التمور هناك أنفس شىء بعد السكر يمكن أن يمتلكوه" [ص٣٢١]. وهناك تجارة أخرى اشتهر بها أهل دنقلة فى شندى وغيرها. "فالرقيق من النساء اللائى خدمن فى المنازل بدنقلة فى أعمال معينة عليهن إقبال شديد من جانب تجار الرقيق للاستعانه بهن فى الطبخ أو فى الخدمة فى البيوت" [ص٣٢١]. وربما كان لوجود المماليك فى دنقلة أثره فى زيادة حركة التجارة بين دنقلة وشندى، إذ يذكر "بوركهارد" "أنه منذ أن استقر المماليك فى دنقلة أصبحوا فى حاجة إلى الحصول على السلع المصرية عن طريق شندى. وأقصر طريق هو الطريق الذى يسير عبر المرتفعات من كورتي فى الأطراف الجنوبية لدنقلة، علي مسيرة خمسة أيام، لكن يبدو أنه طريق لا يسوده الأمن" [ص٣٢١].

وأخيراً يصف لنا "بوركهارد" هذا التجمع الهائل للتجار من مصر وسنار وكردفان وسواكن ودنقلة فى شندى وصفاً دقيقاً ومعبراً، إذ يقول "لقد ترتب علي التقاء جميع هؤلاء التجار فى شندى أن أصبحت شندي المدينة التجارية الأولى في الأقطار السوداء لتجارة المصريين والعرب فى الرقيق، وصارت فيها التجارة المصرية والعربية والسودانية متحالفة تحالفاً متيناً. كما أن تجار هذه الأقطار الثلاثة يقابلون بعضهم بعضا من حين لآخر من على مسافات كبيرة نتيجة لظروفهم التجارية " [ص٣٢٢]. ويضيف قائلاً: "إن سكان بربر وسكان شندى كما يتضح أمة من التجار بما في تلك الكلمة من معنى. ولدى بعض الملاحظات أضيفها على أهم فرع فى تجارتهم وهى تجارة الرقيق" [ص٣٢٤].

تجارة الرقيــق:

لقد كانت شندى بحكم موقعها الجغرافى كملتقى لقوافل التجارة من مصر وأقاليم السودان المختلفة. من سنار وكردفان وسواكن ودنقلة مركزاً رئيسياً لتجارة الرقيق، باعتباره سلعة تجارية هامة فى ذلك الوقت. وهو ما سبق أن عبر عنه بقوله "لقد ترتب على

التقاء جميع هؤلاء التجار فى شندى أن أصبحت شندى المدينة التجارية الأولى في الأقطار السوداء لتجارة المصريين والعرب فى الرقيق" [ص٣٢٤]. "يقدر "بوركهارد" عدد الرقيق الذين كانوا يباعون فى سوق شندى سنوياً بحوالى خمسة آلاف عبد، منهم مايقرب من ٢٥٠٠ عبد ينقلهم تجار سواكن و ١٥٠٠ عبد ينقلهم تجار مصر. والباقى يجد طريقه إلى دنقلة وإلى البدو الذين يعيشون شرق شندى وتجاه عطبرة والبحر والأحمر" [ص٣٢٤].

أما الجهات التي كان يأتي منها الرقيق فيحدثنا عنها "بوركهارد" بقوله: "إن أولئك الرقيق الذين يؤتى بهم من دارفور إلى كردفان، الجزء الأكبر منهم من البلاد الوثنية مثل بندا Bende، وفيتجو Fetigo، إلى الجنوب والجنوب الغربى من دارفور، على مسيرة عشرين إلى خمسة وعشرين يوماً من كوبة. وكل بلد من هذه البلاد يتكلم لغة خاصة به. ويتاجر تجار دارفور مع فرتيت التى تقع على مسيرة عشرين يوماً تقريباً من كوبة فى الاتجاه الجنوبى. والبلاد جبلية، وسكانها كلهم يجهلون الزراعة، ولكنهم ذاقوا وفرة الذرة والدخن. ويقال إنهم فى حالات المجاعة يبيعون كل شيء حتى أطفالهم للحصول على هذه الغلات" [ص٣٢٤].

ويصف "بوركهارد" أنواع الرقيق وأسعارها بقوله "إن الجزء الأكبر من هؤلاء الرقيق الذين يوردون إلى شندى عمرهم دون الخامسة عشرة والتجار يقسمون الذكور والإناث منهم إلى ثلاثة أقسام حسب أعمارهم: خماسى ويشمل أولئك الذين تبلغ أعمارهم أقل من عشرة أو إحدى عشرة سنة، سداسى ويشمل أولئك الذين تبلغ أعمارهم فوق إحدى عشرة سنة وأقل من أربع عشرة أو خمس عشرة سنة، والبالغ ويشمل أولئك الذين تبلغ أعمارهم خمس عشرة سنة وما فوق ذلك السن. والسداسى هو المطلوب بكثرة. ويبلغ سعر العبد الذكر من هذه المجموعة خمسة عشر أو ستة عشر دولاراً، والأنثى تساوى من عشرين إلى خمس وعشرين دولاراً أسبانياً. وسعر الذكر من الخماسى إثنا عشر، والأنثى خمسة عشر دولاراً. والذكر من البالغين قلما يباع بسعر يزيد على ثمانى أو عشرة دولارات. ولا توجد إلا نسبة ضئيلة من هذه الطبقة، لأن الرأى السائد فى مصر وبلاد العرب أنه لا يمكن الاعتماد كثيراً على عبد يؤتى به إلى الأسرة وهو فى سن متقدمة. ومن هنا كان إحجام كبير عن شراء العبيد البالغين للخدمة فى المنازل أو حتى لاستخدامهم كعمال. والبالغون بصفة خاصة يقوم بشرائهم البدو والذين يستخدمونهم كرعاة. والبشارية لديهم عدد كبير منهم فى جميع معسكراتهم. والنساء من الرقيق رغم أنهن تجاوزن سن الجمال، إلا انهن يبعن أحياناً بسعر مرتفع يبلغ ثلاثين دولاراً، إذا كن معروفات بمهارتهن فى العمل مثل الحياكة والطبيخ وغير ذلك. ويوجد فى سوريا قليل من الرقيق. والجزء الأكبر منهم تحمله القوافل من بغداد، ويؤتى به من سواحل Souahel على شاطىء موزمبيق" [ص٣٢٤، ٣٢٥].

ويصف ظاهرة تنقل الرقيق بين أيدى التجار وصفاً دقيقاً يقول "إن القليل من العبيد

الذين يجلبون إلى مصر ينتهى به المطاف إليها دون أن يكون قد تغير أسياده لعدة مرات قبل أن يستقر نهائياً مع الأسرة (التى يعيش وسطها). فعلى سبيل المثال العبيد من فرتيت Fertit يجمعون أولاً على أطراف هذه البلاد بواسطة تجار حقراء يتاجرون فى الذرة. وهؤلاء يبيعونهم بدورهم لتجار كوبة (من دارفور) الذين يفدون إلى فرتيت من أجل هذا الغرض. وفى كوبة يقوم بشرائهم تجار دارفور أو كردفان الذين ينقلونهم إلى الأبيض فى كردفان. وهنا يتقلبون بين أيادى تجار آخرين من كردفان يحملونهم إلى شندى. لأن تجار السودان عموماً يحصرون مضارباتهم التجارية فى سوق واحدة. وهكذا يختلف سكان كردفان الذين يفدون إلى دارفور من أجل التجارة عن أولئك الذين يزورون شندى. بينما من ناحية أخرى يختلف المصريون الذين يفدون إلى شندى فقط بقصد التجارة عن أولئك الذين يتقدمون جنوبا إلى سنار. كذلك الحال بالنسبة لتجار سواكن، فهم ينقسمون إلى تجار يذهبون إلى شندى وآخرين يتقدمون إلى سنار" [ص٣٢٥، ٣٢٦].

ويستطرد "بوركهارد" قائلا "وفى شندى يقوم بعض التجار المصريين أو العبابدة بشراء الرقيق. وعند وصولهم إلى مصر العليا يباعون إما فى إسنا أو أسيوط أو فى القاهرة. وفى المكانين الأولين عدد كبير من الرقيق يشتريه التجار ويبيعونه بالقطاعي فى القاهرة، أو المدن الصغيرة فى مصر العليا، حيث يمضون أياماً قليلة فى كل منها أثناء سيرهم شمالاً. وحتى فى القاهرة لا يباعون بصفة نهائية من أول لحظة. فالخان الخاص بتجار الرقيق الذى يسمى وكالة الجلابة والقريب من الجامع الأزهر يزدحم بالتجار الصغار والبائعين المتجولين الذين كثيراً ما يساومون تجار مصر العليا فى الرقيق عقب وصولهم مباشرة، ويقتنعون بربح بسيط من أجل بيعهم مرة أخرى. ويوجد أيضا تجار من سمرنة Smyrna والقسطنطينية يقيمون على الدوام فى القاهرة ولا يتاجرون فى شىء سوى الرقيق. وهؤلاء التجار يصدرون الرقيق من الإسكندرية. وغالباً ما يمر الرقيق بين ثلاثة أو أربعة أياد بين الاسكندرية والمقر النهائى الذى سيستقرون فيه بالمقاطعات الشمالية من تركيا"[ص٣٢٦]. ولقد شاهد بنفسه أمثلة عديدة على سرعة تغير أسياد الرقيق. ويذكر أنه "شاهد فى شندى وإسنا عبيداً اشتروا وبيعوا مرتين أو ثلاث مرات قبل أن يغادروا نهائياً السوق. بل ربما بعد تجربة السيد لعبيده خلال أيام قليلة إذا لم يجد فيهم ما كان يتوقعه منهم، فإنه يعرضهم مرة أخرى للبيع أو يستبدلهم بآخرين" [ص٣٢٦]. ويحدثنا "بوركهارد" أيضا عن ظاهرة بيع الأطفال الصغار ضمن الرقيق فيذكر "أنه بين المعروضين للبيع فى شندى شاهد كثيراً من الأطفال أعمارهم أربعة أو خمسة أعوام بدون آبائهم، والبعض الآخر من نفس هذا العمر مع آبائهم. ولإنسانية التجار فإنه من النادر أن يبيعونهم منفردين. وإذا حدث قبل ذلك فإن البائع يؤنب على اعتبار أنه مجرم ارتكب هذا النوع من القسوة" [ص٣٢٧].

ويشير "بوركهارد" إلى ظاهرة اختلاف الرقيق فيما بينهم من حيث الأخلاق ودرجة

الالتصاق بسيدهم، وقد كان تجار الرقيق على دراية بها، إذ يقول "إن التجار عند شراء الرقيق ينتبهون جدا لأصلهم، لأن الخبرة الطويلة برهنت لهم أنه يوجد اختلاف بسيط فى الأخلاق بين أفراد الشعب الواحد. فالنوباويون الذين يأتون من سنار يقال إنهم يتمتعون بأحسن الأمزجة والطباع بعد الأحباش والجالة Gallas، وإنهم أكثر التصاقا بأسيادهم. ومن الأحباش أولئك الذين يعيشون فى الأقاليم الشمالية ويعرفون باسم كوستانى، يقال إنهم غادرون ومؤذون، بينما الأمرأر Amaaras معروفون بلطف طبائعهم. ومن الزنوج الغربيين أولئك الذين من بندا Benda فهم أكثر اعتباراً وتقديراً، ويليهم أولئك الذين يجلبون إلى دارفور من برقو وهى بلاد إسلامية سكانها يحملون جيرانهم الوثنيين. والرقيق من فرتيت يقال إنهم مفترسون انتقاميون ويوجدون فى آخر القائمة [ص٢٣٧].

وقد كان خصى الرقيق هذا العمل الشائن من الأعمال اللاإنسانية التى ارتبطت بتجارة الرقيق. وقد قام الرحالة "بوركهارد" بدراسة دقيقة وصريحة له تناول فيها الأماكن التى كانتت تجرى فيها عملية الخصى والقائمين بها، وأعمار الأولاد من الرقيق الذين كانت تجرى لهم، والأسعار التى كانوا يباعون بها بعد أن تتم فيهم العملية، ومدى الإقبال على شرائهم، وقد جاء فيها "لا يجلب عبيد مخصيون إلى شندى. وبرقو إلى الغرب من دارفور هى البلد الوحيد فى غرب السودان الذى يخصى فيه الرقيق وعدد هؤلاء المخصيين قليل. والقليل منهم يرسل إلى مصر عن طريق دارفور. والباقى يرسل كهدايا يقدمها ملوك السود (الزنوج) للمساجد الكبيرة فى مكة والمدينة عن طريق سواكن. والمصنع الكبير الذى يمد جميع بلاد تركيا وأوربا وجزء كبير من تركيا آسيا بهؤلاء الحراس لأخلاق المرأة يقع فى قرية زاوية الدير، وهى قرية تقع بالقرب من أسيوط فى مصر العليا يسكنها بصفة خاصة المسيحيون. والقائمون بعملية الخصى فى هذه البلدة إثنان من الرهبان القبط تحميهما الحكومة التى يؤديان لها ضريبة سنوية (عن هذا العمل) وهما بدورهما يتقاضيان أجراً على هذه العملية من أصحاب الرقيق. والجزء الأكبر يخصون حال وصول قوافل دارفور وسنار إلى أسيوط. والأولاد الذين يختارون لعملية الخصى تترواح أعمارهم بين ثمانية واثنتا عشرة سنة، لأنهم إذا تقدموا فى السن تكون العملية مخاطرة كبيرة. والشاب الذى تتم فيه العملية بنجاح يبلغ ثمنه ألف قرش فى أسيوط، ويكلف صاحبه حوالى ثلثمائة قرش لأسابيع قليلة. كما يدفع للقبطى الذى قام بالعملية من خمسة وأربعين إلى ستين قرشاً. وحوالى مائة وخمسين عبداً يخصون كل عام ومنذ عامين أمر محمد على بخصى مائتين من شبان دارفور الذين أرسلهم كهدية" [ص٣٢٩، ٣٣٠].

ويضيف "بوركهارد" "أن عادة الاحتفاظ بالمخصيين قد نقصت فى مصر كما هو الحال فى سوريا بشكل كبير. وفى مصر إذا استثنينا حرم الباشا وأبناءه، فإنه لا يوجد أكثر من ثلثمائه مخصى. وأما فى سوريا فهم لا زالوا أقل انتشاراً. ففى تلك الأقطار يوجد خطر على التظاهر بالغنى. فالشخص الذى يحتفظ بعدد من الرقيق النسوة وما يقتضيه من إجراء

لحراستهن يغرى رجال الحكومة بأعمال النهب والخطف والمخصيين البيض يندر جداً وجودهم فى المقاطعات التركية. وفى بلاد العرب يوجد عدد كبير من المخصيين الهنود. وكثير من العبيد يخصون فى الهند. وجميع المخصيين تقريباً فى أسيوط يرسلون إلى القسطنطينية وآسيا الصغرى" [ص٣٣٠، ٣٣١]. ويصف "بوركهارد" كيفية نقل الرقيق من شندى إلى مصر أو سواكن، وكذلك بين أقاليم السودان فى الداخل بقوله "فى أثناء الطريق يسمح للرقيق الصغار فى السن وكذا الإماء بركوب الإبل، بينما الآخرون يقومون بالرحلة على الأقدام. وإذا حدث أن جملاً تعطل فى الطريق، فإن صاحبه يحمل العبيد بما كان يحمله الجمل من أثقال"[ص٢٣٣]. ويصور المشاعر التى كانت تجيش فى نفوس الرقيق الذاهبين إلى مصر تصويراً مثيراً يقول فيه "ويسود الرقيق الذاهبين إلى مصر الذعر من تلك البلاد والسكان البيض. فالرأى السائد فى بلاد الرقيق الأسود أن ولد الريف كما يُسمى المصريون هناك يلتهمون العبيد الذين ينقلون إلى هذه الجهات من أجل هذا الغرض. وطبعاً يعمل التجار كل ما فى وسعهم للقضاء على هذا الاعتقاد. ولكن على الرغم من محاولاتهم، فإنه لن يزول من عقول الرقيق. وهناك شىء آخر مرعب يسيطر على عقولهم، وهو أنهم يعتقدون أن هناك حيواناً صغيراً يقفز سيعيش على أجسامهم ويمتص دماءهم، ولا يتركهم لحظة فى راحة. ويقصدون بهذا الحيوان الصغير البرغوث غير المعروف تماماً فى الأجزاء الداخلية من السودان. وأكثر القصص غرابة تقال عنه ويرويها سكان تلك الجهات للتدليل على أفضلية بلادهم عن البلاد المصرية. ومهما يكن فهناك ما هو أكثر رعباً وخوفاً عند وصولهم إلى مصر. وإن هذا الشعور له تأثير قوى بصفة خاصة على عقول الرقيق الصغار" [ص٢٣٤].

وضعية الرقيق:

وهناك إلى جانب عملية خصى الرقيق الشائنة وجدت مآس-أخرى أخلاقية فى تجارة الرقيق حدثنا عنها الرحالة "بوركهارد"بقوله: "إن الفتيات من الرقيق يزيد سعرهن فى كل مكان بمقدار ٣٠٪ عن الذكور من نفس السن. والقليل من الفتيات من هؤلاء الرقيق ممن لم يتجاوز سن العاشرة من يصلن إلى مصر أو بلاد العرب محتفظات ببكارتهن. والشخصيات الكبيرة وكذا الأغنياء من هذه الأقطار يحرصون على عدم شراء البنات البالغات من التجار، إلا إذا أرادوا استخدامهن كخادمات، ولكن غالباً يشترون البنات الصغيرات السن، حيث يقمن بتربيتهن وسط نسائهم" [ص٢٣٥]. ويضيف: "أن العبيد الصغار يجرى شراؤهم تحت التجربة التى تكون مدتها يوما واحداً فى شندى، وفى مصر تمنح ثلاثة أيام. والبنات كثيراً ما يسلمن بهذه الطريقة للتجربة لمدة ليلة واحدة. والمشترى له حق إرجاع الفتاة بعد تلك المدة دون أن يدعى أى سبب أكثر من قوله أنه لا يحبها. وهكذا تتضاءل عناية المتوحشين وحرصهم على

المحافظة على شرف النساء . وبطبيعة الحال كلما مكثت هؤلاء النسوة بين يدى التاجر حصلن علي عادات أكثر فساداً . وفى بعض الأحيان يباع الشبان والشابات من الرقيق تحت شرط عدم إرجاعهم" [ص٣٣٦]. ويشير إلى شروط إرجاع العبد بعد شرائه قائلاً "وهناك عيوب خاصه إذا وجدت فى العبد الذكر، فإن المشتري له حق إرجاعه، حتى بعد مضى مدة علي شرائه. من هذه العيوب: التشخير فى الليل الذى يعتبر عيباً رئيسياً ، صك الأسنان بعضها فوق بعض فى أثناء النوم، وإذا كان يعاني أى مرض لم يشف منه تماماً أو لن يشفى منه فى أثناء وجوده تحت يد المشترى مثل الحمى المتقطعة والجرب وغير ذلك. وعند شراء العبد يلاحظ جيداً ويفحص إذا كان قد أصابه الجدرى من قبل أم لا ، فأولئك الذين لم يصابوا بالجدرى بعد يباعون بسعر أقل من الآخرين" [ص٣٣٦ ، ٣٣٧].

وهناك مسألة أخلاقية أخرى تناولها "بوركهارد" وهى موقف تجار الرقيق من اختلاط الذكور مع الإناث، وموقف بعضهم من نساء الرقيق بصفة خاصة. ويقول فى هذا الصدد "إن التجار يحرصون حرصاً شديداً على منع أى اتصال غير لائق بين الرقيق أنفسهم، فهم دائماً يفضلون الأولاد عن البنات ليلاً. وهذا الأمر لاتدفعهم إليه الغيرة بقدر ما يدفعهم إليه الحرص على مصلحتهم الخاصة، إذ أن الحامل من النساء تنقص قيمتها . وعلى الرغم من هذا الحرص، فإنه كثيرا ما يحدث هذا الأمر المحظور إذ لا بد من وجود علاقات ود ومحبة وغرام بين الفتى والفتاة. كما أن هناك رأياً واضحاً في البلاد التى تعم فيها تجارة الرقيق وهى أن الأنثى السوداء أكثر استعداداً للاختلاط مع ذكر أسود أكثر من شخص غريب. وإذا ثبت تحت هذه الظروف أن أنثى حملت، فإن صاحبها لا يدخر وسعاً فى إسقاطها (إجهاضها) فيجبرها على أن تتناول شراباً يساعد على عملية الإسقاط أو يقوم صاحبها بضربها بطريقة يقصد منها إجهاضها" [ص٣٣٧]. ويضيف "بوركهارد" "أن كثيراً من التجار يشغلون الإماء فى الدعارة ويقتسمون معهم ما يحصلن عليه من فائدة" [ص٣٣٧].

ويعدد "بوركهارد" الأمراض التى تصيب الرقيق عادة بقوله "والمرض الأكثر انتشاراً بينهم هى الحمى الملتهبة inflammatory fever التى يتعرض لها أيضا سكان شندى. والأدوية التى يستخدمونها هى حبس الدم علي الأرجل بالكئوس ومشروب مصنوع من نقيع التمر هندى. كما أن كثيرين منهم يشكون من مرض الصفراء الذى ربما راجع إلى إفراطهم فى استخدام شراب البوظة غير المختمرة تخميراً حسناً . وتعم البواسير ولكنها أقل انتشارا بين الرقيق من سكان الريف. والعلاج الوحيد الذى يعرفونه هو كيها بقطع من الحديد الساخن لدرجة الاحمرار. كذلك دودة الفرتيت أو دودة غينيا Guinea Worm المعروفة بين الرقيق والتجار السودانيين الذين يأتون إلى مصر العليا . ويبدو أنها تعم بكثرة فى السودان. وتوجد كذلك فى بلاد العرب، وهى تُرى خارجة من الذراع والصدر والركب، رغم أن المكان المفضل لها كما يبدو بطن الساق. والأشخاص الذين يصابون بها فى شندى أكثر ندرة من كردفان ودارفور. وأعداد ضخمة من الرقيق والتجار القادمين من كردفان ودارفور مصابة بها . وعلى

الرغم من أنها تحدث آلامها كثيرة، فإنها لا تمنع الذى يقاسى من الآمها من المشى حتى اللحظة الأخيرة من حياته. وبعض الناس يسعفهم حظهم السعيد فيكتشفون الدودة وهى تخترق الجلد. وحينذاك يصبحون قادرين بالصبر على جذبها خارجاً. وتكون قاتلة فقط عندما تدخل الدودة خلال الجلد، وحتى فى مثل هذه الحالة كثير من الناس يشفون. وفى كردفان ودارفور، يعزى هجوم دودة الفرتيت بوجه عام إلى طعام الحيوان المشتمل على الماء الذى يُشرب عقب سقوط الأمطار المبكر" [ص٣٣٩، ٣٤٠].

ويصف لنا "بوركهارد" معاملة أهل الشرق للرقيق بما يمكن أن يوصف بأنه إنصاف لهم مما يلصق بهم من هذه التجارة الشائنة، إذ يقول "والرق فى الشرق يوحى بالخوف والرعب الناتج عن مجرد الإسم أكثر من المعاملة الحقيقية التى يلاقيها الرقيق. فالذكور منهم يعاملون فى كل مكان معاملة تشبه إلى حد كبير معاملة أطفال العائلة. وهم أحسن حالاً من الخدم الأحرار. ويعتبر أمراً حقيراً أن يباع عبد بعد أن أقام طويلاً مع الأسرة وفى حالة عدم سلوك العبد سلوكاً حسناً، فإنه يرسل عادة إلى الريف ليعمل كعامل فى حقول سيده. أما النساء منهم فلا يواجهن الحياة بمثل ما يواجهها الذكور. إذ أنهن عموما يقاسين من غيرة سيداتهن. والرقيق لا يعاملون معاملة سيئة إلا على يد الجنود الأتراك فقط" [ص٣٤١].

ويحدثنا "بوركهارد" عن ظاهرة تجنيد الرقيق فى الجيش التركى فى مصر بقوله "إنهم (الضباط الأتراك) يشترون من مصر العليا الأولاد الرقيق الذين يدخلوهم فى خدمتهم. وعندما يصل هؤلاء الأولاد إلى سن معينة ويتعلمون اللغة التركية تعطى لهم الملابس والأسلحة مثل الجنود. ثم يدرجون فى قائمة الفرقة التى يرأسها سيدهم. وعندئذ يصرف الراتب الشهرى لعبيده من الحكومة، كما يفعل بالنسبة لكل واحد من الجنود الآخرين، لأنه طبقاً لأنظمة الجيش التركى يتسلم الضابط أو الأمباشى أجر العدد من رجاله الذين تحت إمرته، ثم يقوم بتوزيع هذا الأجر فيما بينهم. وهكذا يصبح نظام تسجيل العبيد فى خدماته الذى لا تعارض فيه الحكومة أبداً، مصدر ربح له. والأجر الذى يأخذه من الحكومة نظير خدمات هؤلاء العبيد تذهب إلى جيبه الخاص فى مقابل إرغامه على أن يقدم لهم المأكل والملبس. وبهذه الطريقة فإن أعداداً ضخمة من الجنود السود أدخلوا فى الجيش التركى فى مصر. وحتى محمد على باشا أخذ يفكر فى تنظيم جيش أفراده من العناصر السوداء وتدريبهم على النظام الأوروبى، ولكن عدم الرغبة فى هذا النظام الجديد من جانب ضباطه جعله، فيما يبدو، يترك مثل هذا الأمر. وفى الوقت الحاضر يشترى الضباط الأتراك فى مصر من ستمائة إلى ثمانمائة عبد سنوياً" [ص٣٤١].

ويمدنا الرحالة "بوركهارد" بإحصاء عن توزيع الرقيق فى مصر والسودان بقول فيه "يقدر فى المتوسط عدد الرقيق الموجود فى مصر بأربعين ألفاً، ثلثا هذا العدد ذكور والباقى إناث، وبالكاد تخلو قرية منهم. وكل شخص موسر يحتفظ بواحدة من الرقيق على الأقل. أثناء انتشار الطاعون (فى مصر) من ربيع عام ١٨١٥ توفر مايزيد على ثمانية الأف عبد فى القاهرة

وحدها . وفى اعتقادى أن الرقيق المصدر من السودان إلى مصر وبلاد العرب يقل عن عدد الرقيق الذى يحتفظ به مسلمو الأقاليم الجنوبية نفسها أو بمعنى آخر إذا قورن بالمجموع الكلى للرقيق الذين يجلبون سواء عن طريق الشراء أو عن طريق القوة من الشعوب الداخلية فى أفريقية. ففى بربر وشندى قلما يوجد منزل لا يملك واحداً أو اثنين من الرقيق، ودائما خمسة أو ستة منهم يتبعون نفس العائلة يشتغلون فى أعمال الحقل أو رعى القطيع.. الخ. والشخصيات الكبيرة والزعماء يحتفظون بعدد كبير منهم. وكلما اتجهنا جنوباً حتى سنار نجد أن هذا النظام ينتشر كما هو الحال غربا حتى كردفان ودارفور، وإلى الغرب حتى بورنو Bournou وجميع القبائل البدوية التى تعيش حول هذه الأقطار تحتفظ أيضا بعدد كبير من الرقيق وقد أكد لىّ التجار أن الرقيق فى هذه البلاد البعيدة أكثر وأوفر عدداً من شندى ذاتها" [ص٣٤٢، ٣٤٣]. ويستطرد "بوركهارد" قائلا "وهكذا فمن الثابت أن عدد الرقيق المجلوب نحو مصر وبلاد العرب وبربر يقل كثيراً عما يتبقى داخل حدود السودان وحسب مشاهداتى فى بربر وشندى فإن الرقيق من كلا الجنسين على ضفاف النيل من بربر إلى سنار لا يزيد على اثنى عشر ألفا، بينما عدد سكان دارفور الذى يبلغ مائتا ألف نسمة، حسب تقدير مستر برون Broune، من المحتمل أن يكون بينهم عشرون ألفاً من الرقيق. وجميع الروايات تؤكد أنه كلما تقدمنا بعيداً جهة الغرب فى البلاد الآهلة بالسكان من دار صليح Dar Saley، وبورنو Bournou، وباقرمة Bagerme، وممالك آفنو Afnou، الهوسة Haoussa، نجد أن نسبة السكان من الرقيق لا تنقص" [ص٣٤٣].

وأخيراً يحدثنا "بوركهارد" عن مجهودات أوروبا وبخاصة إنجلترا لإلغاء تجارة الرقيق حديثاً صريحاً يقول فيه "إن المجهودات المشكورة التى قامت بها أوروبا، وبخاصة إنجلترا لإلغاء تجارة الرقيق سيمتد تأثيرها المفيد بدون شك على بلاد الزنوج من إفريقية الغربية والجنوبية الغربية التى منها وحتى الآن يجلب الرقيق لإمداد تجار أوروبا، ولكن هذه المجهودات لا يبدو لها أقل أمل فى إلغاء تجارة الرقيق من إفريقيا نفسها. فإذا ما أقفلت جميع منافذ السودان أمام تجارة الرقيق ومنعت القوافل التى تستمر الآن فى الحركة التجارية مع بربرة Barbary ومصر وبلاد العرب من الحصول على الموارد البعيدة، فإن الرقيق سينتشر بوجه عام فى السودان نفسه. لأن هذه البلاد طالما يمتلكها المسلمون الذين ترغبهم عقيدتهم فى شن الحرب على الزنوج الوثنيين وتتطلب منهم حاجاتهم العائلية مورداً دائماً من الخدم والرعاة، ويعتبرون الرقيق كوسيلة للتبادل (للتعامل) مكان المال، وشغوفون بالحصول على هؤلاء الرقيق شغف الشعوب الأخرى فى اكتشاف المناجم الأفريقية، فإن الرقيق سيظل حتما قائماً فى قلب إفريقية، بل ولا ينقطع. إلا إذا امتلك الرقيق الوسائل التى تمكنهم من صد الهجمات ومقاومة جيرانهم المسلمين [ص٣٤٤].

مشاهدات "بوركهارد" فى إقليم عطبرة

بعد أن أنهى الرحالة "بوركهارد" زيارته لشندى غادرها إلى التاكا فى طريقه إلى سواكن. وفى طريقه من شندى إلى التاكا مر بوادى نهر عطبرة، حيث تعيش قبائل من البشارية من أشهرها قبيلة حمداب Hammadab. ومن ثم فقد أتيحت له فرصة الوقوف على أحوال هؤلاء البدو على الطبيعة. وكذا أمكن للرحالة "بوركهارد" أن يمدنا بمعلومات هامة عن قبيلة أخرى من أشهر القبائل الرعوية فى السودان الشرقى ومن قبل أمدنا كما قدمنا بدراسة مستفيضة ودقيقة عن العبابدة.

وصف الرحالة "بوركهارد" الطريق الذى اعتادت أن تسلكه قوافل التجارة من شندى إلى التاكا، وهو الطريق الذى سلكه هو نفسه مع قافلة عائدة إلى سواكن من شندى[ص٣٦٣]. وقد قدم لنا صورة حية عما شاهده على طول الطريق من مناظر طبيعية خلابة، إذ يقول "الطريق بين شندى والتاكا طريق كله تقريباً مطروق يمر فيه سكان عطبرة باستمرار يحملون قطيعهم إلى سوق شندى، كما يحضرون معهم إلى هذة السوق الحصر المصنوعة فى عطبرة من سعف الدوم. وعند نهر عطبرة توجد الأشجار على الجانبين. كذلك توجد النباتات اليانعة التى تدخل السرور على القلوب حتى قلوب تجار الرقيق المتحجرة. كما توجد أيضاً أنواع مختلفة من أشجار السنط وأشجار الدوم من أكبر الأحجام. ويجد الرقيق فى ثمار الدوم فاكهة يقبلون عليها إقبالاً شديداً. وتوجد أيضا أشجار النبق وأشجار النخيل التى تمتاز بارتفاعها وهى أكثر ارتفاعاً من النخيل المصرى. يضاف إلى ذلك مرعى طبيعى ينمو على تربة خصبة غنية تشبه التربة التى فى مصر. ويستطرد "بوركهارد" قائلا "كل ذلك يشاهده المسافر من شندى فى طريقه إلى« سواكن قبل أن يخوض نهر عطبرة. إذ على القافلة أن تخوض هذا النهر حتى تصل إلى البر المقابل لتستمر فى رحلتها. والخوض فى نهر عطبرة يستغرق مدة تقل عن نصف ساعة بدون صعوبة، فالمياه فيه تكاد تصل إلى فوق ركب الإبل. وتوجد على هذا الشاطىء المقابل قرية عطبرة وسميت بهذا الاسم لقربها من هذا النهر. وتظل فيها قوافل سواكن عادة بعض الأيام للراحة"[ص٣٦٨].

ويصف "بوركهارد" قرية عطبرة "بأنها تتكون من عدة صفوف غير منتظمة من الخيام المصنوعة من الحصر التى تعمل من اسعف الدوم. وتضم حوالى مائتى أسرة من البشارية. وهذا هو نظام السكن فى المناطق الصحراوية المطروقة بين مصر والسودان. والضأن والماعز النوبية تتميز بجلودها العادية. ولذلك فهى لا تمد السكان بالمواد الضرورية لصناعة أغطية الخيام من الصوف أو شعر الماعز، كما هو الحال عند البدو الشرقيين الذين

تورد لهم الحصر. وهذه الخيام المصنوعة من الحصر، تقام بحيث يكون السطح مائلا ليساعد على جريان مياه الأمطار عليها" [ص٣٦٨]. ويضيف: "أن عطبرة مقر زعيم قبيلة الحمداب Hammadab وهى غير حميداب Hameydab التى هى قبيلة من العبابدة. والحمداب إحدى القبائل القوية من الشعب البشارى" [ص٣٦٨].

وعن النشاط التجارى فى عطبرة يقول "بوركهارد" "إن من الملاحظ دائما أن عدداً قليلا من أهالى هذا المكان من يتاجرون مع شندى، فهم يظلون هنا فى انتظار وصول قوافل سواكن. وحال وصول خبر من الجهات المجاورة بوصول قافلة، فإن عدداً كبيراً من البشارية يأتون بالذرة والضأن والزبد واللبن ليستبدلوا بهذه السلع الدمور وأنواع العطارة، وبخاصة المحلب والقرنفل والبخور واللبان من العرب. ويندر أن تجد واحداً من هؤلاء السكان يفهم اللغة العربية ماعدا أولئك الذين يتاجرون مع بربر وشندى. بيد أنها مفهومة لدى جميع عبيدهم تقريباً، حيث يتعلمها الجزء الأكبر من هؤلاء العبيد وسط السكان الذين يقطنون على ضفاف النيل" [ص٣٧٠].

ويحدثنا "بوركهارد" عن الضريبة التى كان زعيم البشارية فى عطبرة يفرضها على قافلة سواكن عند وقوفها بعطبرة بقوله "وبعد أن تظل قافلة سواكن بضعة أيام فى عطبرة يقوم رئيس تلك القرية بجمع ضريبة المرور من كل شخص طبقاً لعدد عبيده.

إلى جانب اشتغال بدو البشارية فى إقليم عطبرة بالتجارة، حيث استغلوا مرور قوافل سواكن القادمة من شندى ببلادهم فى طريق عودتها إلى سواكن، وتبادلوا معها السلع والبضائع كما مر بنا، فإنهم اشتغلوا أيضا بالزراعة على ضفاف نهر عطبرة، وهو أمر غير مألوف، إذ من المعروف أن البشارية من القبائل البدوية المتأصلة فى البداوة. وقد وصف "بوركهارد" ظاهرة اشتغال البشارية بالزراعة بقوله: "إن كثيراً من قبائل البشارية رغم أنهم بدو لا يحتقرون الزراعة، فهم يترددون على ضفاف نهر عطبرة عقب الفيضان مباشرة ليزرعوا الذرة، ويظلون هناك حتى جمع المحصول [ص٣٧٤]. وعندئذ يرجعون إلي جبالهم. وفى أثناء الفترة التى تشتد فيها حرارة الصيف عندما يجف المرعى فى الصحراء ينزلون مرة ثانية، ليطعموا القطعان على جانبى مجرى النهر. وحالهم فى ذلك يشبه حال التركمان فى المنطقة المجاورة لطرابلس، حيث هم بدو ومزارعون فى الوقت نفسه" [ص٣٧١]. ويضيف: "أن الذرة وكميات صغيره من اللوبيا وأنواع من الفول تزرع فى الغابات المجاورة للنهر دون سابق إعداد للأرض. والسواقى غير معروفة، وامتداد الأراضى الخصبة على كلا الجانبين متساوٍ، ولكن لا يزرع شيء على الضفة الشمالية، بالنظر إلى غارات الجعليين على هذا الجانب. وفى السنوات التى لا يفيض فيها النهر على الجانبين يحصلون على مئونتهم من التاكا" [ص٣٧٢].

ويصف الرحالة "بوركهارد" ثروة البشارية الحيوانية بقوله "إن قطيع البشارية رائع جداً ووفير جداً. والإبل ترسل إلى الجبال القريبة، حيث تسقط الأمطار، لكى تتغذى على

العشب اليانع، كما أن بعض إبل القوافل تساق كل صباح إلى الغابات لتتغذى على أوراق أشجار السنط. وقطعان الضأن والماعز تتبع الإبل إلى الجبال. ويلاحظ أن كل خيمة تملك حمارين" [ص٣٧٣].

ويصف عادات البشارية بقوله: "إن البشارية فى عطبرة يشبهون جميع إخوتهم الآخرين من حيث أنهم عنصر رشيق يمتاز بالشجاعة، وهم دائما مسلحون، وقلما تخلو حياتهم من المنازعات، وتنتشر بينهم عادة السكر، كما هو الحال بين عرب شندى. يميلون إلى السلب والنهب. وهم قساة غدارون يميلون إلى الانتقام، لا يردعهم عن ذلك القوانين السماوية أو البشرية. وهم مسلمون، لكنهم لا يحافظون على تقاليد وشرائع العقيدة الإسلامية. وإتصافهم بعدم الكرم دليل قوى على أنهم عنصر إفريقى، فضلا عن عدم معرفتهم باللغة العربية. والحجاج من الزنوج الفقراء الذين يمرون بهذه المنطقة فى طريقهم إلى التاكا يشكون مر الشكوى من عدم شفقة سكان ضفاف نهر عطبرة" [ص٣٧١، ٣٧٢]. وفى وصف "بوركهارد" لطريق القوافل بين شندى والتاكا ماراً بعطبرة الذى سلكه برفقة قافلة لسواكن يشير إلى خطورة البشارية على هذا الطريق بقوله "وعلى هذا الطريق توجد طلائع قبائل البشارية والهدندوة، وهناك خوف دائم يعترى رجال القافلة من البشارية، حتى لو كان رئيس القافلة تربطه بهؤلاء البشارية صلة نسب" [ص٣٦٤]. ويحدثنا عن انتشار عادة الأخذ بالثأر بين البشارية التى وصفها بقوله: "إن عادة الأخذ بالثأر تبدو قوية وسط البشارية". كما وصف حالة العداء الدائم بينهم وبين جيرانهم "بأن قبائلهم فى حالة حرب مستمرة، وأن أعداءهم القوميين هم الشكرية على جانب والهدندوة على جانب آخر" [ص٣٧٤].

وقد كانوا مصدر قلق وإزعاج دائم لجيرانهم سواء من الشكرية أو الهدندوة بسبب حالة الحرب المستمرة معهم. وهو ما يفسر لنا براعتهم القتالية ووصف بوكهارد لهم "بأنهم دائما متسلحون" [ص٣٧١].

وصف قوز رجب (عام ١٨١٣):

وهى من المراكز التجارية فى إقليم عطبرة التى كانت تقف عندها قوافل التجارة القادمة من شندى وسنار فى طريقها إلى التاكا، حيث كان يعقد فيها سوقاً تعرض فيه بعض تلك القوافل ما تحمله من السلع والبضائع، ويتردد عليه سكان الجهات المجاورة من الشكرية والهدندوة والبشارية ليبادلوا بما لديهم من السلع والمنتجات الزراعية والحيوانية. وقد أمدنا "بوركهارد" بمعلومات هامة عن قوز رجب [ص٣٧٩، ٣٨٢]. يقول فى وصف قوز رجب "إنها تقع على الطريق المقابل لطريق التاكا على الضفة الأخرى المقابلة لنهر عطبرة على سهل رملى على مسافة ربع ميل تقريبا من الضفة الشمالية للنهر. وسميت قوز

لموقعها وسط الرمال".

ويصف سكانها بقوله "إنه يقال أن سكانها خليط من العرب والبشارية والهدندوة والجعليين والشكرية الذين استقروا هنا بصفة خاصة من أجل الأغراض التجارية. ولا تحتل الزراعة جزءاً من أعمالهم، وإنما يجلبون الذرة من المركز المجاور لتاكا. ويملكون القطعان التى ترعى فى الصيف على ضفاف النهر، وفى الشتاء داخل الصحراء" [ص٣٨٢، ٣٨٣]. ويضيف "أن قوز رجب تخضع لسنار ورئيسها مثل رئيس شندى من عائلة ولد عجيب. والسكان مستمرون فى نشاطهم التجارى مع سنار وشندى. وفى بعض الأوقات يزورون الدامر، حيث يبيعون قطعانهم كما هو الحال فى شندى" [ص٣٨٣]. ويصف "بوركهارد" النشاط التجارى فى سوق قوز رجب بقوله "ويعقد فى قوز رجب سوق تجد فيه القوافل التى تمر على هذا الطريق مكانا مناسباً لعرض بضائعها. ومن ثم فهى تعبر النهر لأجل هذا الغرض...، بل إن البشارية يعبرون النهر بمجرد أن يعلموا بقدوم قافلة على البر المقابل فى الطريق إلى التاكا" [ص٣٧٩، ٣٨١].

ويصف "بوركهارد" أهمية طريق قوز رجب التجارى بالنسبة لبعض قوافل سواكن التى تفضله عن الطرق الأخرى قائلا "إن القوافل القادمة من سواكن إلى سنار التى لا ترغب فى المرور بعطبرة أو شندى تأخذ طريق قوز رجب التى تتقدم منها رأسا إلى سنار عبر الصحراء. والطريق مرغوب فيه خلال فصل الصيف الحار، لأن بدو الشكرية يحلون فيه خلال الشتاء، ويجعلون السير فيه خطراً. وعلى الرغم من الجدب الذى ينتشر فى هذا الطريق صيفاً، مما يجعل السفر فيه أمراً صعباً جداً على الرقيق، فإن التجار يفضلونه عن دفع النفقات التى تتطلبها الإقامة فى شندى أو دفع ضرائب المرور فى عطبره" [ص٣٨٣].

مشاهدات "بوركهارد" فى إقليم التاكا

إقليم التـاكـا من أقاليم السـودان الشـرقى الواسـعة التى نالت شـهـرة كبيـرة فى البلاد السودانية وخارجها فى شبه الجزيرة العربية، بما كانت تمد به هذه البلاد من محصول الذرة الوفير التى اشتهرت بإنتاجها. كذلك شهرتها بثروتها الحيوانية الضخمة من الماشية والإبل والأغنام. فضلاً عن سكانها من الهدندوة الذين عرفوا بأنهم أكبر القبائل البدوية فى شرق السودان وأشدها بأساً.

ويصف "بوركهارد" إقليم التاكا بقوله: "إن بلاد التاكا أو كما يسميها سكانها بالقاش تمتاز على جميع المناطق بخصوبتها الزائدة. وتمتد فى اتجاه الجنوب الشرقى بمسيرة ما يقرب من ثلاثة أيام طولاً ويوم واحد عرضاً. وجميعها تسكنها قبائل جزء منها مستقر، وجزء آخر من البدو الرحل، وعلى مسيرة يوم فى الاتجاه الجنوبى الشرقى، من فيليك وهى محلة للهدندوة، تبدأ محلات البدو الذين يعرفون باسم المبليكناب Melikinab. وعلى مسيرة يوم من المبليكناب تبدأ حدود قبيلة الحلنجا التى تنقسم إلى مجموعتين عليا وسفلى، الأولى تقطن على مسيرة يوم وراء الأخرى. والتاكا جزء من بلاد الحلنقة التى يعرف سكانها باسم البجاوية التى تشمل حوض نهر العطبرة من قوز رجب وتمتد إلى الجنوب حتى مرتفعات الحبشة، بينما تكون سلسلة المرتفعات التى تسمى لنجاى Langay حدود البجا شمالاً. وهذه الحدود يدخل فى نطاقها كثير من الصحارى والمناطق التى تتميز بكثرة تلالها"[ص٣٨٧]. ويصف السطح ونظام الأمطار فى التاكا بقوله "والتاكا ذاتها رغم كل ذلك بلاد كلها مسطحة أو منخفضة نوعا ما تحدها شمالاً وجنوباً الصحارى. وفى الجنوب الشرقى تحدها سلسلة المرتفعات المعروفة باسم النقب Nageyb وهى موازية للبحر الأحمر. وترجع خصوبة التاكا وعمرانها بالسكان إلى فيضانها المنتظم فى أواخر شهر يونية، ولكن لا يتأخر إلى شهر يولية لأن ميعاده ثابت، كما هو الحال فى فيضان نهر النيل، وهو عبارة عن سيول ضخمة تغطى كل سطح الأرض بصفحة من الماء يختلف عمقه من اثنين إلى ثلاثة أقدام. وتلك السيول يقال إنها تتقدم فى السهل الشرقى عقب الفيضان على الإقليم، ولكن المياه تظل إلى ما يزيد على الشهر فى أرض التاكا. والمياه عند انسحابها تترك طبقة سميكة من الغرين على سطح الأرض يشبه الذى يتركه فيضان نهر النيل. ومن المؤكد أنه بعد أن تمتص الأرض مياه الفيضان يقوم البدو مباشرة ببذر الحب على الضفة الغربية دون سابق إعداد. ويصحب الفيضان دائماً أمطاراً غزيرة تستمر عدة أسابيع أكثر من مدة الفيضان ولكنها تسقط متقطعة على فترات قصيرة بغزارة" [ص٣٨٧، ٣٨٨]. ويضيف "بوركهارد" أنه فى الشتاء والربيع يحصل سكان التاكا على حاجتهم من

الماء من الآبار العميقة، وهى وفيرة للغاية وتنتشر فى جميع البلاد ، ولكن البئر الواحدة تبعد عن الآخر مسافة كبيرة.

يقول "بوركهارد" فى وصف الثروة الحيوانية فى التاكا "إنه إلى جانب شهرة التاكا بالذرة، فإنها تشتهر أيضا بقطعان الماشية العديدة. والأبقار بصفة خاصة من النوع الجيد. وتستعمل كوسلية للمبادلة كما هو الحال فى كردفان ودارفور. وسعر البقرة السمينة يبلغ ٤ قطع من الدمور أو ستة وتسعين مداً من الذرة التى تساوى حوالى أردبين أو ثلاثين بوشل. وسعر الجمل القوي يزيد بمقدار الربع. وكما جرت العادة السنوية ترسل القطعان، عندما تكون الأرض جافة تماماً، إلى الصحراء الشرقية حيث تتغذى فى الجبال والوديان الخصبة، وحيث توجد ينابيع المياه. ولذلك لا تشاهد الماشية هنا خلال تلك الفترة إلا قليلاً. وعقب الفيضان تساق الماشية ثانية إلى السهل. وإبل التاكا تقدر تقديراً مرتفعاً، لأن هناك رأياً سائداً بأن الإبل التى تتغذى على الأغصان الصغيرة لأشجار السنط فى الغابات أقوى من الإبل التى تتغذى على طعام آخر. ويستعمل الأهالى جلد رقبة الجمل، بعد أن يخاط أحد طرفيها ويترك الآخر مفتوحاً، كحقيبة لنقل الحبوب فيها. وعدد الماشية فى الإمكان أن يكون أكثر مما هو عليه الآن لو لم تكن الحيوانات المفترسة التي تسكن الغابات تقضى على أعداد كبيرة من الماشية" [ص٣٩٠].

ويصف "بوركهارد" الحيوانات المفترسة التى تعيش فى غابات التاكا بقوله "وأكثر تلك الحيوانات المفترسة إنتشاراً فى تلك الغابات الأسد والنمر الأرقط. ويعمد الأهالى إلى حفظ الماشية مع عدد قليل من الضأن ليلاً فى حظائر تعترض مداخلها أكوام من الأشواك تكفى لأن تمنع الحيوانات المفترسة من الدخول إليها. ونادراً ما يقتل أسد أو نمر فى تلك البلاد إلا فى حالة الدفاع عن النفس، إذا أن الأهالى لا يملكون من الأسلحة أكثر من السيوف والحراب التى لا تقوى على قهر ملك الغابة الذى يعتبر تلك المنطقة المأوى المحبب إليه. ودائما يتعرض الأشخاص لفتك الأسود بهم. ويوجد فى الغابة أيضاَ الذئب والغزال والحيات والأفاعى" [ص٣٩١]. ويستطرد قائلاً "بالرغم من كل ذلك فإن أشد الحيوانات افتراساً هم سكان تلك الغابات من البجاوية وسكان البجا أنفسهم.

ويتحدث عن الصمغ العربى فى غابات التاكا ومدى الانتفاع به كسلعة تجارية، ويقارنه بأنواع الصمغ العربى الأخرى بقوله "ومن أشجار السنط يجمع الصمغ العربى الذى يباع فى سواكن لتجار جدة. ومن جدة يجد طريقه إلى مصر. ولكنه من النوع الذى لا يكترث به (أقل جودة). ومن المحتمل أن يكون ذلك راجعاً إلى رطوبة المنطقة لأن أجود أنواع الصمغ هى التى يحصل عليها فى الصحارى الأكثر جفافاً" [ص٣٩٢].

لعبت الذرة التى اشتهرت التاكا بإنتاجها دوراً كبيراً ورئيسيا فى تجارتها مع سواكن وأقاليم السودان الداخلية مثل شندى وسنار، حتى إنها كانت تمد عند حدوث المجاعة جميع بلاد وادى النيل من شندى إلى مقرات بالذرة. وفي ذلك يقول الرحالة "بوركهارد"

"إن ذرة التاكا تصدر إلى سواكن بكميات كبيرة لدرجة أن كثيراً من السفن المحملة بها يمكن أن ترسل فى أى وقت من هناك إلى جدة، حيث تشترى دائماً من أسواقها. والعلاقة بين التاكا وسواكن نشيطة للغاية. فنادراً ما يمر أسبوعان دون أن تأتى بعض القوافل من سواكن. ولأن الإبل رخيصة جداً فإن نفقات الانتقال قليلة نسبياً. ومع ذلك فسعر الذرة فى سواكن يزيد أربعة أضعاف سعرها فى التاكا. إذ أن اثنى عشر كيلاً تباع بدولار واحد. ولكن لا يزال السعر رخيصاً بدرجة تمكن التجار من أن ينقلوا الذرة إلى جدة، حيث يمكنهم بيعها بربح. وخلال المجاعة الأخيرة أمدت التاكا جميع بلاد وادى النيل من شندى إلى مقرات بالذرة. وتوجد أسواق عديدة فى هذه المنطقة شبيهة بسوق الهدندوة، وسوق الحلنقا Hallenga يقال إنه أكبر (من سوق الهدندوة) وحتى الذرة رخيصة هناك عما هو الحال فى ذلك الجزء من التاكا. وتوب الدمور كان سعره اثنين وثلاثين وستة وثلاثين مداً. ويذهب عدد كبير من التجار إلى هناك ليبيعوا ما لديهم من تبغ" [ص٤٠٠].

ويضيف "بوركهارد": "أن قوافل صغيرة تذهب بعض الأحيان رأساً من التاكا إلى سنار لأجل الحصول على الدمور والتبغ. فهؤلاء التجار يسافرون من أقصى الأطراف الجنوبية لقبائل الحلنقة على مسيرة يوم إلى قرية "مينان" Menan، ومنها على مسيرة ثلاثة أيام عبر صحراء دون ماء إلى نهر عطبرة، حيث يسكن عرب عمران ضفافه وهم يتكلمون العربية. ومن عطبرة يصلون بعد يومين فى الصحراء إلي عرب دبيالة Dhebdayle الذين يملكون قطعاناً كبيرة من الأبقار والإبل. ومن هناك على مسيرة يوم وسط الغابات والبقاع المزروعة إلى قرية دندر Dender، ومنها على مسيرة يومين آخرين إلى سنار، قاطعين فى الجملة من ثمانية إلى تسعة أيام بسير بطيء، ولكن ليس فى خط مستقيم وهذا الطريق يطرقه الحجاج الزنوج كثيراً" [ص٤٠٠، ٤٠١]. ويصف أهمية المكانة التى احتلتها ذرة التاكا فى تجارتها مع سواكن وشندى بقوله: "إن القوافل الذاهبة إلى سواكن والقادمة من شندى عندما تمر فى هذا الطريق بالتاكا تحرص على استبدال جميع بضائعها بالذرة التى تشتهر بها التاكا، وتحمل إبلها بهذه الذرة إلى أقصى ما تستطيع حمله. وعند رحيل تلك القوافل من التاكا يلحق بها عدد كبير من سكان التاكا نفسها، ومعهم أحمال الذرة، كما يلحق بها أيضاً الحجاج من الزنوج" [ص٤٠٣]. وأخيراً يحدثنا "بوركهارد" عن عامل هام ربما أسهم فى تنشيط التجارة بين التاكا وسواكن عبر عنه بقوله "إنه لا تدفع ضرائب مباشرة هنا (فى التاكا)، كما أن أهل التاكا لا يدفعون ضرائب فى سواكن. وكل مايحدث فى التاكا بخصوص أمر الضريبة هو أن الرئيس عادة يكرم وفادة التجار بتقديم الذبائح لهم. وفى مقابل هذا الكرم يضطر تجار القافلة لأن يقدموا هدية لذلك الرئيس من فردة الدمور تعادل حوالى اثنى عشر كيلا من الذرة عن كل عبد فى القافلة بما يفوق أصناف قيمة تكاليف الوليمة التى يقوم بها هذا الرئيس لأولئك التجار" [ص٤٠٣].

سكان التاكا من الهدندوة

لقد خص الرحالة "بوركهارد" الهدندوة، باعتبارهم أقوى القبائل البجاوية التى تقطن إقليم التاكا، بدراسة خاصة تناول فيها أصلهم ونظم معيشتهم وبيوتهم ومعسكراتهم وخيامهم، حيث جمعوا بين الزراعة والرعى، وكذلك خصالهم وطبائعهم وعاداتهم وتقاليدهم وأخيراً نشاطهم التجارى.

يقول: "إن بدو الهدندوة من سكان التاكا ينتمون إلى نفس النسب الذى ينتمي إليه شعب البشارية وجميع النوبيين الشرقيين الذين لهم نفس الملامح واللغة والأخلاق والعادات. وهم أقوى القبائل الأربع التى تسكن فى التاكا. وجميع هؤلاء السكان جزء منهم مزارعون وجزء آخر بدو. ولكل قبيلة قريتان من القرى الكبيرة مبنية فى الصحراء علي حافة الأرض الزراعية، حيث يوجد بعض الأهالى بصفة دائمة، ويأتى إليها جميع السكان عدا أولئك الذين يرعون الماشية داخل الصحراء أثناء موسم الأمطار. وعندما تنقشع المياه ينتشر البدو بعد ذلك على جميع المنطقة ضاربين الدوارات أو الخيام فى تلك الجهات، حيث يأملون أن يجدوا فيها أجود المراعى. ويتنقلون من شهر لشهر تقريباً، حتى تجفف الشمس المراعى. والمقيمون فى القرية يزرعون أثناء ذلك الأرض البعيدة عن الصحراء المجاورة" [ص٣٩٢].

ويصف "بوركهارد" نظام سكنى الهدندوة الملائم لنظم معيشتهم التى جمعت بين حياة البداوة والاستقرار قائلاً "ومعسكراتهم تتكون من ألواح مصنوعة من الحصر كما هو الحال فى عطبرة. وتوجد أيضا ألواح قليلة من الجدران المبنية من الطمى وتشبه الأكواخ الموجودة على ضفاف النيل، ولكن أصغر منها. ورغم كل ذلك فإنهم حتى المستقرين منهم، يفضل الجزء الأكبر منهم السكنى فى الريف المكشوف تحت الظلال عن السكنى فى تلك المساكن. والى جانب القرى التى سبق وصفها توجد قرى أخرى داخل المناطق الخصبة تبني على البقاع الرملية المنعزلة تشبه الجزر المرتفعة فوق المستوى العام. ولا توجد برك أو مستنقعات مائية فى التاكا" [ص٣٩٢، ٣٩٣]. ويصف نظام الحلة (القرية) عند الهدندوة بقوله "إن الحلة تتكون من مئات الخيام التى تنقسم إلى دواوير ودوائر يفصلها بعضها عن بعض أسوار أقل ارتفاعاً من السور الشوكى العام الذى يحيط الجميع. وفى كل مكان فى التاكا، كما هو الحال فى شندى وعطبرة، توجد أعداد عديدة من أكواخ البوظة، وعدد كبير من النساء المشاعة اللائى يقضى أكثر تجار سواكن احتراماً، مع بعضهن جانباً من وقتهم. والزبد النيئة من البقر طعام مفضل. وعندما تكون القطعان قريبة من الحلة، فإن الأهالى يعيشون كلية تقريباً على ألبانها، وبخاصة لبن الجمل الذى يشربونه باستمرار" [ص٣٩٣، ٣٩٤].

ويصف "بوركهارد" طبائع وتقاليد الهدندوة وصفاً دقيقاً معبراً يقول فيه "والهدندوة

يظهرون بعضهم البعض كرماً عظيماً، ولكن لا يظهرون أى رحمة أو شفقة على الغرباء، على الرغم مما هو معروف عن البدو من إمدادهم الغريب بما يحتاجه. ففى السوق لا يعطون الغريب حتى نقطة ماء دون مقابل لها من الذرة. ولذلك فإن الحجاج من الزنوج الذين يمرون خلال التاكا فى طريقهم إلى مكة يشكون مر الشكوى من حاجتهم إلى من يجود عليهم. وسكان التاكا مشهورون بعدم كرمهم لعدم إيمانهم" [ص٣٩٤، ٣٩٥].
ويواصل وصفه لطبائع وتقاليد الهدندوة قائلاً : "إن الهدندوة يعيشون فى شغب مستمر بعضهم مع بعض، لا يؤدى إلي عداوة سافرة، وإنما يتخلله نوع من الغدر والخيانة، إذ يحاول كل فرد أن يفاجيء خصمه ويقضى عليه بالحيل. وحتى فى معسكراتهم تجدهم مسلحين بالحراب والسيوف والدروع. وعندما يذهبون إلى مكان يذهبون إليه عادة فى جماعات. ودائما تحدث حوادث قتل واغتيال والغدر هنا لا يعتبر جريمة أو عمل شائن. فالهدندوة لا يخجلون من الافتخار بعدم إيمانهم. فالرجل منهم قلما يرتاب لقتل رفيقه فى الطريق من أجل أن يمتلك لنفسه أتفه السلع قيمة، إذا وجد أملاً فى الإفلات من العقاب. ولكن عادة الأخذ بالثأر أو الدم تبدو قوية. كما إنهم يميلون إلى السرقة، حتى ليرى الناس السارق وهو يسرق دون أن يعترضوا سبيله. والتجار دائماً يشكون من غارات السلب والنهب التى طبع هؤلاء الهدندوة عليها" [ص٣٩٥، ٣٩٦].

بالإضافة إلى اشتغال الهدندوة بالرعي والزراعة، فقد اشتغلوا بالتجارة وساعدهم على ذلك موقع بلادهم كملتقى للقوافل التجارية بين سواكن على ساحل البحر الأحمر، وشندى وسنار فى الداخل. ومن هنا فقد وجدت "سوق الهدندوة" وهى قرية عرفت بهذا الاسم وكان يعقد فيها السوق، حيث تعرض فيه أنواع السلع والبضائع التى تأتى بها القوافل من شندى وسنار وسواكن، إلى جانب السلع الأخرى التى اشتهر البدو وسكان الريف فى التاكا بإنتاجها. ويصفها "بوركهارد" وصفاً دقيقاً يقول فيه "هناك قرية يطلق عليها اسم "سوق الهدندوة" وهى مقر الزعيم الكبير لهدندوة التاكا.

وعلى الرمال خلف القرية تعقد السوق مرة فى الأسبوع. وتردد عليه أعداد كبيرة من البدو وسكان الريف، وبعض تجار القوافل التى تمر فى ذلك الطريق لبيع السلع المختلفة التى كانوا قد أحضروها من شندى مقابل الذرة التى يعم تداولها هنا. والبدو الذين يأخذون الدولارات من النادر وجودهم فى التاكا. ولكن الدمور عليه إقبال شديد. والسلع التى يحضرها إلى السوق سكان الريف إلى جانب الماشية هى أنواع مختلفة من الحصر والسلات المصنوعة من الغاب ومن سعف الدوم الذى يعم أودية الصحراء إلى الشمال والشرق، والأوانى الفخارية للطبخ، وأباريق الوضوء التى يشتريها سكان سواكن ويحملونها إلى الحجاز. وجميع الزنوج والحجاج الفقراء يحملون تلك الأباريق للوضوء اليومى، وسرج الإبل، والحبال وجلود الحيوانات والقرب المصنوعة من الجلد، وقليل من الدجاج والطيور التى توجد فى جميع جهات النوبة، ولحم الجمل المقدد، والنبق الذى

يصنعون منه نوعاً من المادة الهلامية اللزجة ذات الطعم المقبول، والتامة Tama التى تشبه القرفة ولها نفس الطعم، وتستعمل فى ذات الأغراض التى تستخدم فيها. وفى المرتفعات جنوب الحلنجا تسمى "باسينا" Basinya والصمغ العربى والقرض من أشجار السنط، ويستعمل فى دبغ الجلود، والملح ويؤتى به من سواكن وهو يمثل سلعة هامة. وريش النعام الأسود وهو ريش الإناث من النعام، والريش الأبيض بصفة خاصة لتجار سواكن. ويأتى إلى السوق بعض الحدادين، العبد ينفخ فى الكور بينما السيد يقوم ببرى السكاكين ورءوس الحراب والسلاسل الحديدية التى تستعمل لربط أرجل الإبل الأمامية خلال الليل" [ص٣٩٨، ٣٩٩]. "والسلعة الرئيسية التى يبيعها التجار الأجانب هى التبغ من إنتاج سنار وفارس واليمن. والتبغ الذى يأتى من الأقطار الأخيرة يسمى هنا "السوراتى" Suratty، ومن النوع ذات الأوراق الصفراء الذى يطلق عليه اسم "تمباك" Tombac فى الحجاز ومصر، والذى يدخن فى الشرق فى بيبة فارسية أو نارجيلة، ولكونه أكثر قوة من التبغ السنارى يفضل فى التاكا، وبخاصة من أجل صناعة النشوق الذى يغرم به السكان. والنشوق يجهز بواسطة النطرون أو الملح مع التبغ المسحوق. ولا تخلو امرأة أو رجل من حمل النشوق. وتجار سواكن يبيعون هنا أيضا النطرون الذى يحملونه من شندى، وكذلك أنواع التوابل وبخاصة القرنفل الذى يكثر عليه الطلب وسط الحلنجا، والبخور والخرز، والمصنوعات الحديدية. ولكن السلع الرئيسية هى التبغ والدمور والقرنفل. وتؤخذ الذرة مقابل تلك السلع[ص٣٩٩، ٤٠٠].

التكارنة وطرق الحج إلى مكة

هناك موضوع هام لم يشأ الرحالة "بوركهارد" أن يترك الحديث عن إقليم التاكا بالسودان الشرقى دون أن يتناوله بالبحث والدراسة، وهو موضوع التكارنة المسلمين من غرب السودان الذين اعتادوا السفر إلى مكة للحج أو للعلم كل عام. ولقد لفت نظره فى أثناء زيارته لإقليم التاكا عام ١٨١٣ قدوم أعداد كبيرة من هؤلاء التكارنة إلى الإقليم، ليرافقوا قوافل سواكن عند مغادرتها التاكا فى طريق عودتها إلى سواكن على ساحل البحر الأحمر، ومنها يعبرون البحر إلى جدة فمكة. كذلك أشار إلى ما كان يرويه أولئك التكارنة من شدة معاملة الهدندوة والبشارية لهم أثناء مرورهم ببلادهم وهم فى طريقهم إلى سواكن. على أن "بوركهارد" فيما يبدو لم يقنع بمثل تلك المشاهدة أو الإشارة، وإنما قام بدراسة لهؤلاء التكارنة المسلمين تتبع فيها مواطنهم الأصلية فى غرب السودان التى كانوا يسافرون منها إلى مكة للحج أو للعلم. وهى أماكن وإن لم يكن قد قدر له زيارتها فى رحلته بالسودان، إلا أنه دوّن الكثير مما سمعه أو تحرى عنه خاصاً بظروفها الطبيعية وحياة سكانها.

واهتمام "بوركهارد" بدراسة هذه الطائفة من الزنوج المسلمين والطرق التى كانوا

يسلكونها من بلادهم البعيدة فى غرب السودان إلى مكة والقاهرة للحج وللعلم، قد يعزى إلى إعجابه بهم وتقديره لتمسكهم بعقيدتهم وسعيهم لطلب العلم وتحملهم المشاق والصعاب لتحقيق غاية من أسمى الغايات وأنبلها، إذا قورنت على الأقل بالرحلات التجارية التى كان يقوم بها الكثير من سكان هذه البلاد سعياً وراء الكسب المادى. أو يعزى هذا الاهتمام إلى إعجابه بالمسلمين والإسلام بصفة عامة، وهو ما يتضح من شرح الظروف التى أحاطت برحلته فى السودان، إذ كان - كما قدمنا - حريصاً منذ البداية على تعلم اللغة العربية وآدابها، وعادات المسلمين وتقاليدهم، إلى حد الإتقان، وكذلك حرصه على أن يلم بتعاليم الإسلام وأن يتفقه فى العقيدة الإسلامية بحفظ آيات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة إلى الدرجة التى أثارت معها إعجاب وتقدير بعض العلماء المسلمين الذين التقوا به وناقشوه فى شئون اللغة والدين، وخرجوا من مناقشته بانطباع أنه مسلم متمسك بعقيدته وملم باللغة العربية. ولا عجب فقد حج هو نفسه إلى مكة مع جماعة من المسلمين فى نهاية رحلته فى شبه الجزيرة العربية وصار يطلق عليه لقب حاج. وعاش بقية حياته فى القاهرة مسلماً، حتى دفن فيها حسب التقاليد الإسلامية(١) [ص٢٩ - ٣٢].

يقول "بوركهارد" فى وصف التكارنة واتجاهاتهم الدينية والعلمية "إن كلمة تكارنة تطلق على الزنوج الذين يأتون من الغرب (السودان الغربى) طلباً للعلم أو للحج. فبعد أن يتقدموا بعض الشيء فى مدارس بلادهم (حيث توجد المدارس فى جميع البلاد الإسلامية فى إفريقية يتجهون إلى مكة من أجل الحج أو لدراسة القرآن وتفسيراته فى هذا المكان، أو إلى المدينة أو إلى القاهرة من أجل هذا الغرض. بيد أن الجزء الأكبر منهم يذهب لأجل الحج. ويوجد عدد منهم فى الأزهر. والقسم الأكبر من التكارنة الذين يزورون مكة يأتون من مدارس دارفور، وبخاصة من كنجارة Kondjara بجوار كوبة" [ص٤٠٦، ٤٠٧ بوركهارد]. ويضيف: "أن أولئك الذين من أقصى البلاد الغربية من بحر الغزال وباقرمة Bagerme يمرون بهذا الطريق وجميع الحجاج السود من الأقطار الواقعة إلى غرب باقرمه Bagerme من بورنو Bournou بعيداً حتى تمبكتو يسافرون إما مع قافلة فزان أو مع قافلة حجاج كبيرة من المغرب، أو يتقدمون عن طريق البحر من ساحل البربر Barbary. والدافع القوى لذلك هو الحصول على الثقة التى ينالها كل حاج فى موطنه". "إن بعض تكارنة دارفور وكردفان يملكون سلعاً وبضاعة كبيرة من بينها الرقيق، ولكن الجزء الأكبر منهم مجردون تماماً، ويعتمدون فى طريقهم إلى مكة أو العودة منها إلى بلدهم على الاستجداء وعلى عملهم البدوى فى أثناء الطريق"[ص٤٠٧].

ويصف "بوركهارد" نظام سفر التكارنة الجماعى بقوله "إن التكارنة نادراً ما يسافرون منفردين، إذ يكونون جماعات، تضم المجموعة الواحدة تقريباً ستة أفراد، وإذا سنحت الفرصة يتصلون ببعض القوافل فى الطريق أو يتقدمون نحوها بأنفسهم" [ص٤٠٧، ٤٠٨].

1- Boudge, The Egyption Soudan, its history and monuments R. P. 29 - 32.

"وطريق التكارنة المعتاد إلى مكة هو طريق أسيوط أو طريق سنار أو عن طريق شندى. وأولئك الذين من البلاد الغربية القصوى يتقابلون عند دارفور، ومنها يرحلون إلى أسيوط (والقافلة تحتاج إلى رأس مال كاف لشراء الإبل والمؤن اللازمة لرحلة عبر الصحراء). ومن أسيوط يتقدمون إلى جدة عن طريق القصير. والحجاج الذين يذهبون عن طريق سنار يأتون من كردفان ويسلكون ثلاثة طرق مختلفة:

الأول: داخل الحبشة عن طريق غوندار Gondar وإكسوم Axum إلى مصوع.

والثانى: حزاء ضفاف النيل من سنار إلى شندى.

والثالث: من سنار إلى التاكا عن طريق رأس الفيل، ومنها إلي بلاد الحلنقة، حيث يتفادون السفر عبر الصحراء. وأولئك الذين يسلكون الطريق الأول يشكون من سوء معاملة مسيحى الحبشة لهم، إذ لا يسمحون لهم على الإطلاق بدخول أى منزل من منازلهم أو حتى الحوش، وإنما يقدمون الطعام لهم أمام العتبة مثل الكلاب علي حد تعبيرهم. ومع كل ذلك يحصلون علي طعام وفير فى المساء. وفى مصوع يظلون بضعة أسابيع حتى يتمكنوا من كسب بعض المال عن طريق عملهم البدوى، يكفى لدفع ضريبة المرور فى البحر إلى ساحل اليمن القريب، حيث تبلغ دولاراً، أو إلى جدة حيث تبلغ دولارين. والمكان الذى اعتادوا التجمع فيه هو الحديدة ميناء اليمن، ومنها يتقدمون إلى مكة براً، حيث يمرون على قبائل البدو الكريمة فى مرتفعات الحجاز. ويقدر عدد الحجاج الزنوج الذين يسلكون هذا الطريق إلى مكة بحوالى مائة وخمسين أو مائتى شخص.

والطريق الثالث: يفضله جميع الحجاج القادرين على السير مزودين بجمل لنقل الماء والمئونة، ويكونون علي يقين من أن يجدوا فى التاكا بعد أن يمكثوا فيها فترة وجيزة، بعض التجارمن سواكن يرافقونهم إلى هذا المكان (سواكن)" [ص٤٠٨، ٤٠٩].

ويصف الطريق الذى يسلكه حجاج التكارنة أكثر من غيره، مشيراً إلي الأسباب التي تمكن وراء ذلك بقوله "إن الطريق المطروق أكثر من غيره هو من دارفور أو كردفان رأساً إلى شندى. ويواصل وصفه لذلك الطريق قائلاً "وعند الدامر يتفرع طريقان رئيسيان لحجاج التكارنة، فإما يتقدمون على جانب النيل تجاه مصر، أو يصعدون ضفاف نهر المقرن Mogran وعطبرة بعيدا حتى قوز رجب، ومنها يعبرون إلى التاكا ثم إلى سواكن"[ص ٤٠٩]. ويصف الطريق الأول الذى يتجه إلى مصر مشيراً إلى ما يلاقيه التكارنة من كرم المصريين ومقارناً بينه وبين الطريق الثانى بقوله "إن الطريق الأول طويل ولكن أقل تعبا، كما أنهم كلما اقتربوا من مصر كلما ازداد ما يصادفونه من كرم وسط سكان النيل. ويتعرض التكارنة لنهب الشايقية. وممتلكاتهم البسيطة، تكون فى مأمن من دارفور إلى شندى حيث تتولى الحكومة حمايتهم، ولكن من شندى يبدأون فى التعرض لمعاملة مختلفة. ففى أثناء وجودهم فى شندى يستبدلون عادة كل ما يمتلكونه بالذهب الذى في استطاعتهم أن يخبئوه بكل سهولة أكثر من أى سلعة أخرى. ولكن نظراً لأن هذا الأمر قد أصبح معروفاً عنهم، فبدو عطبرة والتاكا وكذلك الشايقية يقومون

بتفتيشهم تفتيشاً دقيقاً بحثا وراء ما يحملونه من ذهب، ولا يتركون وسيلة إلا ويستخدمونها لسلب ما معهم من مال بسيط أو ذهب قد يكون لديهم. ويعوض الشايقية نهبهم لهؤلاء التكارنه بأن يسلكوا معهم مسلك الكرم. ولكن بدو عطبره والتاكا مشهورون بميلهم للغنيمة إلى جانب ما اتصفوا به من البخل وخلق العقبات والصعاب أمام المسافرين الفقراء" [ص٤٠٩، ٤١٠].

أما الطريق الثاني الذى يتفرع من الدامر فيصفه بقوله إن الطريق الذى يطرقه الحجاج الزنوج (التكارنة) أكثر من غيره هو من الدامر عبر نهر المقرن إلى التاكا، ومنها إلى سواكن. ويبلغ عدد الذين يسلكون منهم هذا الطريق حوالى خمسمائة شخص. وكما سبق أن ذكرت فإنهم لا يسافرون أبداً في جماعات كبيرة، ولكن.. قليل منهم يمر عبر ضفاف النهر. وفى الدامر يشترون إذا أمكن الحمير ويحملونها بالذرة لتموينهم فى الطريق. ومن التاكا يتقدمون مع القوافل إلى سواكن" [ص٤١١، ٤١٢]. ويصف انتقال هؤلاء التكارنة بعد وصولهم إلى سواكن بحراً إلى جدة، مشيراً إلى ماقد تصادفهم من مشكلة دفع أجرة الانتقال بالسفينة لظروفهم المالية الصعبة، وكفاحهم الشاق من أجل التغلب عليها قائلاً "وفى سواكن ينتظرون سفينة تنقلهم إلى جدة[ص٤٦٢]. والأجرة المعتادة تتراوح بين دولار ودولارين. وقد يحدث فى حالة إصرار صاحب السفينة على مبلغ دولارين أجرة، أن تترك جماعة التكارنة سواكن بعد أن تكون قد وصلت إليها، قاصدة مصوع، حيث يكونون متأكدين من أن الأجرة بها دولادر واحد. ومن أجل هذه الفائدة (الفارق) يقطعون مسافة تستغرق ثلاثين يوماً على الأقل، وهم يعوضون نفقات تلك المسافة عن طريق العمل والاستجداء" [ص٤١٢]. ويعلق على ذلك بقوله "إن المسافة نادراً ما تدخل فى حساب أولئك الحجاج أو بدو تجار هذه البلاد. فهم لا يكترثون بالتعب إلا قليلاً، وكذلك الحال بالنسبة للوقت. شىء واحد فقط يجذب إنتباههم، هو الفائدة المباشرة وتجنب التكاليف" [ص٤١٢].

ويشرح "بوركهارد" النتائج المترتبة على الشدائد والمخاطر التى يواجهها هؤلاء التكارنة المسلمون فى رحلتهم الطويلة والشاقة إلى مكة للحج أو للعلم قائلاً " ويترتب على الشعور بالتعب، وما يصادفونه من المخاطر فى أثناء الرحالة أن عددا كبيرا من الحجاج ربما يصل إلى السدس يقع ضحية غيرتهم وحميتهم، والجزء الأكبر من الأمراض التى تهاجم هؤلاء الحجاج فى الطريق ناتجة من قلة ملابسهم، وكثير منهم يدفن فى الصحارى من الفاقة والتعب. والآخرون يقتلون ولكن جميع الذين يموتون فى الطريق يعتبرون شهداء"[ص٤١٢]. على أن التكارنة من غرب السودان لم يكونوا كلهم من الطبقات الفقيرة أو المعدمة فى أوطانهم، إذ يذكر "بوركهارد" "أ ن هناك بعض الرجال من التكارنة من ذوي القوة والثروة فى بلادهم، ولكنهم يظهرون بغير ذلك، لكى يتجنبوا الأخطار التى يتعرض لها الأغنياء فى هذه الرحلة" [ص٤١٣].

مشاهدات «بوركهارد» فى سواكن

سواكن هى المنفذ الرئيسى للسودان على ساحل البحر الأحمر الذى يربطه ببلاد شبه الجزيرة العربية، وبلاد جنوب وشرق آسيا، وبمصر عن طريق سواكن - السويس، وإن لم يكن هذا الطريق مألوفاً كثيراً إذا قورن بالطرق البرية الصحراوية المعتادة التى ربطت بين البلدين. وقد ربطت سواكن بأقاليم السودان فى الداخل. ومن سواكن كانت السفن تحمل السلع والمنتجات السودانية إلى جدة ومخا والحديدة فى اليمن وشبه الجزيرة العربية، وتعود بالسلع والبضائع التى اشتهرت بها هذه البلاد العربية وكذلك التى كانت ترد إليها من بلاد الهند وجنوب شرق آسيا وأيضا بعض السلع الأوروبية.

والباحثون والدارسون فى تاريخ السودان الحديث فى الفترة التى سبقت امتداد الإدارة المصرية إليه عام ١٨٢٠/١٨٢١م يعنون ببحث ودراسة السلطات الوطنية التى قامت فى أقاليم السودان المختلفة فى تلك الفترة وهى سلطنة الفور فى دارفور، وسلطنة الفونج فى سنار، ومملكة تقلى فى غرب السودان. وهى بحق جديرة بالبحث والدراسة لأنها تمثل الحكم الوطنى فى تاريخ السودان الحديث. بيد أنها لا تمثل تاريخ السودان كله فى تلك الفترة، إذ ينبغى أن يراعى أنه فى أثناء قيام هذه السلطنات الوطنية فى إقاليم السودان كان هناك الحكم التركى الذى امتد فى أوائل القرن السادس عشر إلى سواكن وهى ميناء سودانى وعلى أرض سودانية، ويعد المنفذ الرئيسى، إن لم يكن الوحيد تقريبا لتجارة السودان الخارجية على البحر الأحمر فى ذلك الوقت. (نسيم مقار: أحوال السودان السودان الاقتصادية تحت الإدارة المصرية من عام ١٨٢١ - ١٨٤٨م ، ص ٣٧٩ - ٣٨٠).

يصف "بوركهارد" طبيعة موقع سواكن الجغرافى بقوله "إن سواكن تقع عند طرف خليج ضيق عمقه حوالى اثنى عشر ميلاً وعرضه ميلين. وتوجد عدة جزر تجاه الخليج وعلى إحدى هذه الجزر تقع مدينة سواكن ذاتها. ويفصلها عن ضاحيتها التى تعرف باسم القيف التى تقع على الأرض الرئيسية ذراع من الماء يبلغ حوالى ٥٠٠ ياردة[ص٤٤٥]. والميناء يقع على الجانب الشرقى للمدينة، ويتكون من الجزء البارز من اليابس. وذراع البحر على الجانب الغربى لا يصلح لرسو السفن من أى حجم. والجزر كما فى المنطقة المجاورة رملية، ولا ينبت عليها شىء سوى قليل من الشجيرات أو أشجار السنط القصيرة"[ص٤٣١].

ويصف "بوركهارد" جغرافية الإقليم الذى تقع فيه سواكن والقبائل البدوية المختلفة التى تقطنه من الهدندوة والبشارية والأمرار ونظم معيشتها وعلاقتها بسواكن وسكانها من

الحدرب وصفا شاملاً يقول فيه "إن الماشية في سواكن كثيرة، وتحفظ فى المناطق المجاورة فقط أثناء الشهور التى تعقب موسم الأمطار مباشرة، عندما ينمو فى السهول المحيطة بعض المرعى. أما خلال الأشهر المتبقية من السنة، فترعى الماشية فى محلات الهدندوة في مرتفعات دياب Dyab أو لنجاى Langay. ويزرع البدو المجاورين وبعض الهدندوة من سكان القيف، عقب سقوط الأمطار، السهل الخصب المسمى طوكر الذى يقع على مسيرة يومين تقريباً من المدينة وليس بعيداً عن البحر. وهو سهل فسيح خصب تحيطه المرتفعات ويروى بمياه السيول، ولكن محصوله قليل إذا قورن باستهلاك المدينة"[ص٤٤٧ ، ٤٤٨]. ويمضى فى وصفه للمناطق القريبة من سواكن قائلاً "وعلى مسيرة خمس ساعات شمال سواكن تمتد سلسلة دياب تجاه الساحل. والجزء البارز منها يكون الأطراف الشمالية لحدود بدو الهدندوة. وفيما وراءها تبدأ حدود قبيلة الأمرأر وهم شعب مستقل ليس على اتصال بالشعب السابق الذى توجد «حلاته» على طول الساحل بعيداً حتى جزيرة جبال مكوار Djebal Mekawar. والأمرأر أصدقاء للهدندوة، ولكن على علاقات سيئة مع البشارية رغم أنه يقال إنهم يرجعون إلى أصل واحد".

ويحدثنا "بوركهارد" عن وجود طريق يربط بين سواكن وأسوان فى مصر العليا لم يكن مطروقاً كثيراً بسبب الخطر الذى يحيط به من جانب بدو البشارية. "يقال أن الطريق من سواكن إلى أسوان يستغرق من عشرين إلى خمس وعشرين يوماً. ولكنه غير مطروق. وفى العام الماضى (١٨١٣م) عندما قطع اللص نعيم الطريق المنتظم من شندى إلى مصر العليا، فكر بعض تجار سواكن من ذوى الأعمال فى رحلة إلى مصر، داخل بلاد البشارية أملاً فى الحصول على سعر جيد لإبلهم وعبيدهم وغيرها من السلع الهندية المختلفة. وعلى الرغم من أنهم كانوا في حالة حرب مع البشارية، فقد أخذوا معهم مرشدين اثنين من هذا الشعب، ليضمنوا أمنهم وسلامهم، وليرشدوهم الطريق. وفى الوقت نفسه دفعوا عوائد المرور التى عليهم أن يدفعوها لرؤساء البشارية. فى بلاد العرب يسافر التجار فى أمان بهذه الوسيلة عبر حدود القبائل المعادية التى لا تجرؤ على أن تلحق بهم أى أذى عندما يرافقهم بعض من أفرادها. لكن الإفريقيين أقل ذمة. ففى منتصف الطريق تقريباً أبيدت قافلة سواكن عن آخرها، ولم ينج منها شخص واحد وليس من المحتمل أن يحاول أحد المرور فى هذا الطريق مرة أخرى" [ص٤٤٩].

يحدثنا "بوركهارد" عن أوطان البشارية المجاورة للبحر الأحمر الذى يقع عليه هذا الميناء. وأوجه النشاط التى يمارسها هؤلاء البشارية، وعلاقاتهم التجارية بدراو وبمصر العليا وبقبائل العبابدة المجاورة يقول فيه "إن المقر الرئيس للبشارية كما يبدو فى علبه Olba وهى مرتفع بجوار البحر االأحمر ذات ميناء صغير يقع على مسيرة عشرة أو اثنى عشر يوماً من سواكن، وحوالى خمس عشرة يوماً من دراو بمصر العليا. ورؤساؤهم الأصليون يعسكرون فى أوديه هذا المرتفع الذى يقال إنه غنى بالمرعى دائماً وتقطنه قبائل كثيرة قوية. واسم المكان معروف جداً فى مصر العليا. والعبابدة كثيراً ما يذهبون

إلى هناك ومعهم الذرة والمنسوجات القطنية المصنوعة فى مصر. كما يزوره زعماء العبابدة من أجل جمع الضريبة الخاصة التى يدفعها لهم هؤلاء الجبليون من أجل السماح لهم يرعى ماشيتهم فى فصل المطر فى هذا الجزء من مرتفعات النوبة الشمالية التى يعتبرها العبابدة إرثاً لهم [ص٤٤٩- ٤٥٠].

ويصف "بوركهارد" ميناء علبة البشارى على ساحل البحر الأحمر وحركة التجارة فى السوق الذى يعقد فيه بقوله "إن علبة Olba تعد ميناء فى موقع (وسط) على ساحل أفريقية بين القصير وسواكن. والبشارية لهم سوق منتظمة هناك ترد إليه السلع من مصر العليا ومن سواكن مباشرة. وفى بعض الأحيان ولكن نادراً جداً تصل إليه قوارب صغيرة من بلاد العرب لأجل الحصول على جلود الحيوانات والزبد، لأن أصحاب القوارب يخشون غدر البشارية. ولذلك يندر أن يرحبوا بارتياد هذة السوق رغم ما يتيح لهم من أرباح عظيمة. ويقال إن الإبل متوافرة جداً هناك. والبشارية جميعهم تقريباً يعيشون على لبنها ولحمها. وهم لا يزرعون أى جزء من الأودية رغم أن النهيرات تجرى فى كثير منها. وقد ترتب على ذلك ندرة الذرة وارتفاع سعرها، وتأتى إليهم من مسافات بعيدة. والكمية التى تساوى دولارين فى مصر العليا تستطع أن تحصل بها على جمل جميل فى علبة" [ص٤٥٠].

كما يصف عناصر السكان المختلفة التى كانت تعيش هناك وقت زيارته بقوله "إن سكان سواكن مثل سكان جميع الموانىء يتكونون من عناصر متباينة. ومع ذلك فالطبقة الرئيسية (العنصر الرئيسى) واضحة، فأجداد العائلات الرئيسية من عرب سواكن أصلهم من مواطنى حضر موت وبصفة خاصة من مدينة شاهر Shaher وهى ميناء ذلك البلد العربى على المحيط الهندى. وبعضهم أتوا إلى هنا منذ قرن من الزمان، وإن كان البعض الآخر يقرر بأنهم وصلوا إلى سواكن عقب انتشار الإسلام. ومنهم أصبح يطلق على السكان المقيمين فى المدينة اسم الحدرب Hadherebe، وأصلها الحضرم أى سكان حضرموت" [ص٤٣٣]. ويستطرد "بوركهارد" قائلاً "إن هناك تمييزاً بين الحدرب Hadherebe الحقيقيين أو النازحين من مواطنى حضرموت والمقيمين الآخرين الذين يطلق عليهم سواكنى. فإلى الفريق الآخر ينتمى كثير من أفراد قبائل البدو من الهدندوة والأمرار والبشارية، وبعض الذين ينتمون إلى أصل تركى وعربى. وأولئك الذين من أصل تركى الجزء الأكبر منهم من الجنود الأتراك الذين نزحوا فى بداية القرن السادس عشر مدة حكم السلطان سليم العظيم، فقد أرسلوا إلى هنا عقب غزو هذا السلطان لمصر، وذلك من أجل احتلال سواكن وحمايتها، كما حدث فى احتلال أسوان وإبريم وصاى. ويوجد أيضا فى سواكن عدد قليل من التجار الأتراك وأصحاب السفن والمهاجرين، وهم أصلاً من أولئك الأتراك الذين نزحوا أخيراً. وقد نسوا لغتهم التركية منذ مدة طويلة. وهم الآن متصلون بصلة قرابة وعمل مع النازحين من سكان بلاد العرب الذين يكثر عددهم هنا، ويلبسون زى الحجاز، ولهم جميع عادات وأخلاق هذا القطر" [ص٤٣٣، ٤٣٤]. ويضيف

"إن اللغة البشارية تعم سواكن. ورغم أن اللغة العربية يفهمها كل شخص فى القيف، إلا أن لهجتها غير سليمة وينطقونها بلهجة جيدة، ولكنهم يتكلمونها كلغة قومية لهم" [ص٤٦٦].

أما عن طبائع وأخلاق السكان فيصفها بقوله "إن سكان سواكن يشاركون جيرانهم من سكان الصحراء تلك المساوىء (ضعف الإيمان والسكر والغدر) ويفوقونهم فى القسوة . . . وعدم استقرار أحوال حكوماتهم يُعد من الأسباب الرئيسية فى فساد أصلهم الطيب الذى ورثوه عن أسلافهم العرب. وهم يشتهرون فى كل مكان على ساحل البحر الأحمر بالغدر وينطبق عليهم مثل عرب يامبو Yembo "حتى ولو سقيتهم من ماء زمزم، فإنهم يتركونك تموت من الظمأ ولو كان بئرهم مليان". وفى سواكن لا يسود سوى قانون الأقوى. ومن المستحيل أن تقوم بعمل دون أن تشترى حماية بعض الحدرب الأقوياء"[ص٤٤٣، ٤٤٥]. كما تحدث كل يوم بعض المشاجرات الدموية بينهم والمجرم لا يؤنب أو يرذل، وإنما يفخر بنفسه وسط الناس أنه سفك دماً فى أثناء المعركة، أو أنه دفع مبلغاً من المال ثمنا لهذا الدم"[ص٤٤٥]. "إن إيمان أهل سواكن بالضيافة قليل، كما هو الحال فى التاكا. وأكواخ البوظة والعاهرات عامة، كما هو الحال فى أى جزء من النوبة Nubia" [ص٤٤٥].

ويصف الرحالة "بوركهارد" نظام المساكن فى سواكن بقوله "إن منازل المدينة المبنية على الجزيرة تتكون من طابق واحد أو طابقين. والجزء الأكبر من تلك المنازل فى طريق الهدم، بينما على العكس من ذلك منازل ضاحية القيف إذ هى فى تزايد سريع من حيث الحجم والسكان. وهى الآن أكبر من المدينة ذاتها" [ص٤٣٢]. ويواصل وصفه لنظام المساكن فى سواكن قائلاً "إن الأغا (الحاكم التركى للميناء) يقيم فى المدينة، ويطل منزله على الخليج تجاه البحر. ولا توجد هنا الوسائل أو المهارة اللازمة لإصلاح السفن إذا حدث فيها أى عطب." [ص٤٣٢]. ويقدر الرحالة "بوركهارد" عدد المنازل فى سواكن بحوالى ستمائة مسكن. ويقول "إن ثلثى هذا العدد فى حالة هدم. وفى ضاحية القيف توجد منازل قليلة مبينة من الحجر وهى ذات أبنية فسيحة. أما المنازل الأخرى فمصنوعة من الحصر" [ص٤٣١].

ويصف "بوركهارد" وسائل أهل سواكن للحصول على المياه اللازمة بقوله "إنه على مسيرة نصف ساعة من القيف توجد الآبار التى تمد سواكن والضواحى والسفن بالماء. ويبلغ عدد هذه الآبار حوالى اثنى عشر بئراً. والقليل منها طعم مائه مقبول. ولا يوجد فيها ما يحتوى على ماء عذب وتوجد فى المدينة أحواض لحفظ ماء المطر ولكنها مهدمة ولا يوجد من يتحمل نفقات ترميمها. وأولئك الذين يختصون بشئون التجارة البحرية وأعمال الشحن، وكذلك الذين على صلة بالحكومة (حكومة سواكن) يقيمون فى الجزيرة." [ص٤٣١، ٤٣٢].

يقول الرحالة "بوركهارد" فى وصف نظام الحكم والأوضاع السياسية فى سواكن "إن حكومة سواكن في يد أمير الحدرب Hadherebe الذى يختار من بين العائلات الأولى فى

القبيلة، وهي خمسة. ويطلق عليهم تمييزاً عن غيرهم لقب أورتيجا Ortega. وهو لفظ بشارى ومعناه الأشراف أو النبلاء. ولهذا الأمير حق حكم ضاحية القيف. ولكن سلطانه على البدو ضعيف رغم أنه يرأس اجتماعاتهم. وهو يتبع تبعية إسميه باشا جدة. بيد أن مسلكه يتوقف علي قوة أو ضعف رئيسه. فعندما تولي الشريف غالب،(١) وصار محصوراً من جميع الجهات بالوهابين كان الأمير مستقلا تماماً عن الشريف غالباً، حتى فتح محمد على باشا الحجاز، حينذاك دخل الأمير فى اتفاقيات مع الباشا تقضى بأن يستمد سلطته من حاكم جدة. ويعطى بصفة عامة سلطة جمع العوائد الجمركية فى القيف، وهى العوائد التى يفرضها الحدرب على القوافل القادمة من الداخل. ولم يكن يدفع شيئا من أجل هذا الامتياز للشريف لعدة سنوات. ولكن فى الوقت الحاضر يدفع لمحمد على باشا، خوفا منه، حق جمع العوائد مبلغا سنويا يقدر بأربعين اقة ذهب تقريبا أو ثمانمائة دولار سنويا"[ص٤٣٤، ٤٣٥].

"يمثل الحكومة التركية فى سواكن مأمور دار المكوس الذى يسكن فى الجزيرة. وهو يرأس المدينة ولكن تحد من سلطته قوة الحدرب. ويحمل لقب أغا. وقبل فتح محمد على لبلاد العرب كان الأغا شخصية محتقرة. وباشا جدة يعتبر أيضاً والى أو حاكم سواكن، وله حق إرسال من يمثله هنا. وهذا الحق لم يعارض فيه أهل سواكن. وعلى الرغم من تمسكهم بالتقليد الذى يقضى بتبعية سواكن لجدة، إلا أن لها باشا خاصاً بها ترسله القسطنطينية"[ص٤٣٥].

ويصف "بوركهارد" شخصية الأغا الذى يمثل الحكومة التركية فى سواكن وصفاً مثيراً يدعو إلى الرثاء إذ يقول "وليس لدى الأغا من الإشارة الملكية (الخاصة بالحكم التركى) إلا حذائه الأصفر التركي يضطر إلى لبسه مع الطاقية الصغيرة. وهذا يجعل ملبسه يختلف عن ملبس البدو. كما أنه مضطر إلى حلق ذقنه، ولديه اثنان أو ثلاثة رجال عند مقر إقامته كضباط أو جواسيس لمعرفة العدد المضبوط للرقيق والبضاعة التى تحملهاالقافلة. وهو لا يقيم فى القيف، ويختلف عن شيخ الحدرب الذى ليس لديه أعمال متصلة بالحكومة التركية، وإنما هو مجرد شخص يختار لإدارة الشئون الداخلية" [ص٤٣٥]. ويمضى فى وصفه قائلاً "والأغا إما يعاد تعيينه، أو يرسل واحد آخر بدلاً عنه كل عام. والأغا الحالى يسمي يمك. وهو من الحجاز. وقد كان والده من حجاج الموصل الذى استقر في الحجاز. وفي أثناء مدة حكم الشريف كان يمك Yemak بلياتشو البلاط وسمساراً فى سوق جدة. وعندما وصل محمد على، اتصل يمك بالأتراك العثمانيين عن طريق معرفته البسيطة بلغتهم. وبعد أن خدم الأتراك كوسيط وكجاسوس على الشريف عين فى منصبه الحالى.

(١) يلاحظ أن الدولة العثمانية حرصت علي بسط نفوذها علي الحجاز، حيث يوجد فيه الحرمان الشريفان في مكة والمدينة. ولكنها تركت الحكم الفعلي في يد الأشراف هناك. وقد كان الشريف غالب بين مساعد أميراً علي مكة (١٧٨٨ - ١٨١٤)، وقد نجح في أن يوطد أقدامه حتي أصبح صاحب النفوذ الفعلي في الحجاز دون الوالي العثماني. ولكنه لم يقو علي مقاومة حملة الوهابيين علي الحجاز ففر إلي جدة. وأخيراً تم الإتفاق علي أن يحتفظ الشريف غالب بالحكم شريطة أن يتبع المبادئ الوهابية في حكمه وظل الحال كذلك حتي بسط محمد علي باشا باسم السلطان نفوذه علي الحجاز بعد إلحاقه الهزيمة بالوهابيين وقد عين أحمد باشا يكن (إبن أخته) حاكماً علي الحجاز ومحافظاً لمكة.

وللأغا حق منح بعض الألقاب لخدامه البائسين. كما يوجد معه خمسة أو ستة من الجنود المرتزقة من اليمن، كما هو الحال عند شريف مكة وجميع الرؤساء فى بلاد العرب ويقوم الأغا بدفع أجورهم من موارده الخاصة. وهم يكونون الحامية الوحيدة فى سواكن. ومن ثم يمكننا الاعتقاد بسهولة أن النفوذ التركى لا يحظى هنا إلا باحترام ضئيل."

ويصور "بوركهارد"مدى ضعف الحكم التركى وعجزه فى سواكن بقوله "إنه منذ حوالى عشرين أو ثلاثين عاماً أرسل باشا جدة إلى هنا حوالى مائتى جندى تمكنوا من نهب منطقة القيف، ولكن سرعان ما حاصر البدو هؤلاء الجنود لبعض الوقت في منزل الحاكم، وكذلك الأبنية المجاورة له، ولم يسمحوا لهم بالتقدم، واضطروا فى الحال إلى أن يبحروا من حيث أتوا. وخلال مدة حكم الوهابيين سمح لسكان سواكن بالاتجار مع جدة، ولكن سعود زعيم الوهابيين الذى كان قد شاهد كثيراً منهم فى مخا، وقد دهنوا شعورهم بالشحم، أرغمهم على أن يغطوا رءوسهم بالمناديل مثل البدو العرب"[ص٤٢٦، ٤٥١، ٤٥١].

أما عن علاقة الأغا المقيم في الجزيرة بأمير الحدرب الذى يحكم منطقة القيف التابعة لسواكن، فيحدثنا عنها الرحالة "بوركهارد" قائلاً "ليس لدى الأغا وسائل أخرى لاستخدام سلطته البسيطة أكثر من أن تكون على وفاق مع الأمير الذى يسمح له الأغا أو يساعده فى جمع المبالغ من الأفراد الضعفاء في القيف، من أجل أن يحصل على مساعدة الأمير فى جمع الرسوم الجمركية على الجزيرة" [ص٤٣٥، ٤٣٦]. ويصف لنا "بوركهارد" نظام الرسوم الجمركية بقوله "خلال السنوات الأخيرة مارس الأغا سلطته فى تحصيل الرسوم الجمركية على التجارة البحرية (فى سواكن) ودفع سنوياً للخزانة فى جدة ٣٢٠٠ دولاراً لأجل هذا الامتياز. ومن المفروض أن يربح ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ دولاراً سنوياً عن هذا الطريق. وهذا المبلغ فى الإمكان مضاعفته إذ دفعت العوائد الجمركية بحزم وصرامة. ولكن لا يمكن الحصول من الحدرب، وهم أكثر الأفراد ثروة، إلا على الشىء القليل. والعوائد الجمركية تفرض علي البضائع الواردة، وبخاصة البضائع الهندية والتوابل المرسلة للأسواق السودانية، وعلى جميع الصادرات من السودان التى تنقل بالسفن إلى جدة لأجل الأقطار الأخرى، وتشمل بوجه خاص الرقيق والخيل والتبغ. ويدفع دولاران على كل عبد وثلاثة دولارات على الحصان. والذرة حرة لا تفرض عليها أى ضريبة، كما هو الحال بالنسبة للسلع التى تظل فى سواكن" [ص٤٣٥].

يصف "بوركهارد" النشاط التجارى لسكان سواكن بقوله: "ليس لدى سكان سواكن حرفة أخرى غير التجارة إما بحراً أو مع السودان. فهم يصدرون البضائع التى يتسلمونها من قارة إفريقية إلى جميع موانىء الحجاز واليمن جنوباً إلى مخا. ولكن بصفة خاصة إلى جدة والحديدة. ولهم فى جدة حى خاص بهم منح لهم، حيث يعيشون في أكواخ مثل التى فى القيف (بسواكن). وكثير من الحدرب البدو يقومون عقب زيارتهم لسنار برحلة إلى الساحل العربى. بيد أن الآخرين يبيعون بضائعهم الإفريقية للتجار فى سواكن الذين

بواسطتهم تصدر إلى بلاد العرب" [ص٤٣٩].

أما السلع والمنتجات السودانية التى كان تجار سواكن يصدرونها إلى بلاد العرب فيصفها "بوركهارد" بقوله "إنه إلى جانب السلع التجارية من شندى وسنار وهى الرقيق والذهب والتبغ وريش النعام، لا تترك سفينة تبحر من سواكن إلى أى جزء من ساحل بلاد العرب دون أن يملأ عنبرها بالذرة من التاكا. وهم يمدون تقريبا كل الحجاز بالقرب والحقائب الجلدية وجلود الحيوانات." وجلود البقر تستعمل فى بلاد العرب فى صناعة الصنادل. ولكن أجود أنواع جلود الحيوانات هى التى تأتى إلى الحجاز من مصوع. كذلك تصدر سواكن الزبد إلى جدة. وأثناء موسم الحج يعتمد كل من جدة ومكة اعتمادا أساسياً على سواكن. والزبد يستهلك استهلاكا عظيماً فى هذه الأماكن، حيث تستعمله جميع الطبقات، وعندما كنت فى جدة ارتفع سعر الزبد بما يعادل نصف سعره المعتاد، لأن سفينتين محملتين من مصوع باعت حمولتها فى اليمن بدلاً من أن تتقدم إلى جدة. كذلك الحصر المصنوعة من سعف الدوم التى تأخذ منها كل سفينة كمية تستعمل بوجه عام داخل الحجاز واليمن حيث تندر أشجار الدوم، وحيث لا يقبل على العمل اليدوى إلا قليل من الناس بحكم طبيعة حياتهم. وهى تصنع بواسطة البدو فى المرتفعات القريبة من سواكن.وأيضا السرمباق الذى يعم بكثرة ساحل إفريقية ويصدر إلى جدة. ويأكله بوجه خاص الأطفال والفقراء ومن المعروف أنه علاج جيد للدوزنتاريا" [ص٤٣٩، ٤٤١]. ويضيف قائلاً "والذرة والقرب والحصر تصدر أيضا إلى الحديدة فى اليمن التى هى سوق رئيسي للخيل التى يحملها تجار سواكن من البلاد الواقعة على النيل. وشريف اليمن شغوف بشراء فحول الخيل الإفريقية لتقوية فروسيته. والحصان الذى يساوى خمسة عشر دولاراً فى شندى يباع فى الحديدة بمائة أو بمائة وخمسين دولاراً . ولكن مخاطر النقل كبيرة[ص٤٥٧]. فكثير من الخيل تموت فى الطريق لحاجتها إلى العناية اللائقة على ظهر السفن الصغيرة. والهجن البشارية الأصل التى تعتبر من أجود الأنواع توضع على ظهر السفن الكبيرة وتحمل إلى جدة. وإذا وصل الهجين سالماً يباع بسعر يتراوح بين ستين وثمانين دولاراً، أو حوالى ثمانية أضعاف المبلغ الذى يدفع ثمنا له فى سواكن. ولكن نصف الهجن التى تبحر تموت فى الطريق. وأجرة شحن الهجين الواحد تبلغ عشرة دولارات" [ص٤٤١].

ثم يحدثنا "بوركهارد" عن السلع والبضائع التى كان تجار سواكن بشرائها من جدة لحاجة الأسواق الإفريقية فيقول "إن تجار سواكن يشترون من جدة جميع البضائع الهندية اللازمة للأسواق الإفريقية مع سلع الترف التى تحتاج إليها سواكن. ومنها الملابس وأدوات الزينة للنساء والأدوات المنزلية وأنواع المأكولات المختلفة مثل السكر الهندى وحبوب البن والبصل، وبصفة خاصة التمر الذى لا ينتج فى أى جزء من النوبة الشرقية، ومقدار كبير من الحديد الذى يستورد أيضا من جدة لعمل الرماح والسكاكين التى تصنع بواسطة الحدادين العاديين وهم الفنيون الوحيدون فى سواكن، باستثناء البنائين والنجارين[ص٤٤١].

ملاحق رحلات "بوركهارد" فى النوبة والسودان

الملحق رقم (١)
الممالك الإسلامية والقبائل العربية فى غرب السودان وإقليم بحر الغزال

لقد ضمن "بوركهارد" عدداً من الملاحق. لعل من أهمها بالنسبة للباحث فى تاريخ السودان الملحق رقم (١) الذى تناول فيه بالبحث والدراسة الممالك الإسلامية والقبائل العربية فى بلاد غرب السودان وإقليم بحر الغزال. كذلك الملحق رقم (٢) الذى تناول فيه بالتفصيل أشهر تلك الممالك الإسلامية وهى مملكة برقو، ويطلق عليها أيضا اسم ودّاى، ودار صليح. سنعرض فيما يلى أهم ما احتواه هذان الملحقان بإيجاز.

١- دار كتاكو Dar Katakou

يحدد الرحالة "بوركهارد" موقع دار كتاكو "بين بورنو وإقليم بحر الغزال" ويذكر "أن ملكها يدفع الجزية لملك بورنو Bornou الذى يقيم فى برنى Birney (العاصمة). أما المراكز الرئيسية فيعددها بقوله "إن المراكز الرئيسية التى تشتمل عليها كتاكو والتى لكل منها رئيس هى: منضرة Mandara، ودار مكرى Mekry، ودارأنكالا Dar Ankala، ودار أفادى Dar Afady، ودار كلفى Dar Kolfey"[ص٤٧٧]. ويحدثنا عن القبائل العربية الأصل التى تعيش فى دار كتاكو قائلاً "إن القبائل البدوية فى كتاكو هى: بنى حسن Beni Hassan، وأولاد أبو خضير Oulad Abou Khedhey، والنجمية El Nedjeyme، والفلاتة El Fellate، وبنى سعيد Beni Said، والسلامات Essalamat، والكبار El Kobbar، والعويسية El Aouy Seye، وأم إبراهيم Ibrahim، والعجايفة El Adjayf. وجميع هذه القبائل تدفع الجزية لبورنو. وكلهم يدعى أن أصله من بلاد العرب. وبعضهم يتكلم لغة بورنو، بينما الآخرون كبنى حسن والسلامات وأم إبراهيم يتكلمون اللغة العربية فقط. وأقوى هذه القبائل هم الفلاتة وهم دائماً فى حرب مع بورنو. وفى الأيام الأخيرة يبدو أن نفوذهم امتد إلى الأطراف الشمالية من السودان عند تمبكتو لأنهم على جانب عظيم من القوة. ويلبس رؤساؤهم الملابس الملونة من الأقمشة القطنية أو الحرية" [ص٤٧٧].

ويصف "بوركهارد" طبيعة البلاد بقوله "وبين كتاكو وبحر الغزال يجرى نهر عظيم يسمى شارى Shary من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى تجاه باقرمة Bagerme. ولكن منبعه لم يكن معروفاً وهو متسع مثل نهر النيل، ومليء بالأسماك، كما تكثر فيه التماسيح وأفراس النهر، وحيوان يعرف باسم أم كرجى Om Kergay. ويقال أن حجمه كبير مثل الخرتيت ورأسه صغير جداً وكذلك فمه، ولكنه غير مؤذ وضفاف النهر تقطنها الفيلة والخرتيت والأسود والزراف. ويجرى بحر جاد Bahr Djad وهو مجرى متسع يصب فى نهر

شارى" [ص٤٧٧].

٢- إقليم بحر الغزال

يحدثنا الرحالة "بوركهارد" عن طبيعة إقليم بحر الغزال الجغرافية بقوله "إن مجرى بحر الغزال متسع وهو يجرى فى أرض خالية من المرتفعات. ويسمى بحر وأيضا يعرف بالوادى، لأن الحديث المنقول يقرر أنه فى الأزمنة القديمة كان يجرى خلال هذا الوادى نهر متسع. والأرز ينمو برياً فى الإقليم. وتوجد فيه الفيلة بأعداد ضخمة، وكذلك جميع الحيوانات المفترسة السالفة الذكر. ويقطنه البدو خلال موسم المطر فقط وفى الأشهر التى تلى هذا الموسم مباشرة، حيث يقومون يرعى قطعانهم العظيمة من البقر والإبل والضأن (والأخيرة خالية من الصوف كما هو الحال فى ضأن شندى). ثم يرجعون فى فصل الجفاف نحو حدود كاتاكو وباجرمة ودارصليح" [ص٤٧٨].

ويتناول علاقة سكان إقليم بحر الغزال بجيرانهم من سكان تلك الأقاليم والممالك فيقول "إنهم يشترون الذرة اللازمة لاستهلاكهم من دارصليح وباقرمة. ومن المكان الأخير يحصلون عليها بالأبقار التى هى العملة السائدة فى جميع المساومات الكبيرة فى الإقليم. والبنت من الرقيق التى على جانب من الجمال تساوى هناك عشر أبقار" [ص٤٧٨]. ويضيف "بوركهارد" أنهم يتزاوجون مع سكان بورنو وباقرمة ودار صليح. ولا توجد تجارة فى بلادهم التى لا تزورها القوافل. ومن المعتاد أن ترى أكوام أنياب الفيل ملقاة على الأرض لا يحملها أحد. وهؤلاء البدو يزورهم فى بعض الأوقات أشراف من الحجاز يأتون إليهم عن طريق سنار ودارفور من أجل جمع صدقات رؤساء القبائل الذين يحترمونهم باعتبار أنهم من سلالة أسرة النبى. ويدفع الرؤساء كل ثلاث أو أربع سنوات الجزية لبورنو، وتشمل على خيول وإبل ورقيق" [ص٤٧٩].

يحدثنا "بوركهارد" عن أشهر القبائل التى تقطن إقليم بحر الغزال: "إن القبيلة الرئيسية فى إقليم بحر الغزال هى قبيلة بنى حسن. وهم يدعون أنهم من الحجاز، ويؤكدون أن الشريف رشوان هو جدهم الأكبر. وهم ينتمون لبنى حسن فى دار كاتاكو. ولا يتكلمون إلا العربية. ولون بشرتهم بنى غامق، وشفاههم غليظة نوعاً ما. ولايشبهون صفات الزنوج فى شىء غير ذلك. فشعرهم ليس خشناً" [ص٤٧٩]. أما القبائل أو الفروع التى تنقسم إليها قبيلة بنى حسن فيشير اليها الرحالة بوركهارد بقوله "إنهم ينقسمون إلى قبائل دقنة Daghana التى تقطن بجوار كانم، وأولاد محارب Ouled Mehareb، وأولاد سرار Oulad Serar، وأولاد غانم Oulad Ghanem، وأولاد أبو عيسى Oulad Abou Aisa، والعسالة El Aszale. وفى المركز الذى تستغله قبيلة الدقنة يوجد مكان يسمى مزراق Mezrag يجرى فيه بحر ماؤه حلو على مسيرة يوم طولاً ونصف يوم عرضايسمى وادى حديبة Wady Hodeba وهو دائما مملوء بالماء. وبدو إقليم بحر الغزال ينتقلون باستمرار". أما عن القبائل الزنجية الوثنية التى تجاور هذه القبائل العربية المتفرعة من

بنى حسن، فيشير إليها "بوركهارد" بقوله "إنه على مسيرة ثلاثة أو أربعة أيام منهم جهة الشمال تسكن القبائل الزنجية الوثنية ذات اللغات المتعددة مثل الكريدة Kareyda، والكشريدة Keshreda El، والنورامة ELNourame، والفامالاة ElFamallah"[ص٤٧٩].

ويضيف "بوركهارد" "أن عرب بحر الغزال غالباً يغيرون عليهم ويسلبونهم أطفالهم كرقيق. ولو كان لديهم أسلحة نارية لتمكنوا من إخضاعهم بأكملهم"[ص٤٧٩]. وهناك قبائل أخرى كانت تجاور القبائل العربية الأصل من المسلمين القاطنين إقليم بحر الغزال يشير إليها أيضا "بوركهارد" بقوله "وأقرب مكان إلى نهر شارى فى إقليم بحر الغزال هو كانم Kanem على مسيرة أربعة أيام وهى مركز متسع تقطنه قبائل التنجر Tendjcar وبنى وائل Beni Wayl (وعنترة أقوى قبيلة بدوية فى بلاد العرب ينحدر أصلها من بنى وائل). ولهم لغتهم الخاصة ولا يتكلمون العربية. وبين كانم وشارى تقع دار كاركا Dar Karka التى لا تكون جزءا من إقليم بحر الغزال ويسكنها بدو كورى Kory الذين يرعون ماشيتهم على ضفاف نهر يعرف باسم بحر الفيض Bahr el Feydh أى النهر الذى يفيض ويصب فى نهر شارى. وهم يمتلكون نوعا من الأبقار الكبيرة الحجم ذات القرون التي يبلغ طولها قدمين"[ص٤٧٩].

٣- إقليم باقرمه Bagerme

يصف "بوركهارد" موقع إقليم باقرمة بقوله "إنه يقع على مسيرة أربعة أو خمسة أيام من إقليم بحر الغزال". ويضيف إلي ذلك "أن هذا الإقليم قد غزي أخيراً علي يد ملك دار صليح". ثم يقول عن سكان باقرمة: "إنهم جميعاً مسلمون. وصناعاتهم من نسيج القطن تمد جميع الجزء (الغربى) من السودان بالقماش الذين يصنعون منه قمصانهم. وكل عامين أو ثلاثة أعوام تذهب قوافل الفقهاء من باقرمة إلى أفنو Afnou، وهى رحلة تستغرق من عشرين إلى خمسة وعشرين يوماً لبيع أقمشتهم هناك. ولكنم يضطرون غالباً إلى العراك مع القبائل الوثنيه التى توجد على الطريق".

ويحدثنا "بوركهارد" عن القبائل العربية الأصل التى تعيش فى إقليم باقرمه فيقول: إن فى باقرمة بدو السلامات Essalamat وأولاد أبو ضو Oulad Abou Dhou، وفلاتم Fullatem، وأولاد أحمد Oulad Ahmad، وليس أولاد أحمد oulad Ahmed وأولاد على الذين يتكلمون العربية (فى الصحراء الليبية ما بين القاهرة وسيوة وحتى درنة Derna توجد قبيلة من البدو المغاربة المقتدرين تسمى أولاد على ينتمى أصلها القبلى إلى أولاد على. وهم فرع من قبيلة عنزة فى الصحراء العربية). ومن كانم يوجد طريق إلى فترة Fittre على مسيرة ثمانية أيام. وعلى مسيرة ثلاثة أيام من كانم يوجد بدو يعرفون باسم أولاد حميد Oulad Hameid. والسيرفى مركز حميد يستغرق يومين، بعدها يستغرق قطع الطريق إلى فترة ثلاثة أيام. وهناك طريق آخر من فترة إلى مقراج Megrag بالقرب من بحيرة حدبة Hadaba يستغرق عشرة أيام. وعرب فترة هم بلالة Belale الذين يقطنون

بالقرب من إقليم بحر الغزال. وجاعتينه Djaathene (هناك قبيلة من جاعتينه تعيش فى جبال اليمن). والجليلات El Heleylat. والخزام El Khozam. والطريق بين فترة وبحر الغزال يقطنه البدو فقط فى موسم المطر. والمسافرون الذين يمرون خلال هذا الطريق هم فقط عدد قليل من الحجاج الزنوج الذين يقتفون أثر القبائل المتجولة في حركاتهم البطيئة غير المنتظمة حتى يصلوا إلى دارصليح، حيث يتصلون بقوافل التجار" [ص٤٧٩].

٤- دارصليح Dar Saleg

يصف "بوركهارد" موقع دار صليح بالنسبة لبلاد فترة Fittre السالفة الذكر "بأنها تقع على مسيرة ثلاثة أيام منها" [ص٤٨٠]. وعن مكانة دارصليح الدينية والعلمية يقول "إن عرب بنى حسن فى إقليم بحر الغزال يولون وجوههم شطر دار صليح عندما يصلون. وملك صليح عبد الكريم صابون يلى ملوك دارفور وبورنو. من حيث أنه أكثر الأمراء قدرة فى الجزء (الغربى) من السودان، فقد تمكن من أن يقهر عدداً كبيراً من المقاطعات المجاورة. ويزور مكة سنويا حجاج من دويلاته" [ص٤٨٠]. ويضيف "بوركهارد" أنه يوجد كثير من المدارس فى الإقليم، وأن فقهاء دارصليح مثل فقهاء الأقاليم الأخرى التى إلى الشرق منها يكتبون خط النسخ العربى الشرقى، بينما أولئك الفقهاء الذين فى الغرب والشمال يستخدمون على نسق واحد الخط العربى (الغربى) الذى يختلف فى كثير من حروفه عن الخط العربى الشرقى. وهو أمر جدير بالملاحظة"[ص٤٨١].

ويعدد "بوركهارد" قبائل البدو التى تعيش فى دار صليح فيقول "إن سكان البدو الذين يقطنون دارصليح هم المحاميد Mehameid، والنوادية Nowadieh، وبنى حلية Beni Hellye، والمسيرية Maisirieh، والفوالة El fawale، (فى الجانب الشرقى من النيل بين إسنا وإدفو توجد قبيله صغيرة من الفلاحين العرب تسمى الفواله Fawale)، والسلامات، والشرفة Eshorrofa، والعزالة Aszale، والحيمات El Heymat، وأولاد راشد Oulad Rashed" [ص٤٨٠]. ويحدثنا عن استقرار كثير منهم واشتغالهم بالزراعة، وربما كان لخصوبة التربة فى هذه البلاد حيث تجود الزراعة أثرها فى ذلك، إذ يقول "إن تربة دارصليح تجود فيها الزراعة. ويبذر الحبّ عقب سقوط الأمطار. والإقليم تنتشر فيه القرى ذات المنازل المصنوعة من الطمى والتى تشبه مساكن شندى. وكثير من البدو الذين مرّ ذكرهم قد استقروا وأصبحوا مزارعين [ص٤٨٠].

وأخيراً يصف "بوركهارد" طرق القوافل والمسافرين التى تربط دارصليح بدارفور بالسودان الغربى بقوله "إنه يوجد طريقان من دارصليح إلى دارفور. الطريق القصير ويسير فى بلاد جبلية وصحراء جرداء، وتبدأ الرحلة من أبعد حدود دار صليح إلى دار بنى محمد Dar Benu Mohammed. ولكن المسافرين نادراً ما يستخدمون هذا الطريق لأن اللصوص تهاجمه من كلا الإقليمين. إذ هم يفضلون الطريق الأطول الذى بالرغم من طوله فهو أكثر أمنا. ويمر خلال بلاد تكثر فيها النهيرات" [ص٤٨١]. ويستطرد قائلاً

"هذا هو الطريق الآمن. ولكن بالنظر إلى عدم وجود ماء في هذا المركز (الأخير) فإن المسافرين لا يخترقونه إلا في موسم الأمطار فقط، أو بعد سقوطها مباشرة. وهو ملئ بالأشجار التي من بينها أشجار النبق وأشجار العرديب الذي يحمل التمر هندى، وأشجار بابا نوما (أشجار الأبنوس) التي تنتشر هناك. وكذلك نوع آخر من الأشجار يستخرج منها نوع من العسل" [ص٤٨١]. ويصف "حالة الأمن في ذلك الطريق الذي يربط دارصليح بدارفور بقوله "ونظراً لأن ملوك دارفور ودارصليح في حالة حرب فيما بينهم، فإنهم يعينون حراساً على حدود الصحراء من الجانبين. وهؤلاء الحراس يقومون بتفتيش بضائع التجار. ويصادرون جميع أنواع الأسلحة النارية وكذا الخيل. والمسافر يقاسي كثيراً من سلبهم وعند السفر من دارصليح فإن أول مركز يدخله المسافر عند وصوله إلى إقليم دارفور هو مركز التعايشة Tauyshe ومنه يصل إلى كوبة في خمسة أيام. ومن كوبة إلى دار السلطنة أو مقر الملك (السلطان) يوم واحد" [ص٤٨١].

٥- سلطنة دارفور

يستهل "بوركهارد" حديثه عن سلطنة دارفور بالإشارة إلى قبائل البدو التي تعيش في الإقليم، إذ يقول "إن سكان دارفور البدو هم المحاميد Mehameid، والعريقات Areyheat، والجليدات Jeleydat، والزيادية Zeyadye، وبني جلة Beni gella، والتعايشة Taayshe، وجهينة Geheyne (قبيلة جهينة مازالت مزدهرة في الحجاز. وهم في دارفور بدو مزارعون). وهم يأتون إلى سوق الرقيق بالصمغ العربي والتمر هندى وريش النعام والعاج" [ص٤٨١]. ويصف طرق القوافل التي تربط دارفور بإقليم كردفان بقوله "من دار السلطنة إلى قرية آكو Ako تستغرق الرحلة أربعة أيام خلال بلاد مسكونة. ومن آكو إلى حدود كردفان تمتد صحراء يستغرق السير فيها ثمانية أيام. ويمر فيها طريقان. أحدهما يسير فيه المسافر رأساً عبر الصحراء، ولكن لا يجد فيه ماء. والطريق الثاني يستغرق قطعه يومين من آكو إلى مكان يسمى أرمن Armen يسكنه العرب، ويوجد فيه الماء. ومن أرمن يجتاز طريقاً لا يوجد فيه ماء مدة سبعة أيام، ولكنه الطريق الخطر بسبب غارات النهب التي يقوم بها عرب البديات Bedeyat. وهم أنفسهم الذين يقطعون الطريق على قوافل دارفور وهي في طريقها إلى مصر. وكلا الطريقين ينتهي إلى حدود كردفان في نقطة واحدة عند قرية تسمى أم زميمة Om Zemeyma، ومنها تسير القوافل خلال بلاد زراعية لمدة ثلاثة أيام إلى الأبيض عاصمة كردفان" [ص٤٨١].

٦- كردفان

لقد أمدنا الرحالة "بوركهارد" بمعلومات وحقائق هامة عن الأوضاع السياسية في كردفان تتضمن علاقتها بسلطنة دارفور المجاورة لها يقول فيها "إن كردفان تخضع في الوقت الحاضر لحكم دارفور. وملكها الذي يسمى مسلم كان من قبل عبداً لملك (سلطان) دارفور. ويمدح لعدله. ولكن يقال إنه لولا خوفه من سيده في كوبة الذي يحكم

كردفان باسمه لرحب أن يفعل العكس. إنه يقيم في الأبيض، ويحتفظ بحوالى خمسمائة فارس. ويوجد أيضا فى الأبيض مك التكارنة الذى يعرف بأنه من مواطنى بورنو، وهو تكرورى ويمتد سلطانه على جميع التجار الأجانب الذى يجنى منهم الجزية" [ص٤٨١].

ويصف الأبيض عاصمة كردفان، فيشير إلى مساكنها ونشاط أهلها من التجار والمزارعين بقوله "إن الأبيض مكان متسع، ولكن لا توجد به إلا منازل قليلة. والجزء الأكبر من سكانها يعيشون فى أكواخ مصنوعة من الشجيرات. وملحق بهذه الأكواخ أفنية محاطة بأسوار. وهم تجار نشطاء، وأيضا فلاحون يقومون بزراعة الأرض. وغلتهم الرئيسية هي الدخن. وتعم زراعة البامية والفلفل الأحمر" [ص٤٨١].

ويصف "بوركهارد" كردفان بصفة عامة بقوله "إن كردفان عبارة عن واحة كاملة تفصلها عن البلاد المجاورة لها من جميع الجهات الصحارى على امتداد ستة أيام، باستثناء ناحية الشلك فأربعة أيام فقط" [ص٤٨٣].

وأما عن القبائل البدوية الرئيسية التي تقطن كردفان فيقول "إن بدو كردفان يسمون بقارة ويسمون كذلك لأنهم يربون أعداداً ضخمة من البقر. والقبائل الرئيسية هى مطاية Moteyeye والحمر، والجليدات، وجيرار، والكبابيش، وفزارة الذين يحملون أجود أنواع ريش النعام إلى سوق الأبيض، والزيادية، وبنى فضل، والمعالية وعلى الأطراف الجنوبية الشرقية من كردفان تقطن قبيلة قوية تسمى غيتينة Ghyatene، وهى خاضعة لكردفان، وأفرادها يتكلمون العربية بصفة خاصة. ولكنهم تزاوجوا مع سكان الأبيض والقرى المجاورة الذين لغتهم هى لغة دارفور. والجيرار والكبابيش والفزارة يقطنون إلى الشمال والشمال الشرقى. وفى فصل الشتاء يجعلون الطريق إلى دنقلة وشندى خطراً. وبنى فضل والمعالية يقطنون على الطريق من الأبيض إلى الشلك على الطريق إلى سنار، وهم يجلبون أجود أنواع اللبان والبخور. وهم رجال حرب، ويخيفهم رئيس كردفان. وكثير منهم قد أصبحوا من المستقرين والمزراعين. كذلك صار كثير من الجعليين بيد أن هؤلاء يقطنون بصفة خاصة ضفاف النيل" [ص٤٨٢].

ويصف طريق القوافل من كردفان إلى شندى إذ يقول "إن المسافر من الأبيض يسير لمدة ثلاثة خلال بلاد مسكونة حتى يصل إلى قرية كبيرة تسمى دومة Douma وهى مسكونة كلها بالعرب الجعليين. حيث تجبى الضرائب من القوافل التى تصل من شندى عن طريق موظف يعينه مك كردفان، وتجبى الضرائب بطريقة استبدادية وتبلغ ٥٪ تقريباً. وجميع البضائع تفتش بدقة. وعندما يغادر المسافر أم قناطر يسير فى الصحراء لمدة يوم. وفى اليوم التالى يصل المسافر إلى جبل أبودوبر Abou Dhober الواقع وسط الرمال. ويقطنه النوباويون وقليل من أهالى دنقلة الذين يمتلكون الآبار العميقة التى يبيعون ماءها للقوافل المارة. ومن هناك إلى النيل مقابل شندى تكون صحراء بلا ماء لمدة خمسة أو ستة أيام، ولكن بها وديان تنمو فيها الأشجار ويقطنها البدو وفى موسم المطر" [ص٤٨٢].

ملحق رقم (٢)
مملكة برقو Borgo «الإسلامية»
(دارصليح ، وداى)

مملكة برقو من الممالك الإسلامية الهامة التى قامت فى بلاد غرب السودان. ويطلق عليها أيضا دارصليح، وكذلك وداى. ولأهمية هذه المملكة قام الرحالة "بوركهارد" بدراسة مفصلة عنها، خصها بالملحق رقم (٢) من ملاحق كتاب رحلاته فى النوبة والسودان عام ١٨١٣-١٨١٤م. ومملكة برقو من طراز سلطنة دارفور، فقد حكمها بعض الملوك الأقوياء مثل الملك يوسف ابن عبد الكريم صابون الذى ذاع صيته، ونجح فى ضم بعض الأقاليم المجاورة مثل إقليم باقرمة- السالف الذكر- إلى مملكته. وقد استرق بعض أهلها عند غزوها، رغم إنهم من المسلمين يدينون بالإسلام مثله، مما أثار عليه حفيظة الفقهاء فى مملكته وكذلك علماء القسطنطينية. وكان يملك جيشاً قوياً من الفرسان الذين امتازوا بمهارتهم وجودة خيولهم. فضلاً عما كان يمتلكه من البنادق الصغيرة التى أهداها له حاكم (بك) طرابلس وقد كانت تربطه ببلاده وبفيزان بشمال إفريقية (ليبيا الحالية) علاقات ودية ومصالح تجارية. وكذلك كان الحال مع سلطنة دارفور، ولكن بدرجة أقل. وفوق ذلك كانت مملكة برقو (دارصليح أو وداى) قريبة بحكم موقعها الجغرافى من مناطق الزنوج الوثنيين الذين يخضعون لنفوذها. وتعد هذه المناطق من المصادر الأصلية للرقيق فى بلاد غرب السودان وإفريقيا. ومن هذا المنطلق كانت مملكة برقو ذاتها من المراكز الرئيسية لتجارة هؤلاء الرقيق. وقد كان بعض رقيق هذه البلاد يصل إلى أسواق القاهرة عن طريق قافلة فزان، إلى جانب ما كان يأتيها من مراكز تجارته الرئيسية الأخرى فى السودان الشرقى عن طريق قوافل شندى وسنار وبربر، وأيضا من السودان الغربى عن طريق قافلة دارفور.

يصف "بوركهارد" موقع تلك البلاد وما يطلق عليها من أسماء مختلفة بقوله "إن دارصليح هو الإسم المتداول بين المواطنين أنفسهم. وسكان دارفور وكردفان يطلقون عليها إسم بورقو Borgo. وجيرانهم من برقو وفيزان والتجار المغاربة يسمونها وداى Waday. والأمثلة على اختلاف الأسماء التى تعطى للبلد الواحد ليست قليلة"[ص٤٨٤]. ويصف طبيعة البلاد الجغرافية قائلاً "إنه فيما يلي بورنو ودارفور تعتبر دارصليح (برقو) أهم إقليم فى السودان (الغربى). ويقال إنها بلاد مسطحة بها قليل من التلال. وفى فصل المطر الذى يستمر عادة شهرين تفيض المياه بكثرة على كثير من الجهات. وتجرى أيضا

أنهار كبيرة وسريعة خلال الإقليم. وبعد أن تستقر المياه تبقى البحيرات العميقة فى مختلف الأماكن مملوءة بالماء على مدار السنة كلها. وهذه البحيرات متسعة بحيث تكفى لأن ينعزل فيها فرس البحر والتماسيح التى تتوافر فى الإقليم" [ص٤٨٤]. ويستطرد قائلاً "إن مستر برون Broune (الرحالة) قد أوضح فى خريطته عدة أنهار إلى القرب من دارفور. ولكن علمت أنه لم يكن بينها أنهار كبيرة سوى المجارى التى توجد فى أثناء سقوط الأمطار. وأهم تلك المجارى أبوتيمام Obou Teymam أو أم تيمام Om Teymam. وبالنظر إلى العادة المنتشرة في السودان، من حيث إطلاق أسماء مختلفة على النهر الواحد فإن هذا المجرى يسمى أيضا جير Djyr" [ص٤٨٤].

ويصف "بوركهارد" الحيوانات النهرية والبرية التى تعيش فى إقليم برقو بقوله "وفى هذا الإقليم تنتشر بكثرة الفيلة، والخرتيت، وفرس البحر، والزراف، وقطعان الجاموس البرى كذلك يوجد حيوان آخر فى حجم البقرة ذات القرون الكبيرة يسمى أبوعرف Abou Orf. ويصيده الخيالة من أجل لحمه وجلده. وعندما يُهاجم هذا الحيوان يخفض رأسه إلى الأرض ثم يندفع بغضب نحو الصياد الذى غالباً ما يقتله (يقتل الصياد) أو يسبب له جروح خطيرة مجرد أن يرفع رأسه. كما يوجد أيضا حيوان ذو قرون فى حجم العجل تقريباً يسمى جلاد Djalad. والتيتل الجبلى (ويعرف بنفس الإسم فى مصر العليا) يوجد في جبال برقو" [ص٤٨٤]. ويقول عن أنواع النبات التى تنمو فى بلاد برقو: "إن شجرة الحجيلى Hedjyly تنمو هناك، وتحمل فاكهة حلوة تشبه كثيراً التمر. وأنواع الخشب التى توجد هناك صلبة وثقيلة. ويكتب الحجاج على الألواح الصغيرة المصنوعة منها صلواتهم وطلاسمهم" [ص٤٨٤].

يحدثنا الرحالة "بوركارد" عن المقاطعات التى كانت تضمها مملكة برقو (عام ١٨١٣ - ١٨١٤م) بقوله "إن مملكة برقو تنقسم إلى مقاطعات كثيرة أهمها مقاطعة وارا Wara، حيث يقيم السلطان فى مكان يسمى بهذا الإسم. وهى مدينة مكشوفة تتكون من منازل مبنية من الطمى وأكواخ مشيدة من فروع الأغصان المقطعة، ومقاطعة سيلا Sila، وهى مركز كبير عليها حاكم يلقب نفسه أيضاً ملكاً، ومقاطعة رونجا Runga (وهى معروفة جيدا لدى برون Browne) ومقاطعة دار تاما (وهاتان المقاطعتان لهما لهجة غريبة)، ومقاطعة مودجو Modjo. ومن المحتمل أن تكون نفس المركز الذى يسميه براون باسم موداجو Moddago (صفحة ٤٦٥ طبعة عام ١٧٩٧، ويطلق عليه مستر ستزن Seetzen إسم ميتكو Metko (انظر الملحق لدائرة المعارف البريطانية - إفريقية)...[ص٤٨٥]. وهناك مقاطعات أخرى لبرقو هى آباسه Abasa ومنكارى Mankary، وهى مقاطعة كبيرة فى الإتجاه الجنوبي الغربى، ومقاطعة قمر Gimur (وهى معروفة لبرون باسم قمر Gimer) ومقاطعة جير Djyr وهى المقاطعة التى يأخذ النهر السالف الذكر تسميته منها" [ص٤٨٥]. ويصف نظام الحكم فى تلك المقاطعات التى تضمنتها المملكة بقوله "إن رؤساء المقاطعات فى

برقو يستحوزون على منصبهم من سلطان وارا. ويدفعون له ضريبة سنوية. وهم يمتنعون عن إرسالها ويعلنون العصيان كلما وجدوا الفرصة مواتية لذلك"[ص٤٨٥].

يقول "بوركهارد" "إن سلطان برقو Borgo يوسف بن عبد الكريم صابون الذى توفى فى العام الماضى (١٨١٥) ترجع إليه بصفة خاصة قوة برقو. وقد كان عادلاً، ولكنه كان حاكماً قاسياً جداً، لا يظهر أى شفقة لأى حاكم يخرج عن فروض الطاعة. وقد أعدم كثيراً من رعاياه طيلة مدة حكمه الطويلة. ويروى: " كيف نجح السلطان يوسف بن عبد الكريم صابون حاكم مملكة برقو فى ضم إقليم باقرمة إلى سلطنته بقوله "إن حاكم بورنو دعا صابون لمساعدته على إخماد الثورة فى باقرمة (التى كانت تخضع له)، مظهرا له أن هذه الحرب واجب دينى لأن رئيس باقرمه قد خالف تعاليم الإسلام، وتزوج أخته، فأثبت بذلك أنه وثنى. فتحرك صابون بجيشه إلى باقرمة وفتح الإقليم كله، ولكنه احتفظ به لنفسه. ويقال إنه وجد هناك كنزاً كبيراً من الفضة نقله على مائتى بعير. ذلك أنه فى بورنو وباقرمة توجد معادن كثيرة من الفضة. وفى أثناء تلك الحرب أسرت أعداد كبيرة من سكان باقرمة مع نسائهم وأطفالهم كرقيق. ولكن عند وصولهم إلى برقو يبدو أن علماء تلك البلاد الذين يكونون هيئة قوية، وكذلك علماء القسطنطينية قد أظهروا لصابون إنه بالنظر إلى إنهم مسلمون ليس من العدالة استرقاقهم. ومن ثم استعادوا حريتهم ورجع كثير منهم إلى بلادهم والآخرون ظلوا بناء على رغبتهم فى برقو يكسبون عيشهم عن طريق مهارتهم فى صبغ الأقطان بالصبغة الزرقاء. وهذه الصبغة يحصلون عليها من نبات يشبه النيلة. ويقال إنه مفضل على نيلة مصر، وكلاهما يعرف باسم النيلة" [ص٤٨٥].

ويواصل "بوركهارد" حديثه عن سلطان برقو فيصف لنا قواته الحربية قائلاً "إن سلطان وارا Wara (مقر السلطان)، أو الفاشر كما يسمى كذلك (والفاشر تطلق على المكان المكشوف الذى يعقد فيه السلطان مجلسه) لديه بين قواته كثير من الزنوج الذين لا يزال بعضهم وثنياً. وهناك وثنيون آخرون مستقرون أيضا فى كل مدينة فى برقو تقريباً. ويترك السلطان مقره كل يوم الجمعة (وهو لا يُرى إلا فى أيام الأعياد) عقب الصلاة. وهناك عادة متبعة وهى أنه إذا رغب أحد فى الشكوى من ظلم أحد موظفى السلطان، فعليه أن يجرى فى السهل أشبه بالرجل المجنون، حتى يشاهده السلطان، فيرسل إليه من يحضره ليستمع إلى حكايته" [ص٤٨٥]. ويضيف "أن بين قوات السلطان يوجد قليلون يحملون الأسلحة النارية. والسلطان يمتلك عدة بنادق صغيرة جاءته عن طريق "بك" طرابلس. وقوته الرئيسية تعتمد أساساً على الفرسان، ويملك الكثيرون منهم دروعاً. وهم فرسان مهرة، والخيل التى توجد فى هذا الإقليم تعتبر من أجود الأنواع" [ص٤٨٦].

ويحدثنا "بوركهارد" عن استخدام جنود برقو من الوثنيين، وكذلك القبائل الوثنية التى تعيش فى هذا الجزء من بلاد غرب السودان، للسهام المسمومة، كما يشرح كيفية إعدادهم الترياق اللازم لمداواة الجراح المصابة بها، فيقول "إن جنود برقو الوثنيين

مسلحون بالسهام المسمومة. وعندما يذهبون إلى الحرب يحملون معهم صندوقاً صغيرا من مسحوق الترياق الذى يقاوم السموم، وهو معروف بين المواطنين. ويحضر من دودة صغيرة تسمى فى برقو كما فى باقرمة باسم كودونجو Kodongo تجفف ثم تحول إلى مسحوق يطلى به الجرح، وبعضه يتناولونه بطريق الفم.

ويتناول "بوركهارد" علاقات مملكة برقو بالشعوب الزنجية الوثنية المجاورة لها قائلاً "إن الشعوب الزنجية الوثنية تقع على مسيرة عشرة أو خمسة عشر يوماً من برقو. وسكان برقو يقومون دائماً بغارات عليهم لجلب الرقيق. وأكثر بلاد هؤلاء الوثنيين شهرة هى دارجلة Dar gulla، وبندا Bend، وجنكة Djenke، ويميم Yemem، وعلا Ola التى هى أكثرها بعداً. وبعض هذه الشعوب الوثنية تدفع الجزية لملك برقو الذى يحتفظ بحق تعيين موظف فى تخومهم، ليتسلم الجزية التى تتكون من النحاس الأحمر والرقيق. وفى مقابل هذه الجزية يؤمنون من جميع الغارات العلنية التى يشنها المسلمون. ولكن رغم ذلك يعانون دائماً من غارات لصوص برقو التى تتم خفية. ثم يصف الدور الذى تلعبه مملكة برقو فى تنشيط تجارة الرقيق فى هذه الجهات بقوله "إن التجار الذين يرغبون فى شراء الرقيق يتقدمون إلى هذه البلاد ويحيطون أنفسهم بموظفى برقو المعينين هناك. ويبعث الحاكم ورؤساء البلاد إلى هؤلاء التجار المحليين بالرقيق بقصد بيعه. وهو الرقيق الذى حصلوا عليه من الحرب (لأن موظفى برقو دائما يثيرون الحرب بين هذه الشعوب الزنجية)، أو الرقيق الذى حصلوا عليه عن طريق القانون، لان أقل تعد يعاقب عليه صاحبه بالأسر. كما أن السكان أنفسهم غالباً ما يسرقون أطفال جيرانهم أو يبيعون أطفالهم إذا كانوا أسرة كثيرة العدد" [ص٤٨٦].

ويضيف "بوركهارد"؛ "إن التجار المحليين يشترون الرقيق فى حضور الموظف مقابل الذرة والدخن والبقر فالشعوب الوثنية تزرع القليل من الحقول. ولكنهم مغرمون جداً بالذرة. وهم يمتلكون أعداداً وفيرة من الضأن والماعز. ولكن قليلاً جداً من البقر. وكيس الذرة الذى هو عبارة عن ربع حمل جمل أو يعادل ١١٢ رطلاً تقريباً يساوى فى قيمته عبداً واحداً. والبقرة تقدر بأربعة من الرقيق. وعند عودة تجار برقو إلى بلادهم يربطون الرقيق الذى اشتروه بسلسلة طويلة من الحديد تلف حول رقبة كل واحد منهم. ويصبح من عشرين إلى ثلاثين من هؤلاء الرقيق مربوطين واحداً وراء الآخر. ولا تنزع السلسلة الطويلة إلا حين وصولهم إلى برقو" [ص٤٨٧]. ويستطرد قائلاً: "إن مقاطعات مملكة برقو مليئة بالرقيق. ولا يخلو أى منزل فى المملكة من بعضهم. ويقال إنهم مجدون جداً. وهذا يعزى إلى تغيير عقيدتهم، إذ أن معظمهم يعتنق الإسلام مجرد وصوله إلى برقو. وهم يقومون بصناعة النحاس والأوانى الفخارية، والرءوس العليا للغليون. كما يشتغلون بصناعة الجلود. ومناطق الوثنيين جبلية. ويجرى خلالها عدة أنهار كبيرة جداً لا تجف أبداً. وتنمو هناك أشجار جوز الهند. كما يتوفر فيها النحاس" [ص٤٨٧].

يقول "بوركهارد" "إن تجار فزان يذهبون فى قوافل إلى برقو التى يسمونها وداي. بيد أن القوافل لاتسير بانتظام. وهناك أيضا حجاج من برقو يرحلون إلى القاهرة عن طريق فزان وطرابلس. وإنه على الرغم من أن تجار فزان يعبرون فى بعض الأوقات هذه الصحراء، إلا أن تجارتهم بين فزان وبرقو تقع بصفة خاصة فى أيدى بدو تيبو Tibbou الذين يحتلون الأرض القفر التى تتوسط هذا الطريق"[ص٤٨٧]. ويستطرد قائلاً: "إن هورنيمان Hornemann لا يذكر القوافل على الرغم من أنه يتكلم عن إقليم وداى (ص ١٣٤) ويشير إلي أنه قابل رجلا من أسيوط كان قد جاء إلى فزان عن طريق دارفور وبرقو وباقرمة [ص٤٨٧]. ويضيف قائلا "إن مخبرى قد أعطانى وصف الطريق من برقو إلى فزان الذى يبدو علي جانب من الأهمية. ويبدو فيه موقع بورنو Bornou، كما هو مبين فى الخريطة الأخيرة إذ يقع بعيداً جداً إلى الغرب [ص٤٨٦ ، ٤٨٩].

ويصف "بوركهارد" الطريق من برقو إلى فزان: "ومن برقو تسير القافلة مدة خمسة أيام فوق صحراء رملية مسطحة إلى بئر مرمر Marmar، ومنها تسير القافلة فى رحلة لمدة ثلاثة أيام على نفس السهل الرملى إلى أبودوم Abou doum، حيث ينمو قليل من أشجار النخيل. ومنها تسير القافلة يومين عبر تلال منخفضة إلى بئر حجارة Bir Haadjara ذات المياه العذبة، ومن هناك تسير القافلة فى رحلة لمدة أربعة أيام فوق صحراء مسطحة إلى مكان يسمى بحر Bahr، وهو أرض منخفضة إذا حفر المسافرون حفراً فى الرمل يجدون ماء وفيراً جداً. ويسمى بحر لأنه فى موسم المطر تفيض الأرض ومن هناك تستغرق الرحلة مدة ثلاثة أيام إلى بئر دزكى Dirky عند مدخل جبال دركى. ودركى إسم قبيلة قوية فى تيبو Tebbou تقطن هذه الجبال، ولكن موطنها الأصلى يقع على مسيرة عدة أيام غرب هذا الطريق ومن هناك تكون البلاد تقريباً بدون جبال تعترضها. وفى وديان جبال دركى ينمو قليل من أشجار النخيل والدوم. والطرفا أو التمر هندى ينتشر بكثرة، ويقدم غذاء لإبل القافلة. ومن دركى تسير القافلة مدة يومين إلى بئر فى الجبل تسمى بئر أخبيش Akaeybesh. ومنها فى رحلة لمدة خمسة أيام فى طريق معظمها جبلى إلى بئر ووك Woyk، ومنها لمدة ثلاثة أيام إلى بئر صرفاية Serfaya. وأربعة أيام أخرى إلى جبال تسمى حجار السود Hedjares Soud أو الصخور السوداء. وسميت كذلك للونها الأسود. وهى جزء من السلسلة الجبلية السالفة الذكر. وعند مدخلها تقع بئر تسمى بئر الأسود، حيث تقف القوافل. ومن هناك يخترق المسافر تلالاً ويصل بعد مسيرة خمسة أيام إلى بئر، حيث تنمو هناك بعض أشجار النخيل. ومنها رحلة لمدة سبعة أيام إلى بويرة El Bocyra وهى بئر صغيرة وتسمى أيضا آبو Abo [ص٤٨٨]. وتنتهى الجبال عند هذه البئر. ثم ينحدر الطريق مرة أخرى فى سهل مستو. وبئر بويرة أو آبو تدخل فى نطاق إقليم تبرز Tibertz. حيث تقيم أقوى قبيلة من تيبو فى مركز كبير يعرف بهذا الإسم. ومن هناك يسير الطريق فى سهل وتستغرق الرحلة فيه ستة أيام حتى قطرون، وهى أول قرية داخل

حدود فزان وتسمى أيضا حلة المرابطين، أو قرية العلماء. وتمر القافلة بمراكز زراعية، ومنها إلى مرزوق التى تقع على مسيرة يومين أو ثلاثة أيام"[ص٤٨٧ ، ٤٨٨].

ويختم وصفه لطريق القوافل من برقو إلى فزان قائلاً "وفى الجملة فإن الرحلة من برقو إلى مرزوق تستغرق ٥٢ يوماً. ولكن بالنظر إلى أن السير بطيء، كما أن القوافل تستريح عادة مدة كبيرة عند الآبار فإن الرحلة تستغرق عادة ستين أو سبعين يوما" [ص٤٨٨]. ويعلق "بوركهارد" على طبيعة هذا الطريق محدداً الأقاليم الهامة التى تقع عليه بقوله "إنه على هذا الطريق تقع باقرمة وبحر الغزال وبورنو غرب الطريق. ولقد تأكدت أن إتجاه بورنو يقع إلى الغرب أكثر من اتجاهها إلى شمال باقرمة. وهذا يتفق مع ماسمعه هورنيمان Hornemann فى فزان. أى أن بورنو تقع جنوب فزان. وعلى الطريق الذى وصفناه لا يوجد نهر أو بحيرة، ماعدا مانلاحظه فى موسم سقوط الأمطار (من المحتمل أن النهر الذى فى بورنو ينبع من الجبال السالفة الذكر) والماء الذى يوجد فى الآبار عذب فى كل مكان. وكثير منها عميق جداً، ومغلقة بالحجر. ويقال إن ذلك من عمل الجان أو العفاريت. وفى الشتاء تتجمع مياه الأمطار على شكل سيول جارفة أو برك". ولكى يدلل "بوركهارد" على مدى الأرباح التى يمكن لتجار فزان أن يجنوها من إيراد رحلتهم التجارية إلى برقو (وداى) عقد مقارنة بين أسعار بعض السلع فى كل من برقو وفزان، إذ يقول "يبدو أن الأسعار الجارية للسلع المتعلقة بتجارة الرقيق تحمل نفس النسب فى قيمتها فى وداى (باقرمة) وسنار، إذا ماقورنت بأسعارها فى فزان ومصر العليا. فالجمل الذى يبلغ ثمنه فى وداى (برقو) سبعة أو ثمانية دولارات يباع فى فزان بسعر يتراوح بين ٢٥ ، ٣٥ دولارا. والولد الرقيق فى فزان يساوى من ٤٠ إلى ٥٠ دولاراً، بينما فى وداى (برقو) يساوى من ١٠ إلى ١٢ دورلار" [ص٤٨٩]. ولقد كان بعض الرقيق الذى اشتهرت مملكة برقو بتجارته يجد طريقه إلى مصر إما عن طريق عرب عقيلة Augila أو عن طريق تجار فزان. وهو ما يكشف عنه حديث "بوركهارد" الذى يوضح فى الوقت نفسه وجود منافسة بين عرب عقيلة وتجار فزان فى الحصول على الرقيق من برقو، إذ يقول "إنه فى صيف عام ١٨١٦ وصلت قافلة إلى القارة من عرب عقيله تحمل ما يزيد على ٣٠٠ من الرقيق الذين أخذوا من وداى (برقو). فعندما وجد عرب عقيلة أن تجار فزان حاولوا فى بعض الأوقات الاتصال مباشرة ببلاد برقو، فكروا هم بدورهم فى إيجاد طريق من عقيلة إلى برقو. وفى عام ١٨١١ قاموا لأول مرة بهذه الرحلة، ووصلوا إلى برقو، ولكن عند رجوعهم لم يكن معهم أدلاء فضلوا الطريق، ومات عدد كبير منهم عطشاً. وكذلك مات جزء كبير من الرقيق الذين كانوا برفقتهم. وفى عام ١٨١٣ قاموا بمحاولة أخرى لم يقدر لها النجاح مثل سابقتها، إذ أن كثيراً منهم قد قضى نحبه فى الصحراء قبل أن يصلوا إلى وداى (برقو). والذين وصلوا هناك كان عليهم أن يرجعوا عن طريق فزان. ولكنهم كانوا يخشون غدر تجار فزان. وعندما اضطروا إلى السير فى هذا الطريق المهلك، فإن القليل منهم رجعوا إلى

عقيلة. ورغم ذلك، فإن عزيمة تجار الرقيق كانت أقوى من أن يدب اليأس فى نفوسهم. ففى عام ١٨١٤ وصلت جماعة من عرب عقيلة مرة أخرى من نفس الطريق إلى وداى (برقو)، ونجحت فى أن تحتفظ طريقها راجعة إلى مدينتها (عقيلة). وقد كانت الأرباح التى حصلوا عليها من بيع الرقيق الذى جاءوا به من برقو كفيلة بأن تنسيهم الصعاب التى واجهوها فى رحلتهم التجارية إليها. ولسوف تستمر دون شك تلك التجارة[ص٤٨٩]. ويختم "بوركهارد" حديثه عن العلاقات بين مملكة برقو وكل من طرابلس وفزان بشمال إفريقية (ليبيا حالياً) بقوله وإن "بك" طرابلس وكذلك رئيس فزان يتبادلان الهدايا مع سلطان برقو" [ص٤٨٩].

مصادر البحث

أولاً- المصدر الأصلى

- Burchardt, J. L. Travels in Nubia, London, 1819.

ثانياً- المصادر الثانوية

- ترجمة الخطاب رقم ٨٥ بتاريخ ١١ شوال سنة ١٢٥٩هـ - دفتر رقم ٨ عابدين من الجناب العالى إلى الباب العالى (وثيقة غير منشورة من قسم المحفوظات التاريخية (بقصر عابدين) - دار الوثائق القومية - القاهرة.
- نسيم مقار (دكتور): أحوال السودان الاقتصادية تحت الإدارة المصرية فى الفترة من ١٨٢١ - ١٨٤٨م، (رسالة دكتوراة غير مطبوعة - القاهرة سنة ١٩٥٩م)
- Budge, A.E.W. The Egyptian Sudan. Its History and Monuments. (2 Vols.), London, 1907.

الفصل الرابع

الرحالة وادنجتون "Waddington"

ظروف رحلته إلى السودان ودوافعها الرئيسية (عام ١٨٢٠-١٨٢١):

"جورج وادنجتون" George Waddington رحالة إنجليزى أغرم بالسياحة وقد زار بلاد أوروبا والشرق. واشتهر كرحالة إلى جانب شهرته كمؤرخ للكنيسة. وقد كان زميل كلية ترنتى بكمبردج Fellow of Trinity, Cambridge . كما تولى منصب أسقف مدينة دورهام Durham. ثم أختير محافظاً لجامعتها. (١)

أما عن زيارته للسودان فلم تكن متعمدة. فقد عزم على القيام برحلة إلى بلاد اليونان وآسيا الصغرى. وفى طريقه إلى اليونان مر بالبندقية (يناير ١٨٢٠). وهناك التقى بصديقه "برنارد هنبرى" Hanbry الذى وجده يستعد للقيام برحلة إلى مصر والنوبة لمشاهدة معالمها الأثرية، ويحدوه الأمل فى أن يتقدم جنوباً حتى دنقلة. وقد ألح "هنبرى" على "وادنجتون" فى أن يرافقه فى هذه الرحلة. وأخيراً وقع "وادنجتون" تحت تأثير وإقناع صديقه. وبعد أن أمضى "وادنجتون" و"هنبرى" الربيع ومعظم الصيف فى بلاد اليونان أبحرا إلى الأسكندرية، فوصلاها فى منتصف أغسطس عام ١٨٢٠. وهناك تأكد لهما ما سبق أن ترامى إلى مسامعهما من أن حملة بقيادة إسماعيل بن محمد على والى مصر قد غادرت القاهرة فى طريقها إلى الجنوب لضم البلاد الواقعة فيما وراء الشلال الثانى إلى إدارته. وقد وجدا فى هذه الحملة فرصة سانحة لتحقيق رغبتهما فى زيارة هذه البلاد، الأمر الذى كان من المحتمل ألا يتحقق لهما بنجاح تام لو لم تتح لهما هذه الفرصة. ومن ثم قررا مرافقة الحملة، وعرضا هذه الرغبة على الوالى الذى لم يبد تشجعياً كبيراً لهما، إلا أنه على الأقل لم يعترض عليها [ص٣، ٤].

وقد قدمهما إلى والى مصر القنصل الإنجليزى فى ذلك الوقت مستر "بيتر لى" Mr. Peter Lee الذى كان بحكم طبيعة عمله لا يمانع فى مد يد المعونة والمساعدة للمسافرين من بنى جنسه. وهناك إنجليزى آخر أبدى أيضاً عطفاً ملحوظاً على مشروع "وادنجتون" و"هنبرى" لزيارة بلاد النوبة، وشجعهما كثيراً على تنفيذه، وقدم لهما المعونة فى سبيل إنجاحه، يدعى مستر "براين" Brine. فعندما وجد هذا الإنجليزى أنه لا يرافقهما أحد من الأتراك، كما وأنهما لا يحملان أى خطاب توصية لأحد من ضباط الحملة، سعى إلى أن يمدهما بخطاب توصية من عابدين كاشف الرجل الثانى فى الحملة بعد إسماعيل. وقد

(1) Richard Hill; A Biog.. Dicti. of the Anglo - Egyptian Sudan. p. 375 & George Waddington: Journal of visit to some parts of Ethiopia. p. I.

كان "براين" جاراً وصديقاً لعابدين وقت أن كان الأخير حاكماً على إقليم المنيا فى صعيد مصر. ويعبر "وادنجتون" عن أهمية هذا الخطاب فى تحقيق رغبته فى هذه الرحلة بقوله "إنه بدونه كان سيصبح لحاقنا بالجيش أمراً عسيراً، ووصولنا إلى بلاد النوبة كان من المحتمل ألا يتحقق." ويضيف "وادنجتون" إلى ذلك "أن هذا العمل يعد من الخدمات الجليلة التى ندين بها لهذا الرجل الإنسان ذى النفس الكريمة." [ص ٤].

وفى ١٠ نوفمبر عام ١٨٢٠ وصل "وادنجتون" ورفيقه "هنبرى" إلى وادى حلفا، ومنها إلى بطن الحجر فى ١٢ نوفمبر. وفى ١٣ نوفمبر وصلا إلى دار السكوت، ومنها إلى دار المحس فى ١٨ نوفمبر. وفى ٢٢ نوفمبر وصلا إلى دنقلة. ومنها تابعا سيرهما إلى دار الشايقية التى وصلاها فى ٧ ديسمبر (عام ١٨٢٠). وبعد الوصول إلى دار الشايقية رغبا فى مواصلة تقدمهما جنوباً إلى سنار برفقة الحملة، ولكن رغبتهما لم تجد قبولاً لدى قائدها إسماعيل الذى كان لا يشعر بالارتياح التام لوجودهما مع جيشه فى تلك الأثناء. وسرعان ما طلب إليهما مغادرة البلاد دون إبطاء بحجة الحرص على سلامتهما وأمنهما مما قد يصيبهما من صعاب ومخاطر [ص١٠٥]. وعبثاً حاول "وادنجتون" أن يؤثر على إسماعيل لكى يعدل عن قراره السالف الذكر [ص١٤٨ - ١٥٤].

وقد علل "وادنجتون" عدم ارتياح إسماعيل قائد الحملة إليه وإلى زميله "هنبرى" وبالتالى إصراره على مغادرتهما البلاد دون أن يتيح لهما فرصة مواصلة تقدمهما جنوباً إلى سنار برفقة جيشه بقوله "إنه كان طبيعياً أن يرغب الباشا فى أن يريح نفسه من جماعة من الناس ليسوا فى خدمته، ولا يمكن أن يكونوا مفيدين له بطريقة من الطرق، حتى ولو كانوا من بعض الوجوه والاعتبارات مستقلين عنه. وبالإضافة إلى ذلك فهم مسيحيون لأن إسماعيل كان بعيداً عن الأخذ بآراء والده المتحررة فى هذا الشأن. وفوق هذا وذاك فإنه يحتمل أنهما تحت حماية إنجلترا. وقد تخيل أننا سنصبح فى هذه الحالة جواسيس على مقاصده. فهل كان إذن من الحكمة أن يحملنا معه على طول الطريق؟" [ص١٥٤].

ومهما يكن من الأسباب التى جعلت إسماعيل قائد الحملة لا يشعر بالارتياح نحو الرحالة "وادنجتون" وزميله "هنبرى" ويتخذ قراره الحاسم بمغادرتهما البلاد، فإن مما لا شك فيه أن هذا القرار كان له أثره الخطير فى أن تنتهى رحلتهما فى السودان عند دار الشايقية، فى حين أتيحت لغيرهما من الأجانب الذين كانوا برفقة إسماعيل فرصة التقدم جنوباً مع جيشه إلى سنار بل إلى ما ورائها. على أن «وادنجتون» لا ينكر فى الوقت نفسه الخدمات التى أداها له ولزميله «هنبرى» بعض كبار المسئولين فى الحملة، وبخاصة عابدين كاشف نائب إسماعيل. ومن هذه الخدمات مدهما بجميع لوازم الرحلة، ووضع الحراسة الكافية لسلامتهما طيلة مدة سياحتهما فى هذه البلاد.

ولقد سجل «وادنجتون» و «هنبرى» مشاهداتهما ودراساتهما المختلفة فى هذه

الأقاليم فى كتاب نشر فى لندن عام ١٨٢٢ تحت عنوان : "Journal of a Visit to Some Parts of Ethiopia" ، وكان تأليف هذا الكتاب من نصيب «وادنجتون» الذى يشير فى مقدمته إلى «أن كلا منهما كان يحتفظ بجورنال يسجل فيه أخبار الرحلة، وأنهما تبادلا الرأى سوياً فى تصنيف الكتاب. وأنه كان من نصيبه القيام بمهمة تأليفه». ويختتم «وادنجتون» حديثه هذا بقوله «وإنى لأشعر الآن بأن هذا العمل أبعد من أن يكون تمييزاً خاصاً لشخصى طمعت فى الحصول عليه [ص٣٦].

تبرز أهمية الرحلة انها تمت أثناء تقدم حملة إسماعيل في هذه البلاد، لذلك تعد بحق المصادر الأولية التى لا غنى للباحث فى تاريخ الحملة عنها. كذلك تبرز أهمية الرحلة إهتمام وادنجتون بدراسة قيام دولة المماليك فى دنقلة التى أمدنا بكثير من الحقائق والأخبار الهامة عنها.. هذا بالإضافة إلى الموضوعات التاريخية الأخرى الهامة مثل الأوضاع السياسية السائدة فى بعض أقاليمه قبل مجئ حملة إسماعيل إليها، وما كانت عليه علاقات الحكام بعضهم ببعض فى هذه الفترة. دراسة بعض نواحى الحياة الاجتماعية فى بعض المجتمعات فى السودان الشمالى مثل المجتمع الدنقلاوى والمجتمع الشايقى، كالعادات والتقاليد السائدة فى هذه المجتمعات، والآداب والفنون الشعبية التى اشتهرت بها، ومركز المرأة، والمكانة التى حظى بها رجال الدين والفقهاء فى المجتمع، وغير ذلك من الدراسات الاجتماعية. وفوق ذلك كله النجاح الذى حققه «وادنجتون» وزميله «هنبرى» فى أعمال البحث والتنقيب عن الآثار القديمة فى بعض جهات النوبة، إلى الحد الذى يذهب معه «بدج Budge» أحد المهتمين بدراسة الآثار القديمة فى السودان إلى القول "بأن دراسة الآثار السودانية القديمة قد بدأت بإخراج «وادنجتون» و «هنبرى» كتاب رحلتهما فى السودان [ص٣٨، بدج]. فقد كان «وادنجتون» و «هنبرى» أول من نشر دراسة مفصلة عن آثار جبل البركل. كذلك يرجع إليهما الفضل -كما يؤكد «بدج» نفسه- فى القيام بأول محاولة علمية لوصف وتحقيق الآثار المصرية القديمة فى بلاد النوبة.

على أن المعلومات والأخبار التى أمدنا بها الرحالة «وادنجتون» عن مشاهداته ودراساته التى قام بها فى أقاليم النوبة التى قدر له ولزميله «هنبرى» زيارتها قد جاءت مبعثرة فى أماكن متفرقة من كتاب رحلتهما، وتحتاج إلى نوع من التنظيم والتبويب على النحو الذى ييسر للباحث أو الدارس مهمة الاستفادة منها. كذلك فإن إجلاء الحقيقة قد تطلب أحياناً مناقشة أقوال هذين الرحالتين الإنجليزيتين فى بعض ما تناولاه من الموضوعات على ضوء ما تتضمنه الوثائق الرسمية من ذلك العهد التى كانت محفوظة بدار الوثائق التاريخية القومية (قصر عابدين)، أو بمقارنتها بأقوال غيرهما من الرحالة الذين أتيحت لهم فرصة زيارة هذه البلاد فى ذلك الوقت بالذات وبرفقة الحملة ذاتها، ممن كانوا أسعد حظاً منهما فى التمتع بعطف ورعاية قائد الحملة، ومنهم الرحالة إنجلش English الأمريكى.

أولاً: مشاهدات «وادنجتون» ودراساته في إقليم دنقلة (عام ١٨٢٠م)

جاء الرحالة «وادنجتون» وزميله «هنبرى» إلى إقليم دنقلة فى ٢٢ نوفمبر عام ١٨٢٠م وقد استغرقت زيارتهما لهذا الإقليم زهاء أسبوعين تجولا خلالهما بين ربوعه ومعالمه المختلفة، إذ زارا جزيرة أرقو أكبر جزر هذا الإقليم، كما زارا مدنه الرئيسية ومناطقه الأثرية. وقد قام «وادنجتون» فى أثناء هذه الزيارة بدراسة بيئة الإقليم الطبيعية بعامة، وجزيرة أرقو بخاصة. وتحدث عن مدى استغلالها فى الزراعة، وأشار إلى مميزات الإقليم المناخية والنباتية والحيوانية، وبخاصة الخيول التى اشتهر الدناقلة بتربيتها. وقد عرض «وادنجتون» لأقوال الرحالة وآرائهم فى خصائص الخيول الدنقلاوية ومميزاتها. كما وصف المدن الرئيسية فى الإقليم، وتناول بصفة خاصة مدينة "دنقلة العجوز" والأطوار التى مرت بها فى العصور التاريخية المختلفة من واقع مشاهدات الرحالة الذين قدر لهم زيارتها خلال تلك العصور. كذلك عنى «وادنجتون» بوصف مدينة «مراغة-دنقلا العرضي» التى أنشأها المماليك الذين فروا من مصر عقب مذبحة القلعة لتكون مقر حكومتهم التى أقاموها فى هذا الإقليم بعد أن حلوا به.

ولم تقتصر مشاهدات «وادنجتون» ودراساته فى إقليم دنقلة على بيئة الإقليم الطبيعية أو مدنه الرئيسية فحسب، وإنما تضمنت أيضاً المجتمع الدنقلاوى ذاته والحياة الروحية لأهل دنقلة، والاهتمام بالتعليم الدينى فى هذا الإقليم. فقد أشار إلى ظاهرة انتشار أماكن تعليم القرآن الكريم فى أجزاء الإقليم المختلفة، وإلى ما يقوم به الوعاظ المتجولون من الكبابيش بصفة خاصة فى هذا السبيل. كما أشار إلى وجود مدارس يتعلم فيها الأطفال مبادئ القراءة والكتابة، إلى جانب حفظ القرآن الكريم(١). وقد حدثنا عن السادة (شيوخ الإسلام) الذين يقومون بوظيفة التعليم، وما يتمتع به هؤلاء من مكانة سامية فى المجتمع. كما حدثنا عن أساليب تعليم الأطفال وطرق تأديبهم، وأنواع الأخطاء التى كانوا يعاقبون عادة من أجلها. وقد حدثنا عن الأضرحة التى تقام لمن اشتهر من الفقهاء وشيوخ الإسلام بالصلاح والتقوى فى حياته الدنيا، لتضم رفاتهم الطاهرة حيث يتبارك الناس بزيارتها، وينعمون بالأمن والسلام فى ظلها عندما تتهددهم بادرة خطر. وقد أشاد بصفة عامة بما يتحلى به هؤلاء الشيوخ والفقهاء فى دنقلة من الخصال والصفات الحميدة التى زادت من تعلق المواطنين بهم وتقديرهم لهم.

---

(١) ويقصد بها الخلاوي (جمع خلوة) وقد كانت إلي جانب المساجد والجوامع والزوايا من أهم أماكن العلم في ذلك الحين

وعني وادنجتـون بدراسـة آدابهم وفنونهم الشـعبيـة فقـد تناول الحديث عن طائفة المداحين والمنشدين والشعراء المتجولين. وعرض لبعض أزجالهم ومواويلهم الشعبية التى استمع إليها فى المناسبات المختلفة. وقد تناولها بالنقد والتحليل بعد أن ترجمت له فى حينها إلى اللغة الإنجليزية. وقد سره بعضها، وعبر عن إعجابه وتقديره لقائليها. كما وصف لنا أنواع الغناء والرقص الشعبى الذى شاهده فى الحفلات الشعبية العامة، وفى بعض الحفلات الخاصة التى دعاه إليها بعض الشخصيات البارزة فى الإقليم. كذلك تناول «وادنجتون» مركز المرأة فى المجتمع الدنقلاوى، إذ أشار إلى ما تتمتع به من حقوق شرعية كحقها فى الميراث، وإلى ما تتحلى به من الصفات الطيبة التى أكسبتها احترام المجتمع وتقديره لها.

وفضلاً عن ذلك عرض «وادنجتون» فى مواضع متفرقة من كتاب رحلته لبعض العادات والتقاليد السائدة بين أهل دنقلة، كتلك التى تتعلق بأنواع الطعام والشراب التي يقبلون على تناولها، ومنها عادة شرب العرقي والمريسة المنتشرة بينهم. كما أشار إلى معتقداتهم فى السحر والشعوذة. كذلك أشار إلى طبائعهم وأخلاقهم، والصفات والخصال التى تميزهم عن غيرهم. ومن الموضوعات الاجتماعية الأخرى الهامة التى عالجها الرحالة «وادنجتون» موضوع الجريمة والعقاب فى المجتمع الدنقلاوى، إذ أشار إلى أنواع الجرائم التى يعاقب عليها عادة المجتمع، وإلى العقوبات التى تفرض على مرتكبيها وغير ذلك من أنظمة الحكم التى تبدو متأثرة بتعاليم الإسلام.

لفت نظر «وادنجتون». أثناء زيارته لبعض أقاليم النوبة نزعة سكان هذه الأقاليم الدينية وتمسكهم بعقيدتهم الإسلامية التى تجلت له فى صور ومظاهر دينية مختلفة عبر عنها -كما سبق أن أوضحنا- فى حديثه عن معالم المجتمع الدنقلاوى. ومنها انتشار الخلاوى وأماكن تحفيظ القرآن الكريم، والمكانة السامية التى تمتع بها الفقهاء والمشايخ فى نفوس الناس وإقامة الأضرحة للصالحين من أولياء الله. وهى ظاهرة اجتماعية عنى «وادنجتون» بدراستها وإبرازها فى كتاب رحلته. وربما كان لاشتغال «وادنجتون» بالشئون الدينية فى إحدى مراحل حياته، إذ عمل -كما قدمنا- أسقفاً لمدينة درهام Durham بانجلترا قبل أن يشتهر كرحالة، أثره فى اهتمامه بهذا الجانب الدينى الهام فى حياة المجتمعات النوبية التى قدر له زيارتها.

بيد أن المتتبع لمشاهدات هذا الرحالة فى بلاد النوبة يلاحظ أن اهتمامه بدراسة النزعة الدينية فى المجتمعات النوبية لم تقتصر على إبراز تلك الصور والمظاهر الدينية الدالة على تمسك سكان هذه البلاد بعقيدتهم الإسلامية، وإنما قد أمدتنا ببعض المعلومات والحقائق عن أنظمة الحكم هناك وقد حاول من خلالها أن يلقى الضوء على مدى تأثر هؤلاء الناس بتعاليم القرآن الكريم فى نظم حكمهم، إذ يقول «إن الأمراء الصغار الذين يحملون لقب شيخ أو كاشف أو ملك، يبدو أنهم لم يكونوا ظالمين كلية.

فقد كانوا يعتبرون أنفسهم حكاماً بإرادة الله ليحكموا الناس بعدالة القرآن. وهو القانون الوحيد كما هو التعليم الوحيد للمسلمين. وفيما يختص بجرائم القتل فإن الملك قد يعاقب بالموت. أما فى حالة السرقة فليس إلا أن يضرب الجانى بالنبوت. ولا يوجد تدرج فى العقاب. كما لا يسمع عن عقوبات بتر أعضاء الجسم أو الكى بالنار، أو الإخصاء. كذلك لا يوجد عقاب وسط بين النبوت والموت [ص ٢٥٢]. ويستطرد قائلاً «أما القوانين الخاصة بحماية ممتلكات الرعية فتبدو أنها غير محددة أو واضحة، أما فيما يتعلق بقوانين حماية السكان فلا يوجد شئ من هذا القبيل. ولولا الاحتماء باسم محمد على لما كان هناك أمل فى تجول الأجانب فى هذه البلاد فى أمن وسلام [ص ٢٤٠].

أما عن اهتمام الرحالة «وادنجتون» وزميله «هنبرى» بالتنقيب عن الآثار القديمة فى إقليم دنقلة، فقد كان واضحاً، وبخاصة فى جزيرة أرقو. والحقيقة أن هذين الرجلين قد بذلا كل ما فى وسعهما، ولم يدخرا وسعاً من أجل تحقيق الهدف العلمى، على الرغم من الصعوبات والعراقيل التى اعترضت طريقهما فى هذا الشأن. ومنها ما يرجع -على حد قوله- إلى إحجام المواطنين وإعراضهم عن مساعدتهما فى أعمال الحفر والتنقيب عن الآثار القديمة. يضاف إلى ذلك أن عابدين كاشف الرجل الثانى فى حملة إسماعيل لم يكن يؤيد أثناء وجوده فى دنقلة قيام هذين الإنجليزيين بمثل هذه الأعمال. ومع ذلك فقد نجح الرجلان فى الكشف عن بعض المعابد والتماثيل فى جزيرة أرقو [ص ٢٣٩، ٢٤٠]. ولقد كان للملك طمبل ملك أرقو الذى نجح «وادنجتون» فى كسب صداقته أثر كبير فى نجاح هذه المهمة العلمية، إذ بعث إليهما بعدد من حراسه المسلحين بالسيوف والبنادق ليكونوا برفقتهما. ويؤكد الرحالة «وادنجتون» "أنه لم يكن فى الإمكان مواصلة البحث والتنقيب عن الآثار القديمة فى المنطقة دون مساعدة هؤلاء الرحال، إذ أنه من الصعوبة بمكان أن تحمل سكان هذه الجهات على القيام بهذه الخدمة. وقد رفضوا رفضاً باتاً أن يتحركوا حتى تدفئ الشمس الدنيا (على حد تعبيرهم). فقد أمكن بطريق إثارة الفزع فى نفوسهم حمل سبعة رجال منهم على أكثر تقدير على العمل لمدة ست أو سبع ساعات. ومع ذلك لم يكن عملهم غير مثمر تماماً، فقد كشفوا عن رأس تمثال الخرتيت الأسود الجالس، وكذلك أساس الحائط السميك." [ص ٢٥٢].

الاهتمام بقصة المماليك فى دنقلة:

ومن الموضوعات التاريخية الهامة التى عنى «وادنجتون» بدراستها فى أثناء زيارته لإقليم دنقلة قصة المماليك الذين أقاموا لهم ملكاً فى هذا الإقليم عقب فرارهم إلى السودان بعد مذبحة القلعة. وقد مكنته علاقاته الشخصية مع بعض ملوك النوبة وزعمائها ممن عاشوا أحداث هذه القصة، وبخاصة الذين أسهموا فى بعض أدوارها مثل الملك طمبل

من الوقوف على الكثير من تفاصيلها . هذا إلى جانب إلمامه بأقوال الرحالة السابقين الذين عرضوا لهذا الموضوع التاريخى مثل بوركهارد . بيد أن « وادنجتون » -فيما يبدو من معالجته له- كان أكثر اهتماماً وعمقاً فى دراسته، فقد جاء بالمزيد من المعلومات والحقائق عن أخبار هؤلاء المماليك، وبخاصة فيما يتعلق بأخبار الدولة التى أقاموها فى دنقلة، والانطباعات التى تركها حكمهم فى بعض نواحى حياة سكان هذا الإقليم النوبى.

وقد أزاح « وادنجتون » بنفسه الستار عن سر اهتمامه بمتابعة قصة هؤلاء الناس فى بداية حديثه عنهم. فقد جاء على لسانه قوله "إنه سوف يلتمس لى العذر إذا تابعت باختصار (وباهتمام) قصة جماعة من الناس يرتبط تاريخهم لسوء الحظ من نقطة واحدة بتاريخنا (تاريخ بريطانيا)" [ص ٢٢٥]. ثم يقول "وإذا كانت قوة بأسهم التى تعزى إلى شجاعتهم، وكثرة عددهم لم تستمر طويلاً، فإنهم على أقل تقدير قد أصبحوا جديرين بالاهتمام من حيث سوء الحظ الذى أخذ يلاحقهم." [ص ٢٢٥]. ويستطرد قائلاً "وأولئك الذين لا يثير فى نفوسهم الإعجاب بهؤلاء المماليك باعتبارهم أحسن فرسان العالم رشاقة وأكثرهم شجاعة، سوف يحسون بالعطف والشفقة نحو جماعة هام أفرادها على وجوههم واضطهدوا وعذبوا، وكانوا دائماً ضحية الغدر والخيانة." [ص ٢٢٥].

قد تناول « وادنجتون » الظروف التى واجهها هؤلاء المماليك عند دخولهم هذه البلاد، فأشار إلى حالة الانقسام والحرب التى كان عليها ملوك النوبة وزعماؤها فى ذلك الوقت، وإلى موقف المماليك من الأطراف المتنازعة، وإلى حروبهم مع الشايقية، أكبر قوة واجهتهم فى تقدمهم نحو الجنوب منذ غادروا الديار المصرية. كما تناول بنوع من التفصيل قيام دولتهم فى إقليم دنقلة. فتحدث عن حدود هذه الدولة، وعن نواحى نشاطهم الاقتصادى فيها والجهود التى بذلوها لتدعيم كيانها. فوصف نشاطهم التجارى فى "مراغة" (دنقلة الجديدة) التى يذكر أنه لم يمض وقت طويل على تأسيسها حتى غدت هذه المدينة مركزاً تجارياً كبيراً يؤمها التجار من مختلف جهات السودان حتى دارفور، وتباع السلع التى تعرض فيها بالأسعار التى تباع بها فى القاهرة. كما وصف نشاطهم الزراعي فى إقليم دنقلة والمشروعات الزراعية التى أدخلوها للنهوض بالزراعة فى هذا الإقليم. كذلك تناول « وادنجتون » فى مواضع متفرقة من حديثه عن المماليك الانطباعات التى تركها حكمهم فى حياة سكان الجهات التى خضعت لنفوذهم فى جنوب الوادى. فقد ذكر هذا الرحالة "إنه بتأثير الحكم المملوكى استمر سكان البلاد التى خضعت لسلطانهم يشعرون بقيمة الأسلحة وضرورة اقتنائها، بينما فى الجهات الأخرى مثل سكوت والمحس وهى أسبق الأقاليم السودانية إلى الخضوع للحكم المصرى. ليس للبندقية أو السيف إلا قيمة بسيطة. فقد كان أهل هذه الجهات يقولون موجهين القول إلينا « ما فائدة الأسلحة لنا؟ ألسنا تحت حماية الباشا » [ص ٢٥٤]. وفى موضع آخر من حديثه عن المماليك يصف لنا "وادنجتون" بعض مظاهر التقدم النسبى التى لاحظها بنفسه فى المناطق التى خضعت

لحكمهم فيقول "إنه كلما تقدمنا فى دولة (مملكة) المماليك بدت البلاد أكثر خصوبة وعمراناً بالسكان، والمنازل جميعها مبنية جيداً بالأحجار على النحو الذى يلاحظ على بناء الأسوار فى بعض مناطق إنجلترا." [ص ٢٢٩]. وهناك حقيقة أخرى تتعلق باختلاط المماليك بسكان البلاد الأصليين ومدى اندماجهم معهم، يشير إليها «وادنجتون»، إذ يقول "إن المماليك بعد أن استقروا فى دنقلة ببضعة شهور قاموا بإرجاع معظم زوجاتهم القاهريات، وتزوجوا من المواطنات النوبيات. وقد ظلت هؤلاء الزوجات مخلصات وفيات لأزواجهن المماليك حتى فى أواخر أيامهم التعسة وبعد فرارهم من دنقلة. وقد كن يواسين أنفسهن بالقول "إن خروج المماليك من البلاد كان بإرادة الله وليس بإرادة الباشا" [ص ٢٢٩].

ثم يتناول «وادنجتون» الحديث عن زيارته المماليك فى السودان، فيصف لنا ما كانت عليه أحوالهم من الضعف والانحلال عندما جاءت حملة إسماعيل لتقضي على البقية الباقية منهم القضاء المبرم وتمحو كل أثر لوجودهم فى هذه البلاد، وكيف أنهم اضطروا إلى الرحيل من دنقلة إلى شندى إزاء هذا الخطر الداهم الذى يتهددهم. وقد ظلوا فى شندى حتى دب دبيب الخوف فى قلب ملكها بعد أن وصلته أخبار انتصارات الباشا على الشايقية، فأمرهم بمغادرة أراضيه. ثم يأتى إلى نهاية قصة المماليك فى السودان فيحدثنا عما كان من تشتت شملهم شرقاً وغرباً، حيث اتجه القسم الأكبر منهم إلى دارفور، فى حين سار البعض الآخر فى اتجاه مضاد نحو شاطئ البحر الأحمر. وقد توقع «وادنجتون» أن يكون القضاء عليهم أو إبادتهم للمرة الأخيرة أمراً لا مفر منه [ص ٢٣٠]. وأخيراً يروى لنا أنه عندما رجع إلى مصر علم بأن القليل من المماليك ممن نسى أو تناسى ما لاقاه غيرهم من وعود محمد على قد ألقى نفسه تحت رحمة مهلكه [ص ٢٣٠].

ثانياً: مشاهدات وادنجتون ودراساته فى دار الشايقية

تعد زيارة «وادنجتون» لدار الشايقية على جانب كبير من الأهمية، بالنظر إلى ما تضمنته هذه الزيارة من مشاهدات ودراسات، قام بها، تنطوى على قيمة علمية فقد تناول «وادنجتون» وصف طبيعة الإقليم الجغرافية، حيث فتن بسحر الطبيعة وجمالها فى هذا الإقليم، وقارن بين هدوء الطبيعة فى هذه البلاد وطبيعة سكانها التى تميل إلى الخشونة والعنف. كما وصف المناطق الزراعية بها ومدى ما يبذل من جهد وعناية فى زراعتها.

ومن الدراسات الأخرى الهامة التى قام بها «وادنجتون» فى إقليم الشايقية خلال

زيارته له دراسة الآثار القديمة التي اشتهر بها. وقد عني بصفة خاصة بدراسة آثار جبل البركل من معابد وأهرام. وكذلك أهرام البلال التى تقع عند التلال التى تعرف باسمها. وإلى جانب ذلك تناول المعتقدات الدينية عند سكان النوبة القدماء وقارنها بمعتقدات قدماء المصريين، ومدى تأثرها بها، مشيراً إلى أقوال بعض المؤرخين القدامى فى هذا الشأن، أمثال هيرودوت Herodotus وجوزيف Josephns واسترابون Strabon وديودور Diodorus الصقلى.

وقد قام بدراسة واقعية لطبائع الشايقية وأخلاقهم وكذلك عاداتهم وتقاليدهم، وبخاصة ما يتعلق بنزعتهم الحربية وميلهم للقتال ولقد كانت حروبهم مع إسماعيل بن محمد على، وعلى وجه الخصوص معركة كورتى بين الطرفين التى عاش وادنجتون أحداثها عن كثب فرصة نادرة أتيحت له ليقف بنفسه على حقيقة خصال هؤلاء الشايقية وتقاليدهم فى الحرب والقتال ومنازلة الأعداء. والرحالة وادنجتون فى حديثه عن طبائع الشايقية وخصالهم يصفهم كشعب مقاتل له خصائص متميزة عن بقية الشعوب التى قابلها فى السودان خلال زيارته، إذ يقول "إنهم مشهورون بفروسيتهم وميلهم للقتال، وتفوقهم كجنود فرسان شجعان. وهم يعشقون الحرية، ويدافعون عنها بشجاعة." ويستطرد قائلاً "ولقد كان الشايقية فى حرب مع المماليك. وعلى الرغم من أنها كانت حرباً سجالاً واستمرت وقتاً طويلاً، إلا أنها لم تقض عليهم، كما لم تقض على المماليك"

ويصور لنا «وادنجتون» نزعة الشايقية الحربية وحبهم للقتال، وشجاعتهم النادرة فى مواجهة الأعداء -من واقع مشاهداته لقتالهم ضد قوات حملة إسماعيل عندما قدمت إلى أوطانهم- تصويراً رائعاً يقول فيه "إن الشايقية لا يتهيبون الهجوم على أعدائهم على نحو يدعو إلى الدهشة، فهم يسارعون لمنازلة عدوهم وجهاً لوجه بروح من الاستخفاف وعدم المبالاة، وبقلب منشرح كأنهم ذاهبون إلى احتفال أو مهرجان، أو تحت تأثير الإحساس بالسرور كأنهم قادمون على ملاقاة أصدقاء قدامى افترقوا عنهم منذ أمد طويل." [ص٩٨]. ويستطرد «وادنجتون» فى وصفه فيحدثنا عن تقاليد الشايقية فى الحرب بقوله "وعند النزول إلى أرض المعركة يعطون تحية السلام عليكم: سلام الموت التى يعقبها على الفور أن يقبض كل واحد على رمحه ويوجه به طعنات قاتلة، ويستقبل أخرى مع كلمات الحب التى تخرج من الشفاه." [ص ٩٨، ٩٩].

ويرى «وادنجتون» أن هذا اللون من الشجاعة النادرة التى يتحلى بها الشايقية فى الحرب والقتال، والتى تصل إلى حد الاستخفاف بالحياة وعدم المبالاة بالموت إنما هو قاصر عليهم دون غيرهم من الشعوب إذ يقول "إن هذا الازدراء بالحياة والاستخفاف بأكثر الأمور فزعاً، إنما هى اعتبارات خاصة بهم. فهم الشعب الوحيد الذى ينظر إلى الأسلحة وكأنها أدوات لهو ولعب، وإلى الحرب وكأنها لون من ألوان الرياضة، لا ينشدون من ورائها سوى مجرد التسلية. ولا يخشون فى الموت شيئاً. بل يجدن فيه الراحة." [ص

٩٩]. وهناك صفة أخرى يمتاز بها الشايقية ولا تقل عن صفة الشجاعة النادرة التى يتحلون بها، عبر عنها «وادنجتون» بقوله "إن الشايقية قد يتنازعون فيما بينهم، ويحارب بعضهم بعضاً. ولكنهم يتحدن عندما يواجهون خطراً مشتركاً من الخارج." [ص ٩٤].

وفضلاً عما تقدم، عنى وادنجتون بوصف خصائص الشايقية الجسمانية التي تتعلق بلون بشرتهم وتقاطيع وجههم وقوامهم، وقد أبدى إعجابه بلون بشرتهم إذ يقول "إن لون بشرة الشايقية الأسود الحالك -وهم يختلفون عن الزنوج فى كل ناحية- الذى يمتاز بصفائه ولمعانه قد بدا لعيونى غير المتحيزة أنه ألطف لون أختاره الله (لبنى البشر)".

كذلك قدم لنا «وادنجتون» من خلال معركة كورتى بعض الصور الرائعة لشجاعة نساء الشايقية ومشاركتهن للرجال فى الحرب بروح عالية. إذ يذكر هذا الرحالة "أن إشارة البدء بالهجوم عند الشايقية -كما عند غيرهم من العرب- تعطيها فتاة عذراء تلبس لباساً فاخراً وتمتطى هجيناً، ويحافظ الجميع على عفتها وطهرها بما فى ذلك الأعداء" [ص ٩٦]. ويضيف «وادنجتون» إلى ذلك "أن الإشارة التى تعطيها الفتاة ببدء الهجوم هى «ليللى - ليللى - لوو» وتكرر باستمرار وأن هذه الألفاظ ذاتها يعبر بها النساء عادة عن شعورهن بالبهجة والسرور فى الولائم والأفراح." [ص ٩٦].

على أن «وادنجتون» بعد أن يحدثنا عن نزعة الشايقية الحربية وشجاعتهم النادرة فى الحرب والقتال، كما وقف عليها بنفسه أثناء حروبهم مع إسماعيل، يؤكد بأن اعتقادهم فى السحر وأعمال الشعوذة كان له تأثير واضح لا يمكن إغفاله فيما قاموا به من أعمال بطولية خارقة للعادة ضد قوات كانت تفوقهم عدداً وعدة. فهم -على حد قوله- "قد اعتقدوا أن التعاويذ السحرية التى كتبها لهم السحرة والعرافون فى بلادهم ستمنحهم الغلبة والنصر المحقق على أعدائهم مهما كانت قوة هؤلاء الأعداء." [ص ١٠٠]. ويروى لنا «وادنجتون» فى حديثه عن معركة كورتى كيف أن الشايقية أصيبوا بخيبة أمل منقطعة النظير عندما أيقنوا بما لا يدع مجالاً للشك بأن عددهم أقوى من تعاويذهم السحرية. وقد كان أول عمل قاموا به - هو أنهم ساقوا إلى الموت هؤلاء السحرة والعرافين الذين غرروا بهم وخدعوهم على هذا النحو المشين [ص ١٠٠]. ومهما يكن من أمر فإن إسماعيل -كما يؤكد لنا «وادنجتون» نفسه قد عجز كلية عن القضاء على نزعة الشايقية الحربية بعد محاولات يائسة قام بها فى هذا السبيل لتحويلهم من شعب محارب إلى شعب مزارع يفلح الأرض وأخيراً رأى هذا القائد، وبعد أن أذهلته شجاعتهم النادرة فى محاربة قواته، أنه من الحكمة أن يستغل هذه النزعة وتلك الشجاعة التى اشتهروا بها فيما يخدم أغراضه العسكرية فى إتمام فتح السودان، وذلك بأن ألحق الكثيرين من فرسانهم بجيش الحملة.

ثالثاً: تسجيل أحداث حملة إسماعيل على السودان

على أن الرحالة «وادنجتون» لم يقتصر فى حديثه عن حملة إسماعيل على السودان التى جاء إلى هذه البلاد برفقتها على شرح قصة قائدها إسماعيل مع الشايقية وتسجيل أحداثها، مما سنعرض له بالتفصيل، بل تناول أيضاً من وجهة نظره الخاصة الأسباب التى رأى أنها تكمن من وراء إرسال محمد على هذه الحملة إلى السودان وقد ربطها بطموح الوالى الشخصى، إذ يقول "إن طموح محمد على هو أن يمتلك وادى النيل من منبعه إلى مصبه، وأن يكون سيداً على سكانه جميعاً ممن يشربون من مائه، من بلاد الحبشة جنوباً حتى البحر الأبيض المتوسط (شمالاً)" [ص ٩١]. ويستطرد قائلاً "وهذا الطموح جدير بأمير عظيم مثله، إن لم يكن ذلك بدافع الطمع. أما فيما يختص بمشروع فتح بلاد الحبشة فقد تركه عندما بلغه تأكيد رسمى بأن أى هجوم على هذه الدولة المسيحية سوف يوقعه فى صدام مع الحكومة الإنجليزية. ومن ثم اقتصرت فتوحاته على ممالك دنقلة، والشايقيه، وبربر، وشندى، وسنار. ويدخل ضمن هذا المشروع إبادة أعدائه القدامى من المماليك الذين بسطوا سلطانهم تماماً على دنقلة." [ص ٩١].

وبعد أن يعرض أهداف الحملة من وجهة نظره الشخصية، يتناول بالوصف قوتها العسكرية معبراً أيضاً عن مدى استعداداتها بالنسبة للمهام الموكلة إليها. فهو يرى أن تجهيزها بوجه عام لم يكن يتناسب مع ضخامة أهدافها، إذ يقول "إن الوسائل التى استخدمها (محمد على) تبدو لأول وهلة أنها بالكاد تتفق والغرض من استخدامها. فجميع القوة التى تضمنتها الحملة تبلغ عشرة آلاف رجل لا يزيد عدد المقاتلين منهم على أربعة آلاف مقاتل، وإثنى عشر مدفعاً هى التى جعلت من غير المستطاع مقاومتها." [ص ٩٢]. ثم يتحدث «وادنجتون» عن الجنود المرتزقة الذين تكون منهم كل جيش تقريباً، فيشرح نظام التحاقهم بالخدمة بصفة عامة، وفى الحملات العسكرية وهذه الحملة بصفة خاصة التى يقول إن الجنود فيها قد منحوا مرتب ستة شهور مقدماً قبل أن يغادروا مصر.

ثم يصف «وادنجتون» القوات التى كانت تضمها الحملة من الفرق النظامية وغير النظامية وأجناسها المختلفة. ويتناول بصفة خاصة الحديث عن فرسان البدو الذين كانوا عماد الحملة، فيصف أسلحتهم والأغانى التى ينشدونها ويقارن بين البدو الإفريقيين والبدو الأسيويين، ويشيد بضراوتهم جميعاً فى الحرب والقتال، وبمهارتهم الخاصة فى استعمال الرمح. ويعتبرهم أفضل الجنود غير النظامية وأقدرها على القتال حين يذكر "أن أحسن الجنود فى الحملة هم البدو الذين يبلغ عددهم حوالى ألف وخمسمائة

بدوى."[ص٩٢]. ويقول إن قسماً منهم فيما يبدو من سكان المنطقة التى قهرت على أيدى الباشا فى حملته تجاه معبد الإله أمون، وقسم آخر من المغاربة من سكان الصحارى المجاورة لطرابلس وتونس ومراكش. وجميعهم كانوا فرساناً وبعضهم كان لديه سونكى معلق على بندقيته."[ص ٩٢]. ثم يتحدث «وادنجتون» عن الجنود الألبانيين والجنود الأتراك فى حملة إسماعيل فيذكر "أنه كان هناك عدد كبير من الألبانيين، ولكنهم لا يكونون فى هذا الجيش (الحملة) كتائب متنوعة. كذلك يوجد كثير من الأتراك الأسيويين الذين كانوا أيضاً متفرقين تحت قيادات مختلفة." [ص ٩٣]. وأخيراً يشير «وادنجتون» إلى كبار القواد فى الحملة فيذكر "أن القواد الكبار فى الجيش (الحملة) هم عابدين كاشف وكوجى أحمد قائد (قومندان) البدو، وحسن دار، والسلحدار، وعمر كاشف. وجميعهم كانوا تحت إمرة القائد الأعلى للحملة.

أما عن سير الحملة فيصفه «وادنجتون» بقوله "إن الجيش غادر القاهرة مبكراً فى الصيف. وقد عبر الشلالات (الجنادل) فى أثناء الفيضان، وتقدم جنوباً دون مقاومة حتى وصل إلى دنقلة الجديدة التى وجد أن المماليك قد أخلوها، إذ كانوا قد انسحبوا منها منذ بضعة شهور إلى شندى." ويمضى «وادنجتون» فى القول "إن الخطوة التالية للجيش الزاحف كانت فى التقدم فى وجه الشايقية." [ص ٩٧]. الذين يقدر وادنجتون قوتهم العسكرية عند مجئ حملة إسماعيل إلى بلادهم بحوالى عشرة آلاف مقاتل، أكثر من ألفين منهم من الفرسان." [ص ٩٥].

وصف لنا «وادنجتون» قصة إسماعيل قائد الحملة مع الشايقية بكامل تفاصيلها وأدوارها المختلفة. كما عاش أحداثها وسمع أخبارها بنفسه فى أثناء زيارته لهذه البلاد. فهو يشرح بداية القصة بقوله "إن الباشا (إسماعيل) عند وصوله إلى دنقلة أرسل إلى الشايقية يأمرهم بالخضوع لوالده. فعبروا له عن استعدادهم لزراعة أراضيهم وتقديم الجزية المقررة. فطلب منهم أن يبرهنوا على ولائهم وإخلاصهم بإرسال أسلحتهم وخيولهم إليه. فأعادوا على مسامعه ما سبق أن رددوه، فأجابهم بأن والده قد أمره بأن يحولهم من أمة من المحاربين إلى أمة من المزارعين، وجدد ما طلبه منهم من قبل. فأجابوه بتحد سافر "إما أن تمضى إلى حال سبيلك، أو تأتى لتهاجمنا". فكان أن وجه الباشا قواته إلى تخومهم.

ثم يقص علينا كيف وقع أول صدام بين الشايقية وإسماعيل بالقرب من دنقلة العجوز عندما فوجئ هو وبعض قواده مع عدد قليل من الجند بجماعة من الشايقية يهجمون عليهم. ولكن سرعان ما ردوا على أعقابهم. وقد نجح عابدين فى أسر إبنة أحد زعمائهم وكانت عذراء. وقد أرسلها إسماعيل إلى والدها معززة مكرمة. ولكنه أمر فى الوقت نفسه بعرض بعض الألعاب النارية ليثير الرعب فى نفوس أعدائه. بيد أن أعداءه بالرغم من ذلك كانوا أقل شعوراً بالخوف مما تخيل أو توقع، إذ اكتفوا بالتعليق على الأسهم النارية وهى تنطلق فى الفضاء بقولهم "ما هذا؟ هل جاء ليحارب السماء؟". ويمضى «وادنجتون» فى

روايتـه قـائلاً "أن هذا المنظر زاد مـن شـجاعـتـهم، إذ أخـذوا يتـصـايحـون بالقـرب من معـسكرهم "إنك جئت لتحاربنا، وسواء جئت من الشمـال أو من الشرق أو من الغرب، فإننا على أى حال سنفنيك".

ويصف هذه المعـركة وصفاً دقيقاً يشرح فيه كيف أحاطت بمعـسكر إسماعيل قوة من الشايقية يتـراوح عددها بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف رجل، وكيف توالت هجمـاتـهم على قوات الحملة فى بداية المعركة، على الرغم من شدة ما قاسوه منها. ثم ما كـان من نجاح إسماعيل ونائبه عابدين فى السيطرة على زمام الموقف فى أرض المعـركة، بمـا أبداه من ضروب الشجاعة والبطولة لمواجهة بسالة الشايقية وإستماتتهم فى القتال. كما يصور لنا النهاية الحتمية للمعركة، فيشير إلى ماكان من إدراك الشايقية فى آخر الأمر للحقيقة الواقعة وهى عجز أسلحتهم البسيطة وتعاويذهم السحرية عن الصمود أمام أسلحة أعدائهم النارية. واضطر فرسانهم إلى الفرار لمعاودة الكرة من جديد.

وأخيراً يتناول الخسائر فى الأرواح التى تكبدها كلا الجانبين المتحاربين، فيؤكد أن عدد القتلى من مشاة الشايقية كان كبيراً إذا ما قورن بعدد القتلى من قوات إسماعيل. كما يعرض لأمثلة من أعمال البطولة النادرة التى قام بها الشايقية فى المعركة وأثارت دهشة الأتراك وانتزعت إعجابهم بهم. ولقد أبدى « وادنجتون » نفسه، من واقع ما شاهده وسمعه من بسالة الشايقية فى معركة كورتى، إعجابه الشديد بهم وتقديره لهم كشعب مناضل يبذل روحه رخيصة فى سبيل الدفاع عن حريته وكيانه.

على أن المتتبع لأقوال « وادنجتون » يرى أن المناوشات بين الشايقية وإسماعيل لم تنقطع بعد هزيمتهم فى معركة كورتى. فهو بعد أن يتحدث عن خسائر الفريقين فى المعركة، يشير إلى حادثتين معينتين وقع خلالهما اشتباك بين الطرفين راح ضحيتهما عدد قليل من الشايقية. هذا بخلاف المذبحة التى جاءت فى أعقاب المعركة. وقد أفرد لها « وادنجتون » مكاناً بارزاً فى كتاب رحلته تحت عنوان "Massacre of the Sheygyà" "مذبحة الشايقية" وصف فيه المذبحة وصفاً مثير [ص ١١٣، ١٢٤]. تناول فيه آثارها البشعة كما رآها فى الشوارع وفى الحقول وعلى شاطئ النهر. وعرض لتأثيرها السيئ والمؤلم فى نفوس من بقى من الشايقية على قيد الحياة، من واقع ملاحظاته ومشاهداته لقسمات وتعبيرات وجوههم، وكذلك من خلال الأحاديث التى تبادلها مع بعضهم.

على أن قصة إسماعيل مع الشايقية - كما يرويها لنا « وادنجتون » لم تنته بهذه المذبحة التى ذهب ضحيتها الكثيرون منهم، وإنما انتهت بعقد الصلح بين الطرفين، ولقد شرح لنا الظروف التى تم فيها ذلك الصلح بقوله "إنه فى تلك الأثناء كان الأتراك والشايقية فى مفاوضات مستمرة (للصلح). فقد حضر حفيد الملك "صبره" إلى المعسكر اليوم، ومثل أمام الباشا الذى أنعم عليه بعباءة وشال من كشمير. ثم ودعه بالحفاوة والإكرام البالغ." [ص ١٤٧]. ويستطرد وعلى هذا النحو أغرى بقية هؤلاء العرب التعساء

على الخضوع . وهم حينما ينتشرون فى سلام على أرض الإقليم سيحملون أكثرهم قوة وشجاعة على الإذعان." [ص ١٤٧]. ويختم بقوله "وهكذا سيصبح الشايقية حلفاء لقاهرهم وليسوا عبيداً له. وإن الشجاعة الجديرة بالنصر قد حصلوا على الأقل من ورائها على الراحة والخلاص من العبودية."

ولكن هل نجح إسماعيل، بعد أن عقد الصلح مع الشايقية وتم له خضوعهم لسلطانه، فى أن يقضى على نزعتهم الحربية، ويحولهم من شعب محارب يحرص على اقتناء الخيل والسلاح إلى شعب مزارع يفلح الأرض، ويعيش على زراعتها لغيرهم من شعوب بلاد النوبة؟ إن «وادنجتون» الذى عاش عن كثب قصة إسماعيل مع الشايقية بأدوارها وتفاصيلها المختلفة، وقد شاهد هزيمتهم على يديه، كان يظن أنهم لابد سيخضعون لرغبة الباشا وإرادته. فهو قد توقع لهم تلك الحياة فى قوله "وربما سيتحول الجيل الثاني للشايقية بعد سنوات قلائل، وربما في الوقت الحاضر إلى فلاحين يديرون الساقية مثل فلاحي مصر."[ص ١٠٢، ١٠٣]. على أن ما توقعه «وادنجتون» من تغيير جوهرى فى طبيعة حياة الشايقية بعد هزيمتهم على يد إسماعيل لم يحدث، ذلك أن النزعة الحربية فى هذا الشعب كانت أقوى من أن تضعف أو تستعلي إلى نزعة أخرى طابعها السلم. ولعل هذا ما أدركه محمد على أخيراً. فقد رأى بعد أن فشلت محاولاته في أن يحولهم إلى شعب مزارع يفلح الأرض ليعيش على خيراتها، أن يستغل تلك النزعة الأصيلة فيهم فيما يخدم أغراضه العسكرية نحو إكمال فتح الأقاليم الجنوبية التى لم يكن قد تم للحملة فتحها بعد. وهذا ما صرح به «وادنجتون»، حين يقول "إن مصير بقايا فرسان الشايقية لم يكن -تماماً- كما توقعنا. وهذا ما سمعناه على لسان محمد على نفسه، خلال زيارة له قمنا بها على أثر عودتنا إلى القاهرة. فحالاً عقب رحيلنا من المعسكر -اتفق على أن القسم الأكبر منهم الذى أبقى على خيوله وأسلحته التي حارب من أجل الحفاظ عليها سوف يدخل في خدمة إسماعيل باشا، وينضم إلى جيشه فى زحفه على الشعوب الجنوبية التى كانت أيضاً فى حالة عداء معهم."

رابعاً: دراسة بعض القبائل العربية فى السودان:

لقد عنى الرحالة «وادنجتون» أثناء رحلته فى بلاد النوبة بدراسة بعض القبائل العربية من حيث الخصال والتقاليد التى يتميزون بها. ويبدو أن المعلومات والحقائق التى أمدنا بها فى هذا الشأن قد جاءت من واقع معايشته وتعامله مع بعض أفرادها، أو بطريق الاستقصاء من المسافرين الذين سبق أن تعاملوا معها أثناء رحلاتهم إلى هذه البلاد. ومن هذه القبائل الكبابيش والعبابدة. وهم من القبائل العربية فى السودان التى اشتهرت بقيادة القوافل التجارية والمسافرين عبر الطرق الصحراوية لخبرتهم بها، وبخاصة الطرق التى

ربطت بين السودان ومصر.

فهو يحدثنا عن بعض الخصال الطيبة التي يتحلى بها الكبابيش بقوله "إن جميع أفراد قبيلتهم -كما أكدوا لي- يعرفون القراءة والكتابة. وبعضهم يعملون وعاظاً في القرى يتلون القرآن ويقومون بتفسيره. وأغلب القرى التي يذهب إليها هؤلاء الكبابيش توجد فيها بعض المباني التي شيدت من أجل هذا الغرض." ويصف «وادنجتون» حقيقة مشاعر هؤلاء الكبابيش نحو حملة إسماعيل باشا على السودان من واقع ملاحظاته الشخصية يصف حقيقة هذه المشاعر بقوله "ولقد عبر الكبابيش عن ابتهاجهم بانتصارات إسماعيل باشا."

أما العبابدة فقد وصفهم الرحالة «وادنجتون» وصفاً مغايراً ولا يتفق مع وصف من سبقوه من الرحالة مثل الرحالة "بوركهارد" الذى زار بلاد السودان (عام ١٨١٣-١٨١٤)، وقد تعرف بهؤلاء العبابدة عن كثب وتعامل معهم." [ص ١٤٩، ١٧٤، ٢٣٦ بوركهارد]. يقول في وصف خصال العبابدة وطباعهم "إن العبابدة يتمتعون بسمعة سيئة بين المسافرين يرددون دائماً أعمال الغدر والخيانة والعنف التي يعاملون بها من قبل هؤلاء." على أن «وادنجتون» يستطرد قائلاً "ولكنهم (العبابدة) كأفراد حسب اعتقادى - أمناء كرماء غير مسئولين عن سلوك العبابدة كجماعة من السوقة والرعاع." [ص ٨٦، ٨٧، ٩٤، ٩٥، ٣٠١ وادنجتون].

مصادر البحث

أولاً- المصدر الأصلي

Waddington. G. & Hanbury. B.: Journal of a Visit to Some Parts of Ethiopia, London, 1822.

ثانياً- المصادر الثانوية

١- وثائق غير منشورة من قسم المحفوظات التاريخية (بقصر عابدين) «دار الوثائق القومية».

٢- فردريك بنولا : مصر والجغرافيا - تعريب أحمد ذكى.

1- Budge. E. A. The Egyptian Sudan, Its History and Monuments (2 vols.), London, 1907.

2- Burchardt. T. L., Travels in Nubia, London, 1819.

3- Cailliaud. W., Voyage à Méroé (4 vols.), Paris, 1826.

4- Hill. R. L. A., Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan, Oxford, 1951.

الفصل الخامس

الرحالة وادنجتون "Waddington"

ظروف رحلته إلى السودان ودوافعها الرئيسية (عام ١٨٢٠-١٨٢١):

"جورج وادنجتون" George Waddington رحالة إنجليزى أغرم بالسياحة وقد زار بلاد أوروبا والشرق. واشتهر كرحالة إلى جانب شهرته كمؤرخ للكنيسة. وقد كان زميل كلية ترنتى بكمبردج Fellow of Trinity, Cambridge . كما تولى منصب أسقف مدينة دورهام Durham . ثم أختير محافظاً لجامعتها. (١)

أما عن زيارته للسودان فلم تكن متعمدة. فقد عزم على القيام برحلة إلى بلاد اليونان وآسيا الصغرى. وفى طريقه إلى اليونان مر بالبندقية (يناير ١٨٢٠). وهناك التقى بصديقه "برنارد هنبرى" Hanbry الذى وجده يستعد للقيام برحلة إلى مصر والنوبة لمشاهدة معالمها الأثرية، ويحدوه الأمل فى أن يتقدم جنوباً حتى دنقلة. وقد ألح "هنبرى" على "وادنجتون" فى أن يرافقه فى هذه الرحلة. وأخيراً وقع "وادنجتون" تحت تأثير وإقناع صديقه. وبعد أن أمضى "وادنجتون" و"هنبرى" الربيع ومعظم الصيف فى بلاد اليونان أبحرا إلى الأسكندرية، فوصلاها فى منتصف أغسطس عام ١٨٢٠. وهناك تأكد لهما ما سبق أن ترامى إلى مسامعهما من أن حملة بقيادة إسماعيل بن محمد على والى مصر قد غادرت القاهرة فى طريقها إلى الجنوب لضم البلاد الواقعة فيما وراء الشلال الثانى إلى إدارته. وقد وجدا فى هذه الحملة فرصة سانحة لتحقيق رغبتهما فى زيارة هذه البلاد، الأمر الذى كان من المحتمل ألا يتحقق لهما بنجاح تام لو لم تتح لهما هذه الفرصة. ومن ثم قررا مرافقة الحملة، وعرضا هذه الرغبة على الوالى الذى لم يبد تشجعياً كبيراً لهما، إلا أنه على الأقل لم يعترض عليها [ص٣، ٤].

وقد قدمهما إلى والى مصر القنصل الإنجليزى فى ذلك الوقت مستر "بيتر لى" Mr. Peter Lee الذى كان بحكم طبيعة عمله لا يمانع فى مد يد المعونة والمساعدة للمسافرين من بنى جنسه. وهناك إنجليزى آخر أبدى أيضاً عطفاً ملحوظاً على مشروع "وادنجتون" و"هنبرى" لزيارة بلاد النوبة، وشجعهما كثيراً على تنفيذه، وقدم لهما المعونة فى سبيل إنجاحه، يدعى مستر "براين" Brine. فعندما وجد هذا الإنجليزى أنه لا يرافقهما أحد من الأتراك، كما وأنهما لا يحملان أى خطاب توصية لأحد من ضباط الحملة، سعى إلى أن يمدهما بخطاب توصية من عابدين كاشف الرجل الثانى فى الحملة بعد إسماعيل. وقد

(1) Richard Hill: A Biog., Dict. of the Anglo - Egyptian Sudan p. 375 & George Waddington: Journal of visit to some parts of Ethiopia. p. 1.

كان "براين" جاراً وصديقاً لعابدين وقت أن كان الأخير حاكماً على إقليم المنيا فى صعيد مصر. ويعبر "وادنجتون" عن أهمية هذا الخطاب فى تحقيق رغبته فى هذه الرحلة بقوله "إنه بدونه كان سيصبح لحاقنا بالجيش أمراً عسيراً، ووصولنا إلى بلاد النوبة كان من المحتمل ألا يتحقق." ويضيف "وادنجتون" إلى ذلك "أن هذا العمل يعد من الخدمات الجليلة التى ندين بها لهذا الرجل الإنسان ذى النفس الكريمة." [ص ٤].

وفى ١٠ نوفمبر عام ١٨٢٠ وصل "وادنجتون" ورفيقه "هنبرى" إلى وادى حلفا، ومنها إلى بطن الحجر فى ١٢ نوفمبر. وفى ١٣ نوفمبر وصلا إلى ذار السكوت، ومنها إلى دار المحس فى ١٨ نوفمبر. وفى ٢٢ نوفمبر وصلا إلى دنقلة. ومنها تابعا سيرهما إلى دار الشايقية التى وصلاها فى ٧ ديسمبر (عام ١٨٢٠). وبعد الوصول إلى دار الشايقية رغبا فى مواصلة تقدمهما جنوباً إلى سنار برفقة الحملة، ولكن رغبتهما لم تجد قبولاً لدى قائدها إسماعيل الذى كان لا يشعر بالارتياح التام لوجودهما مع جيشه فى تلك الأثناء. وسرعان ما طلب إليهما مغادرة البلاد دون إبطاء بحجة الحرص على سلامتهما وأمنهما مما قد يصيبهما من صعاب ومخاطر [ص١٠٥]. وعبثاً حاول "وادنجتون" أن يؤثر على إسماعيل لكى يعدل عن قراره السالف الذكر [ص١٤٨ - ١٥٤].

وقد علل "وادنجتون" عدم ارتياح إسماعيل قائد الحملة إليه وإلى زميله "هنبرى" وبالتالى إصراره على مغادرتهما البلاد دون أن يتيح لهما فرصة مواصلة تقدمهما جنوباً إلى سنار برفقة جيشه بقوله "إنه كان طبيعياً أن يرغب الباشا فى أن يريح نفسه من جماعة من الناس ليسوا فى خدمته، ولا يمكن أن يكونوا مفيدين له بطريقة من الطرق، حتى ولو كانوا من بعض الوجوه والاعتبارات مستقلين عنه. وبالإضافة إلى ذلك فهم مسيحيون لأن إسماعيل كان بعيداً عن الأخذ بآراء والده المتحررة فى هذا الشأن. وفوق هذا وذاك فإنه يحتمل أنهما تحت حماية إنجلترا. وقد تخيل أننا سنصبح فى هذه الحالة جواسيس على مقاصده. فهل كان إذن من الحكمة أن يحملنا معه على طول الطريق؟" [ص١٥٤].

ومهما يكن من الأسباب التى جعلت إسماعيل قائد الحملة لا يشعر بالارتياح نحو الرحالة "وادنجتون" وزميله "هنبرى" ويتخذ قراره الحاسم بمغادرتهما البلاد، فإن مما لا شك فيه أن هذا القرار كان له أثره الخطير فى أن تنتهى رحلتهما فى السودان عند دار الشايقية، فى حين أتيحت لغيرهما من الأجانب الذين كانوا برفقة إسماعيل فرصة التقدم جنوباً مع جيشه إلى سنار بل إلى ما ورائها. على أن «وادنجتون» لا ينكر فى الوقت نفسه الخدمات التى أداها له ولزميله «هنبرى» بعض كبار المسئولين فى الحملة، وبخاصة عابدين كاشف نائب إسماعيل. ومن هذه الخدمات مدهما بجميع لوازم الرحلة، ووضع الحراسة الكافية لسلامتهما طيلة مدة سياحتهما فى هذه البلاد.

ولقد سجل «وادنجتون» و «هنبرى» مشاهداتهما ودراساتهما المختلفة فى هذه الأقاليم فى كتاب نشر فى لندن عام ١٨٢٢ تحت عنوان: "Journal of a Visit to Some

"Parts of Ethiopia ، وكان تأليف هذا الكتاب من نصيب « وادنجتون » الذى يشير فى مقدمته إلى « أن كلا منهما كان يحتفظ بجورنال يسجل فيه أخبار الرحلة، وأنهما تبادلا الرأى سوياً فى تصنيف الكتاب. وأنه كان من نصيبه القيام بمهمة تأليفه » . ويختتم « وادنجتون » حديثه هذا بقوله « وإنى لأشعر الآن بأن هذا العمل أبعد من أن يكون تمييزاً خاصاً لشخصى طمعت فى الحصول عليه [ص٣٦].

تبرز أهمية الرحلة انها تمت أثناء تقدم حملة إسماعيل في هذه البلاد، لذلك تعد بحق المصادر الأولية التى لا غنى للباحث فى تاريخ الحملة عنها. كذلك تبرز أهمية الرحلة إهتمام وادنجتون بدراسة قيام دولة المماليك فى دنقلة التى أمدنا بكثير من الحقائق والأخبار الهامة عنها.. هذا بالإضافة إلى الموضوعات التاريخية الأخرى الهامة مثل الأوضاع السياسية السائدة فى بعض أقاليمه قبل مجئ حملة إسماعيل إليها، وما كانت عليه علاقات الحكام بعضهم ببعض فى هذه الفترة. دراسة بعض نواحى الحياة الاجتماعية فى بعض المجتمعات فى السودان الشمالى مثل المجتمع الدنقلاوى والمجتمع الشايقى، كالعادات والتقاليد السائدة فى هذه المجتمعات، والآداب والفنون الشعبية التى اشتهرت بها، ومركز المرأة، والمكانة التى حظى بها رجال الدين والفقهاء فى المجتمع، وغير ذلك من الدراسات الاجتماعية. وفوق ذلك كله النجاح الذى حققه « وادنجتون » وزميله « هنبرى » فى أعمال البحث والتنقيب عن الآثار القديمة فى بعض جهات النوبة، إلى الحد الذى يذهب معه « بدج Budge » أحد المهتمين بدراسة الآثار القديمة فى السودان إلى القول "بأن دراسة الآثار السودانية القديمة قد بدأت بإخراج « وادنجتون » و « هنبرى » كتاب رحلتهما فى السودان [ص٣٨، بدج]. فقد كان « وادنجتون » و « هنبرى » أول من نشر دراسة مفصلة عن آثار جبل البركل. كذلك يرجع إليهما الفضل –كما يؤكد « بدج » نفسه– فى القيام بأول محاولة علمية لوصف وتحقيق الآثار المصرية القديمة فى بلاد النوبة.

على أن المعلومات والأخبار التى أمدنا بها الرحالة « وادنجتون » عن مشاهداته ودراساته التى قام بها فى أقاليم النوبة التى قدر له ولزميله « هنبرى » زيارتها قد جاءت مبعثرة فى أماكن متفرقة من كتاب رحلتهما، وتحتاج إلى نوع من التنظيم والتبويب على النحو الذى ييسر للباحث أو الدارس مهمة الاستفادة منها. كذلك فإن إجلاء الحقيقة قد تطلب أحياناً مناقشة أقوال هذين الرحالتين الإنجليزيتين فى بعض ما تناولاه من الموضوعات على ضوء ما تتضمنه الوثائق الرسمية من ذلك العهد التى كانت محفوظة بدار الوثائق التاريخية القومية (قصر عابدين)، أو بمقارنتها بأقوال غيرهما من الرحالة الذين أتيحت لهم فرصة زيارة هذه البلاد فى ذلك الوقت بالذات وبرفقة الحملة ذاتها، ممن كانوا أسعد حظاً منهما فى التمتع بعطف ورعاية قائد الحملة، ومنهم الرحالة إنجلش English الأمريكى.

أولاً: مشاهدات «وادنجتون» ودراساته في إقليم دنقلة (عام ١٨٢٠م)

جاء الرحالة «وادنجتون» وزميله «هنبرى» إلى إقليم دنقلة فى ٢٢ نوفمبر عام ١٨٢٠م وقد استغرقت زيارتهما لهذا الإقليم زهاء أسبوعين تجولا خلالهما بين ربوعه ومعالمه المختلفة، إذ زارا جزيرة أرقو أكبر جزر هذا الإقليم، كما زارا مدنه الرئيسيَّة ومناطقه الأثرية. وقد قام «وادنجتون» فى أثناء هذه الزيارة بدراسة بيئة الإقليم الطبيعية بعامة، وجزيرة أرقو بخاصة. وتحدث عن مدى استغلالها فى الزراعة، وأشار إلى مميزات الإقليم المناخية والنباتية والحيوانية، وبخاصة الخيول التى اشتهر الدناقلة بتربيتها. وقد عرض «وادنجتون» لأقوال الرحالة وآرائهم فى خصائص الخيول الدنقلاوية ومميزاتها. كما وصف المدن الرئيسية فى الإقليم، وتناول بصفة خاصة مدينة "دنقلة العجوز" والأطوار التى مرت بها فى العصور التاريخية المختلفة من واقع مشاهدات الرحالة الذين قدر لهم زيارتها خلال تلك العصور. كذلك عنى «وادنجتون» بوصف مدينة «مراغة–دنقلا العرضي» التى أنشأها المماليك الذين فروا من مصر عقب مذبحة القلعة لتكون مقر حكومتهم التى أقاموها فى هذا الإقليم بعد أن حلوا به.

ولم تقتصر مشاهدات «وادنجتون» ودراساته فى إقليم دنقلة على بيئة الإقليم الطبيعية أو مدنه الرئيسية فحسب، وإنما تضمنت أيضاً المجتمع الدنقلاوى ذاته والحياة الروحية لأهل دنقلة، والاهتمام بالتعليم الدينى فى هذا الإقليم. فقد أشار إلى ظاهرة انتشار أماكن تعليم القرآن الكريم فى أجزاء الإقليم المختلفة، وإلى ما يقوم به الوعاظ المتجولون من الكبابيش بصفة خاصة فى هذا السبيل. كما أشار إلى وجود مدارس يتعلم فيها الأطفال مبادئ القراءة والكتابة، إلى جانب حفظ القرآن الكريم(١). وقد حدثنا عن السادة (شيوخ الإسلام) الذين يقومون بوظيفة التعليم، وما يتمتع به هؤلاء من مكانة سامية فى المجتمع. كما حدثنا عن أساليب تعليم الأطفال وطرق تأديبهم، وأنواع الأخطاء التى كانوا يعاقبون عادة من أجلها. وقد حدثنا عن الأضرحة التى تقام لمن اشتهر من الفقهاء وشيوخ الإسلام بالصلاح والتقوى فى حياته الدنيا، لتضم رفاتهم الطاهرة حيث يتبارك الناس بزيارتها، وينعمون بالأمن والسلام فى ظلها عندما تتهددهم بادرة خطر. وقد أشاد بصفة عامة بما يتحلى به هؤلاء الشيوخ والفقهاء فى دنقلة من الخصال والصفات الحميدة التى زادت من

(١) ويقصد بها الخلاوي (جمع خلوة). وقد كانت إلي جانب المساجد والجوامع والزوايا من أهم أماكن العلم في ذلك الحين.

تعلق المواطنين بهم وتقديرهم لهم.

وعني وادنجتون بدراسة آدابهم وفنونهم الشعبية فقد تناول الحديث عن طائفة المداحين والمنشدين والشعراء المتجولين. وعرض لبعض أزجالهم ومواويلهم الشعبية التى استمع إليها فى المناسبات المختلفة. وقد تناولها بالنقد والتحليل بعد أن ترجمت له فى حينها إلى اللغة الإنجليزية. وقد سره بعضها، وعبر عن إعجابه وتقديره لقائليها. كما وصف لنا أنواع الغناء والرقص الشعبى الذى شاهده فى الحفلات الشعبية العامة، وفى بعض الحفلات الخاصة التى دعاه إليها بعض الشخصيات البارزة فى الإقليم. كذلك تناول «وادنجتون» مركز المرأة فى المجتمع الدنقلاوى، إذ أشار إلى ما تتمتع به من حقوق شرعية كحقها فى الميراث، وإلى ما تتحلى به من الصفات الطيبة التى أكسبتها احترام المجتمع وتقديره لها.

وفضلاً عن ذلك عرض «وادنجتون» فى مواضع متفرقة من كتاب رحلته لبعض العادات والتقاليد السائدة بين أهل دنقلة، كتلك التى تتعلق بأنواع الطعام والشراب التي يقبلون على تناولها، ومنها عادة شرب العرقي والمريسة المنتشرة بينهم. كما أشار إلى معتقداتهم فى السحر والشعوذة. كذلك أشار إلى طبائعهم وأخلاقهم، والصفات والخصال التى تميزهم عن غيرهم. ومن الموضوعات الاجتماعية الأخرى الهامة التى عالجها الرحالة «وادنجتون» موضوع الجريمة والعقاب فى المجتمع الدنقلاوى، إذ أشار إلى أنواع الجرائم التى يعاقب عليها عادة المجتمع، وإلى العقوبات التى تفرض على مرتكبيها وغير ذلك من أنظمة الحكم التى تبدو متأثرة بتعاليم الإسلام.

لفت نظر «وادنجتون» أثناء زيارته لبعض أقاليم النوبة نزعة سكان هذه الأقاليم الدينية وتمسكهم بعقيدتهم الإسلامية التى تجلت له فى صور ومظاهر دينية مختلفة عبر عنها -كما سبق أن أوضحنا- فى حديثه عن معالم المجتمع الدنقلاوى. ومنها انتشار الخلاوى وأماكن تحفيظ القرآن الكريم، والمكانة السامية التى تمتع بها الفقهاء والمشايخ فى نفوس الناس وإقامة الأضرحة للصالحين من أولياء الله. وهى ظاهرة اجتماعية عنى «وادنجتون» بدراستها وإبرازها فى كتاب رحلته. وربما كان لاشتغال «وادنجتون» بالشئون الدينية فى إحدى مراحل حياته، إذ عمل -كما قدمنا- أسقفاً لمدينة درهام Durham بانجلترا قبل أن يشتهر كرحالة، أثره فى اهتمامه بهذا الجانب الدينى الهام فى حياة المجتمعات النوبية التى قدر له زيارتها.

بيد أن المتتبع لمشاهدات هذا الرحالة فى بلاد النوبة يلاحظ أن اهتمامه بدراسة النزعة الدينية فى المجتمعات النوبية لم تقتصر على إبراز تلك الصور والمظاهر الدينية الدالة على تمسك سكان هذه البلاد بعقيدتهم الإسلامية، وإنما قد أمدتنا ببعض

المعلومات والحقائق عن أنظمة الحكم هناك وقد حاول من خلالها أن يلقى الضوء على مدى تأثر هؤلاء الناس بتعاليم القرآن الكريم فى نظم حكمهم، إذ يقول «إن الأمراء الصغار الذين يحملون لقب شيخ أو كاشف أو ملك، يبدو أنهم لم يكونوا ظالمين كلية. فقد كانوا يعتبرون أنفسهم حكاماً بإرادة الله ليحكموا الناس بعدالة القرآن. وهو القانون الوحيد كما هو التعليم الوحيد للمسلمين. وفيما يختص بجرائم القتل فإن الملك قد يعاقب بالموت. أما فى حالة السرقة فليس إلا أن يضرب الجانى بالنبوت. ولا يوجد تدرج فى العقاب. كما لا يسمع عن عقوبات بتر أعضاء الجسم أو الكى بالنار، أو الإخصاء. كذلك لا يوجد عقاب وسط بين النبوت والموت [ص ٢٥٢]. ويستطرد قائلاً «أما القوانين الخاصة بحماية ممتلكات الرعية فتبدو أنها غير محددة أو واضحة، أما فيما يتعلق بقوانين حماية السكان فلا يوجد شئ من هذا القبيل. ولولا الاحتماء باسم محمد على لما كان هناك أمل فى تجول الأجانب فى هذه البلاد فى أمن وسلام [ص ٢٤٠].

أما عن اهتمام الرحالة «وادنجتون» وزميله «هنبرى» بالتنقيب عن الآثار القديمة فى إقليم دنقلة، فقد كان واضحاً، وبخاصة فى جزيرة أرقو. والحقيقة أن هذين الرجلين قد بذلا كل ما فى وسعهما، ولم يدخرا وسعاً من أجل تحقيق الهدف العلمى، على الرغم من الصعوبات والعراقيل التى اعترضت طريقهما فى هذا الشأن. ومنها ما يرجع -على حد قوله- إلى إحجام المواطنين وإعراضهم عن مساعدتهما فى أعمال الحفر والتنقيب عن الآثار القديمة. يضاف إلى ذلك أن عابدين كاشف الرجل الثانى فى حملة إسماعيل لم يكن يؤيد أثناء وجوده فى دنقلة قيام هذين الإنجليزيين بمثل هذه الأعمال. ومع ذلك فقد نجح الرجلان فى الكشف عن بعض المعابد والتماثيل فى جزيرة أرقو [ص ٢٣٩، ٢٤٠]. ولقد كان للملك طمبل ملك أرقو الذى نجح «وادنجتون» فى كسب صداقته أثر كبير فى نجاح هذه المهمة العلمية، إذ بعث إليهما بعدد من حراسه المسلحين بالسيوف والبنادق ليكونوا برفقتهما. ويؤكد الرحالة «وادنجتون» "أنه لم يكن فى الإمكان مواصلة البحث والتنقيب عن الآثار القديمة فى المنطقة دون مساعدة هؤلاء الرحال، إذ أنه من الصعوبة بمكان أن تحمل سكان هذه الجهات على القيام بهذه الخدمة. وقد رفضوا رفضاً باتاً أن يتحركوا حتى تدفئ الشمس الدنيا (على حد تعبيرهم). فقد أمكن بطريق إثارة الفزع فى نفوسهم حمل سبعة رجال منهم على أكثر تقدير على العمل لمدة ست أو سبع ساعات. ومع ذلك لم يكن عملهم غير مثمر تماماً، فقد كشفوا عن رأس تمثال الخرتيت الأسود الجالس، وكذلك أساس الحائط السميك." [ص ٢٥٢].

الاهتمام بقصة المماليك فى دنقلة:

ومن الموضوعات التاريخية الهامة التى عنى «وادنجتون» بدراستها فى أثناء زيارته لإقليم دنقلة قصة المماليك الذين أقاموا لهم ملكاً فى هذا الإقليم عقب فرارهم إلى السودان بعد مذبحة القلعة. وقد مكنته علاقاته الشخصية مع بعض ملوك النوبة وزعمائها ممن عاشوا أحداث هذه القصة، وبخاصة الذين أسهموا فى بعض أدوارها مثل الملك طمبل من الوقوف على الكثير من تفاصيلها. هذا إلى جانب إلمامه بأقوال الرحالة السابقين الذين عرضوا لهذا الموضوع التاريخى مثل بوركهارد. بيد أن «وادنجتون» -فيما يبدو من معالجته له- كان أكثر اهتماماً وعمقاً فى دراسته، فقد جاء بالمزيد من المعلومات والحقائق عن أخبار هؤلاء المماليك، وبخاصة فيما يتعلق بأخبار الدولة التى أقاموها فى دنقلة، والانطباعات التى تركها حكمهم فى بعض نواحى حياة سكان هذا الإقليم النوبى.

وقد أزاح «وادنجتون» بنفسه الستار عن سر اهتمامه بمتابعة قصة هؤلاء الناس فى بداية حديثه عنهم. فقد جاء على لسانه قوله "إنه سوف يلتمس لى العذر إذا تابعت باختصار (وباهتمام) قصة جماعة من الناس يرتبط تاريخهم لسوء الحظ من نقطة واحدة بتاريخنا (تاريخ بريطانيا)" [ص ٢٢٥]. ثم يقول "وإذا كانت قوة بأسهم التى تعزى إلى شجاعتهم، وكثرة عددهم لم تستمر طويلاً، فإنهم على أقل تقدير قد أصبحوا جديرين بالاهتمام من حيث سوء الحظ الذى أخذ يلاحقهم." [ص ٢٢٥]. ويستطرد قائلاً "وأولئك الذين لا يثير فى نفوسهم الإعجاب بهؤلاء المماليك باعتبارهم أحسن فرسان العالم رشاقة وأكثرهم شجاعة، سوف يحسون بالعطف والشفقة نحو جماعة هام أفرادها على وجوههم واضطهدوا وعذبوا، وكانوا دائماً ضحية الغدر والخيانة." [ص ٢٢٥].

قد تناول «وادنجتون» الظروف التى واجهها هؤلاء المماليك عند دخولهم هذه البلاد، فأشار إلى حالة الانقسام والحرب التى كان عليها ملوك النوبة وزعماؤها فى ذلك الوقت، وإلى موقف المماليك من الأطراف المتنازعة، وإلى حروبهم مع الشايقية، أكبر قوة واجهتهم فى تقدمهم نحو الجنوب منذ غادروا الديار المصرية. كما تناول بنوع من التفصيل قيام دولتهم فى إقليم دنقلة. فتحدث عن حدود هذه الدولة، وعن نواحى نشاطهم الاقتصادى فيها والجهود التى بذلوها لتدعيم كيانها. فوصف نشاطهم التجارى فى "مراغة" (دنقلة الجديدة) التى يذكر أنه لم يمض وقت طويل على تأسيسها حتى غدت هذه المدينة مركزاً تجارياً كبيراً يؤمها التجار من مختلف جهات السودان حتى دارفور، وتباع السلع التى تعرض فيها بالأسعار التى تباع بها فى القاهرة. كما وصف نشاطهم الزراعي فى إقليم دنقلة والمشروعات الزراعية التى أدخلوها للنهوض بالزراعة فى هذا الإقليم. كذلك تناول «وادنجتون» فى مواضع متفرقة من حديثه عن المماليك الانطباعات التى تركها

حكمهم فى حياة سكان الجهات التى خضعت لنفوذهم فى جنوب الوادى. فقد ذكر هذا الرحالة "إنه بتأثير الحكم المملوكى استمر سكان البلاد التى خضعت لسلطانهم يشعرون بقيمة الأسلحة وضرورة اقتنائها، بينما فى الجهات الأخرى مثل سكوت والمحس وهى أسبق الأقاليم السودانية إلى الخضوع للحكم المصرى. ليس للبندقية أو السيف إلا قيمة بسيطة. فقد كان أهل هذه الجهات يقولون موجهين القول إلينا «ما فائدة الأسلحة لنا؟ ألسنا تحت حماية الباشا». [ص ٢٥٤]. وفى موضع آخر من حديثه عن المماليك يصف لنا "وادنجتون" بعض مظاهر التقدم النسبى التى لاحظها بنفسه فى المناطق التى خضعت لحكمهم فيقول "إنه كلما تقدمنا فى دولة (مملكة) المماليك بدت البلاد أكثر خصوبة وعمراناً بالسكان، والمنازل جميعها مبنية جيداً بالأحجار على النحو الذى يلاحظ على بناء الأسوار فى بعض مناطق إنجلترا." [ص ٢٢٩]. وهناك حقيقة أخرى تتعلق باختلاط المماليك بسكان البلاد الأصليين ومدى اندماجهم معهم، يشير إليها «وادنجتون»، إذ يقول "إن المماليك بعد أن استقروا فى دنقلة ببضعة شهور قاموا بإرجاع معظم زوجاتهم القاهريات، وتزوجوا من المواطنات النوبيات. وقد ظلت هؤلاء الزوجات مخلصات وفيات لأزواجهن المماليك حتى فى أواخر أيامهم التعسة وبعد فرارهم من دنقلة. وقد كن يواسين أنفسهن بالقول "إن خروج المماليك من البلاد كان بإرادة الله وليس بإرادة الباشا" [ص ٢٢٩].

ثم يتناول «وادنجتون» الحديث عن زيارته المماليك فى السودان، فيصف لنا ما كانت عليه أحوالهم من الضعف والانحلال عندما جاءت حملة إسماعيل لتقضى على البقية الباقية منهم القضاء المبرم وتمحو كل أثر لوجودهم فى هذه البلاد، وكيف أنهم اضطروا إلى الرحيل من دنقلة إلى شندى إزاء هذا الخطر الداهم الذى يتهددهم. وقد ظلوا فى شندى حتى دب دبيب الخوف فى قلب ملكها بعد أن وصلته أخبار انتصارات الباشا على الشايقية، فأمرهم بمغادرة أراضيه. ثم يأتى إلى نهاية قصة المماليك فى السودان فيحدثنا عما كان من تشتت شملهم شرقاً وغرباً، حيث اتجه القسم الأكبر منهم إلى دارفور، فى حين سار البعض الآخر فى اتجاه مضاد نحو شاطئ البحر الأحمر. وقد توقع «وادنجتون» أن يكون القضاء عليهم أو إبادتهم للمرة الأخيرة أمراً لا مفر منه [ص ٢٣٠]. وأخيراً يروى لنا أنه عندما رجع إلى مصر علم بأن القليل من المماليك ممن نسى أو تناسى ما لاقاه غيرهم من وعود محمد على قد ألقى نفسه تحت رحمة مهلكه [ص ٢٣٠].

ثانياً: مشاهدات وادنجتون ودراساته في دار الشايقية

تعد زيارة «وادنجتون» لدار الشايقية على جانب كبير من الأهمية، بالنظر إلى ما تضمنته هذه الزيارة من مشاهدات ودراسات، قام بها، تنطوى على قيمة علمية فقد تناول «وادنجتون» وصف طبيعة الإقليم الجغرافية، حيث فتن بسحر الطبيعة وجمالها فى هذا الإقليم، وقارن بين هدوء الطبيعة فى هذه البلاد وطبيعة سكانها التى تميل إلى الخشونة والعنف. كما وصف المناطق الزراعية بها ومدى ما يبذل من جهد وعناية فى زراعتها.

ومن الدراسات الأخرى الهامة التى قام بها «وادنجتون» فى إقليم الشايقية خلال زيارته له دراسة الآثار القديمة التي اشتهر بها. وقد عنى بصفة خاصة بدراسة آثار جبل البركل من معابد وأهرام. وكذلك أهرام البلال التى تقع عند التلال التى تعرف باسمها. وإلى جانب ذلك تناول المعتقدات الدينية عند سكان النوبة القدماء وقارنها بمعتقدات قدماء المصريين، ومدى تأثرها بها، مشيراً إلى أقوال بعض المؤرخين القدامى فى هذا الشأن، أمثال هيرودوت Herodotus وجوزيف Josephns واسترابون Strabon وديودور الصقلى Diodorus.

وقد قام بدراسة واقعية لطبائع الشايقية وأخلاقهم وكذلك عاداتهم وتقاليدهم، وبخاصة ما يتعلق بنزعتهم الحربية وميلهم للقتال ولقد كانت حروبهم مع إسماعيل بن محمد على، وعلى وجه الخصوص معركة كورتى بين الطرفين التى عاش وادنجتون أحداثها عن كثب فرصة نادرة أتيحت له ليقف بنفسه على حقيقة خصال هؤلاء الشايقية وتقاليدهم فى الحرب والقتال ومنازلة الأعداء. والرحالة وادنجتون فى حديثه عن طبائع الشايقية وخصالهم يصفهم كشعب مقاتل له خصائص متميزة عن بقية الشعوب التى قابلها فى السودان خلال زيارته، إذ يقول "إنهم مشهورون بفروسيتهم وميلهم للقتال، وتفوقهم كجنود فرسان شجعان. وهم يعشقون الحرية، ويدافعون عنها بشجاعة." ويستطرد قائلاً "ولقد كان الشايقية في حرب مع المماليك. وعلى الرغم من أنها كانت حرباً سجالاً واستمرت وقتاً طويلاً، إلا أنها لم تقض عليهم، كما لم تقض على المماليك"

ويصور لنا «وادنجتون» نزعة الشايقية الحربية وحبهم للقتال، وشجاعتهم النادرة فى مواجهة الأعداء -من واقع مشاهداته لقتالهم ضد قوات حملة إسماعيل عندما قدمت إلى أوطانهم- تصويراً رائعاً يقول فيه "إن الشايقية لا يتهيبون الهجوم على أعدائهم على نحو يدعو إلى الدهشة، فهم يسارعون لمنازلة عدوهم وجهاً لوجه بروح من الاستخفاف وعدم المبالاة، وبقلب منشرح كأنهم ذاهبون إلى احتفال أو مهرجان، أو تحت تأثير الإحساس

بالسرور كأنهم قادمون على ملاقاة أصدقاء قدامى افترقوا عنهم منذ أمد طويل." [ص٩٨].
ويستطرد «وادنجتون» فى وصفه فيحدثنا عن تقاليد الشايقية فى الحرب بقوله "وعند النزول إلى أرض المعركة يعطون تحية السلام عليكم: سلام الموت التى يعقبها على الفور أن يقبض كل واحد على رمحه ويوجه به طعنات قاتلة، ويستقبل أخرى مع كلمات الحب التى تخرج من الشفاه." [ص ٩٨، ٩٩].

ويرى «وادنجتون» أن هذا اللون من الشجاعة النادرة التى يتحلى بها الشايقية فى الحرب والقتال، والتى تصل إلى حد الاستخفاف بالحياة وعدم المبالاة بالموت إنما هو قاصر عليهم دون غيرهم من الشعوب إذ يقول "إن هذا الازدراء بالحياة والاستخفاف بأكثر الأمور فزعا، إنما هى اعتبارات خاصة بهم. فهم الشعب الوحيد الذى ينظر إلى الأسلحة وكأنها أدوات لهو ولعب، وإلى الحرب وكأنها لون من ألوان الرياضة، لا ينشدون من ورائها سوى مجرد التسلية. ولا يخشون فى الموت شيئا. بل يجدن فيه الراحة." [ص ٩٩]. وهناك صفة أخرى يمتاز بها الشايقية ولا تقل عن صفة الشجاعة النادرة التى يتحلون بها، عبر عنها «وادنجتون» بقوله "إن الشايقية قد يتنازعون فيما بينهم، ويحارب بعضهم بعضاً. ولكنهم يتحدن عندما يواجهون خطراً مشتركاً من الخارج." [ص ٩٤].

وفضلاً عما تقدم، عنى وادنجتون بوصف خصائص الشايقية الجسمانية التى تتعلق بلون بشرتهم وتقاطيع وجههم وقوامهم، وقد أبدى إعجابه بلون بشرتهم إذ يقول "إن لون بشرة الشايقية الأسود الحالك -وهم يختلفون عن الزنوج فى كل ناحية- الذى يمتاز بصفائه ولمعانه قد بدا لعيونى غير المتحيزة أنه ألطف لون اختاره الله (لبنى البشر)".

كذلك قدم لنا «وادنجتون» من خلال معركة كورتى بعض الصور الرائعة لشجاعة نساء الشايقية ومشاركتهن للرجال فى الحرب بروح عالية. إذ يذكر هذا الرحالة "أن إشارة البدء بالهجوم عند الشايقية -كما عند غيرهم من العرب- تعطيها فتاة عذراء تلبس لباساً فاخراً وتمتطى هجيناً، ويحافظ الجميع على عفتها وطهرها بما فى ذلك الأعداء" [ص ٩٦]. ويضيف «وادنجتون» إلى ذلك "أن الإشارة التى تعطيها الفتاة ببدء الهجوم هى «ليللى - ليللى - لوو» وتكرر باستمرار وأن هذه الألفاظ ذاتها يعبر بها النساء عادة عن شعورهن بالبهجة والسرور فى الولائم والأفراح." [ص ٩٦].

على أن «وادنجتون» بعد أن يحدثنا عن نزعة الشايقية الحربية وشجاعتهم النادرة فى الحرب والقتال، كما وقف عليها بنفسه أثناء حروبهم مع إسماعيل، يؤكد بأن اعتقادهم فى السحر وأعمال الشعوذة كان له تأثير واضح لا يمكن إغفاله فيما قاموا به من أعمال بطولية خارقة للعادة ضد قوات كانت تفوقهم عدداً وعدة. فهم -على حد قوله- "قد اعتقدوا أن التعاويذ السحرية التى كتبها لهم السحرة والعرافون فى بلادهم ستمنحهم الغلبة والنصر المحقق على أعدائهم مهما كانت قوة هؤلاء الأعداء." [ص ١٠٠]. ويروى لنا

« وادنجتون » فى حديثه عن معركة كورتى كيف أن الشايقية أصيبوا بخيبة أمل منقطعة النظير عندما أيقنوا بما لا يدع مجالاً للشك بأن عددهم أقوى من تعاويذهم السحرية. وقد كان أول عمل قاموا به – هو أنهم ساقوا إلى الموت هؤلاء السحرة والعرافين الذين غرروا بهم وخدعوهم على هذا النحو المشين [ص ١٠٠]. ومهما يكن من أمر فإن إسماعيل -كما يؤكد لنا « وادنجتون » نفسه قد عجز كلية عن القضاء على نزعة الشايقية الحربية بعد محاولات يائسة قام بها فى هذا السبيل لتحويلهم من شعب محارب إلى شعب مزارع يفلح الأرض وأخيراً رأى هذا القائد ، وبعد أن أذهلته شجاعتهم النادرة فى محاربة قواته، أنه من الحكمة أن يستغل هذه النزعة وتلك الشجاعة التى اشتهروا بها فيما يخدم أغراضه العسكرية فى إتمام فتح السودان، وذلك بأن ألحق الكثيرين من فرسانهم بجيش الحملة.

ثالثاً: تسجيل أحداث حملة إسماعيل على السودان

على أن الرحالة « وادنجتون » لم يقتصر فى حديثه عن حملة إسماعيل على السودان التى جاء إلى هذه البلاد برفقتها على شرح قصة قائدها إسماعيل مع الشايقية وتسجيل أحداثها، مما سنعرض له بالتفصيل، بل تناول أيضاً من وجهة نظره الخاصة الأسباب التى رأى أنها تكمن من وراء إرسال محمد على هذه الحملة إلى السودان وقد ربطها بطموح الوالى الشخصى، إذ يقول "إن طموح محمد على هو أن يمتلك وادى النيل من منبعه إلى مصبه، وأن يكون سيداً على سكانه جميعاً ممن يشربون من مائه، من بلاد الحبشة جنوباً حتى البحر الأبيض المتوسط (شمالاً)" [ص ٩١]. ويستطرد قائلاً "وهذا الطموح جدير بأمير عظيم مثله، إن لم يكن ذلك بدافع الطمع. أما فيما يختص بمشروع فتح بلاد الحبشة فقد تركه عندما بلغه تأكيد رسمى بأن أى هجوم على هذه الدولة المسيحية سوف يوقعه فى صدام مع الحكومة الإنجليزية. ومن ثم اقتصرت فتوحاته على ممالك دنقلة، والشايقية، وبربر، وشندى، وسنار. ويدخل ضمن هذا المشروع إبادة أعدائه القدامى من المماليك الذين بسطوا سلطانهم تماماً على دنقلة." [ص ٩١].

وبعد أن يعرض أهداف الحملة من وجهة نظره الشخصية، يتناول بالوصف قوتها العسكرية معبراً أيضاً عن مدى استعداداتها بالنسبة للمهام الموكلة إليها. فهو يرى أن تجهيزها بوجه عام لم يكن يتناسب مع ضخامة أهدافها، إذ يقول "إن الوسائل التى استخدمها (محمد على) تبدو لأول وهلة أنها بالكاد تتفق والغرض من استخدامها. فجميع

القوة التى تضمنتها الحملة تبلغ عشرة آلاف رجل لا يزيد عدد المقاتلين منهم على أربعة آلاف مقاتل، وإثنى عشر مدفعاً هى التى جعلت من غير المستطاع مقاومتها." [ص ٩٢]. ثم يتحدث «وادنجتون» عن الجنود المرتزقة الذين تكون منهم كل جيش تقريباً، فيشرح نظام التحاقهم بالخدمة بصفة عامة، وفى الحملات العسكرية وهذه الحملة بصفة خاصة التى يقول إن الجنود فيها قد منحوا مرتب ستة شهور مقدماً قبل أن يغادروا مصر.

ثم يصف «وادنجتون» القوات التى كانت تضمها الحملة من الفرق النظامية وغير النظامية وأجناسها المختلفة. ويتناول بصفة خاصة الحديث عن فرسان البدو الذين كانوا عماد الحملة، فيصف أسلحتهم والأغانى التى ينشدونها ويقارن بين البدو الإفريقيين والبدو الأسيويين، ويشيد بضراوتهم جميعاً فى الحرب والقتال، وبمهارتهم الخاصة فى استعمال الرمح. ويعتبرهم أفضل الجنود غير النظامية وأقدرها على القتال حين يذكر "أن أحسن الجنود فى الحملة هم البدو الذين يبلغ عددهم حوالى ألف وخمسمائة بدوى."[ص٩٢]. ويقول إن قسماً منهم فيما يبدو من سكان المنطقة التى قهرت على أيدى الباشا فى حملته تجاه معبد الإله أمون، وقسم آخر من المغاربة من سكان الصحارى المجاورة لطرابلس وتونس ومراكش. وجميعهم كانوا فرساناً وبعضهم كان لديه سونكى معلق على بندقيته."[ص ٩٢]. ثم يتحدث «وادنجتون» عن الجنود الألبانيين والجنود الأتراك فى حملة إسماعيل فيذكر "أنه كان هناك عدد كبير من الألبانيين، ولكنهم لا يكونون فى هذا الجيش (الحملة) كتائب متنوعة. كذلك يوجد كثير من الأتراك الأسيويين الذين كانوا أيضاً متفرقين تحت قيادات مختلفة." [ص ٩٣]. وأخيراً يشير «وادنجتون» إلى كبار القواد فى الحملة فيذكر "أن القواد الكبار فى الجيش (الحملة) هم عابدين كاشف وكوجى أحمد قائد (قومندان) البدو، وحسن دار، والسلحدار، وعمر كاشف. وجميعهم كانوا تحت إمرة القائد الأعلى للحملة.

أما عن سير الحملة فيصفه «وادنجتون» بقوله "إن الجيش غادر القاهرة مبكراً فى الصيف. وقد عبر الشلالات (الجنادل) فى أثناء الفيضان، وتقدم جنوباً دون مقاومة حتى وصل إلى دنقلة الجديدة التى وجد أن المماليك قد أخلوها، إذ كانوا قد انسحبوا منها منذ بضعة شهور إلى شندى." ويمضى «وادنجتون» فى القول "إن الخطوة التالية للجيش الزاحف كانت فى التقدم فى وجه الشايقية." [ص ٩٧]. الذين يقدر وادنجتون قوتهم العسكرية عند مجئ حملة إسماعيل إلى بلادهم بحوالى عشرة آلاف مقاتل، أكثر من ألفين منهم من الفرسان." [ص ٩٥].

وصف لنا «وادنجتون» قصة إسماعيل قائد الحملة مع الشايقية بكامل تفاصيلها وأدوارها المختلفة. كما عاش أحداثها وسمع أخبارها بنفسه فى أثناء زيارته لهذه البلاد، فهو يشرح بداية القصة بقوله "إن الباشا (إسماعيل) عند وصوله إلى دنقلة أرسل إلى الشايقية يأمرهم بالخضوع لوالده. فعبروا له عن استعدادهم لزراعة أراضيهم وتقديم

الجزية المقررة. فطلب منهم أن يبرهنوا على ولائهم وإخلاصهم بإرسال أسلحتهم وخيولهم إليه. فأعادوا على مسامعه ما سبق أن رددوه، فأجابهم بأن والده قد أمره بأن يحولهم من أمة من المحاربين إلى أمة من المزارعين، وجدد ما طلبه منهم من قبل. فأجابوه بتحد سافر "إما أن تمضى إلى حال سبيلك، أو تأتى لتهاجمنا". فكان أن وجه الباشا قواته إلى تخومهم.

ثم يقص علينا كيف وقع أول صدام بين الشايقية وإسماعيل بالقرب من دنقلة العجوز عندما فوجئ هو وبعض قواده مع عدد قليل من الجند بجماعة من الشايقية يهجمون عليهم. ولكن سرعان ما ردوا على أعقابهم. وقد نجح عابدين فى أسر إبنة أحد زعمائهم وكانت عذراء. وقد أرسلها إسماعيل إلى والدها معززة مكرمة. ولكنه أمر فى الوقت نفسه بعرض بعض الألعاب النارية ليثير الرعب فى نفوس أعدائه. بيد أن أعداءه بالرغم من ذلك كانوا أقل شعوراً بالخوف مما تخيل أو توقع، إذ اكتفوا بالتعليق على الأسهم النارية وهى تنطلق فى الفضاء بقولهم "ما هذا؟ هل جاء ليحارب السماء؟". ويمضى «وادنجتون» فى روايته قائلاً "أن هذا المنظر زاد من شجاعتهم، إذ أخذوا يتصايحون بالقرب من معسكرهم "إنك جئت لتحاربنا، وسواء جئت من الشمال أو من الشرق أو من الغرب، فإننا على أى حال سنفنيك".

ويصف هذه المعركة وصفاً دقيقاً يشرح فيه كيف أحاطت بمعسكر إسماعيل قوة من الشايقية يتراوح عددها بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف رجل، وكيف توالت هجماتهم على قوات الحملة فى بداية المعركة، على الرغم من شدة ما قاسوه منها. ثم ما كان من نجاح إسماعيل ونائبه عابدين فى السيطرة على زمام الموقف فى أرض المعركة، بما أبداه من ضروب الشجاعة والبطولة لمواجهة بسالة الشايقية وإستماتتهم فى القتال. كما يصور لنا النهاية الحتمية للمعركة، فيشير إلى ماكان من إدراك الشايقية فى آخر الأمر للحقيقة الواقعة وهى عجز أسلحتهم البسيطة وتعاويذهم السحرية عن الصمود أمام أسلحة أعدائهم النارية. واضطر فرسانهم إلى الفرار لمعاودة الكرة من جديد.

وأخيراً يتناول الخسائر فى الأرواح التى تكبدها كلا الجانبين المتحاربين، فيؤكد أن عدد القتلى من مشاة الشايقية كان كبيراً إذا ما قورن بعدد القتلى من قوات إسماعيل. كما يعرض لأمثلة من أعمال البطولة النادرة التى قام بها الشايقية فى المعركة وأثارت دهشة الأتراك وانتزعت إعجابهم بهم. ولقد أبدى «وادنجتون» نفسه، من واقع ما شاهده وسمعه من بسالة الشايقية فى معركة كورتى، إعجابه الشديد بهم وتقديره لهم كشعب مناضل يبذل روحه رخيصة فى سبيل الدفاع عن حريته وكيانه.

على أن المتتبع لأقوال «وادنجتون» يرى أن المناوشات بين الشايقية وإسماعيل لم تنقطع بعد هزيمتهم فى معركة كورتى. فهو بعد أن يتحدث عن خسائر الفريقين فى المعركة، يشير إلى حادثتين معينتين وقع خلالهما اشتباك بين الطرفين راح ضحيتهما

عدد قليل من الشايقية. هذا بخلاف المذبحة التى جاءت فى أعقاب المعركة. وقد أفرد لها «وادنجتون» مكاناً بارزاً فى كتاب رحلته تحت عنوان "Massacre of the Sheygyà" "مذبحة الشايقية" وصف فيه المذبحة وصفاً مثير [ص ١١٣، ١٢٤]. تناول فيه آثارها البشعة كما رآها فى الشوارع وفى الحقول وعلى شاطئ النهر. وعرض لتأثيرها السيئ والمؤلم فى نفوس من بقى من الشايقية على قيد الحياة، من واقع ملاحظاته ومشاهداته لقسمات وتعبيرات وجوههم، وكذلك من خلال الأحاديث التى تبادلها مع بعضهم.

على أن قصة إسماعيل مع الشايقية - كما يرويها لنا «وادنجتون» لم تنته بهذه المذبحة التى ذهب ضحيتها الكثيرون منهم، وإنما انتهت بعقد الصلح بين الطرفين، ولقد شرح لنا الظروف التى تم فيها ذلك الصلح بقوله "إنه فى تلك الأثناء كان الأتراك والشايقية فى مفاوضات مستمرة (للصلح). فقد حضر حفيد الملك "صبره" إلى المعسكر اليوم، ومثل أمام الباشا الذى أنعم عليه بعباءة وشال من كشمير. ثم ودعه بالحفاوة والإكرام البالغ." [ص ١٤٧]. ويستطرد وعلى هذا النحو أغرى بقية هؤلاء العرب التعساء على الخضوع. وهم حينما ينتشرون فى سلام على أرض الإقليم سيحملون أكثرهم قوة وشجاعة على الإذعان." [ص ١٤٧]. ويختم بقوله "وهكذا سيصبح الشايقية حلفاء لقاهرهم وليسوا عبيداً له. وإن الشجاعة الجديرة بالنصر قد حصلوا على الأقل من ورائها على الراحة والخلاص من العبودية."

ولكن هل نجح إسماعيل، بعد أن عقد الصلح مع الشايقية وتم له خضوعهم لسلطانه، فى أن يقضى على نزعتهم الحربية، ويحولهم من شعب محارب يحرص على اقتناء الخيل والسلاح إلى شعب مزارع يفلح الأرض، ويعيش على زراعتها لغيرهم من شعوب بلاد النوبة؟ إن «وادنجتون» الذى عاش عن كثب قصة إسماعيل مع الشايقية بأدوارها وتفاصيلها المختلفة، وقد شاهد هزيمتهم على يديه، كان يظن أنهم لابد سيخضعون لرغبة الباشا وإرادته. فهو قد توقع لهم تلك الحياة فى قوله "وربما سيتحول الجيل الثاني للشايقية بعد سنوات قلائل، وربما فى الوقت الحاضر إلى فلاحين يديرون الساقية مثل فلاحى مصر."[ص ١٠٢، ١٠٣]. على أن ما توقعه «وادنجتون» من تغيير جوهرى فى طبيعة حياة الشايقية بعد هزيمتهم على يد إسماعيل لم يحدث، ذلك أن النزعة الحربية فى هذا الشعب كانت أقوى من أن تضعف أو تستعلي إلى نزعة أخرى طابعها السلم. ولعل هذا ما أدركه محمد على أخيراً. فقد رأى بعد أن فشلت محاولاته فى أن يحولهم إلى شعب مزارع يفلح الأرض ليعيش على خيراتها، أن يستغل تلك النزعة الأصيلة فيهم فيما يخدم أغراضه العسكرية نحو إكمال فتح الأقاليم الجنوبية التى لم يكن قد تم للحملة فتحها بعد. وهذا ما صرح به «وادنجتون»، حين يقول "إن مصير بقايا فرسان الشايقية لم يكن -تماماً- كما توقعنا. وهذا ما سمعناه على لسان محمد على نفسه، خلال زيارة له قمنا بها على أثر عودتنا إلى القاهرة. فحالاً عقب رحيلنا من المعسكر -اتفق على أن

القسم الأكبر منهم الذى أبقى على خيوله وأسلحته التي حارب من أجل الحفاظ عليها سوف يدخل فى خدمة إسماعيل باشا، وينضم إلى جيشه فى زحفه على الشعوب الجنوبية التى كانت أيضاً فى حالة عداء معهم."

رابعاً: دراسة بعض القبائل العربية فى السودان:

لقد عنى الرحالة « وادنجتون » أثناء رحلته فى بلاد النوبة بدراسة بعض القبائل العربية من حيث الخصال والتقاليد التى يتميزون بها. ويبدو أن المعلومات والحقائق التى أمدنا بها فى هذا الشأن قد جاءت من واقع معايشته وتعامله مع بعض أفرادها، أو بطريق الاستقصاء من المسافرين الذين سبق أن تعاملوا معها أثناء رحلاتهم إلى هذه البلاد. ومن هذه القبائل الكبابيش والعبابدة. وهم من القبائل العربية فى السودان التى اشتهرت بقيادة القوافل التجارية والمسافرين عبر الطرق الصحراوية لخبرتهم بها، وبخاصة الطرق التى ربطت بين السودان ومصر.

فهو يحدثنا عن بعض الخصال الطيبة التى يتحلى بها الكبابيش بقوله "إن جميع أفراد قبيلتهم -كما أكدوا لى- يعرفون القراءة والكتابة. وبعضهم يعملون وعاظاً فى القرى يتلون القرآن ويقومون بتفسيره. وأغلب القرى التى يذهب إليها هؤلاء الكبابيش توجد فيها بعض المبانى التى شيدت من أجل هذا الغرض." ويصف « وادنجتون » حقيقة مشاعر هؤلاء الكبابيش نحو حملة إسماعيل باشا على السودان من واقع ملاحظاته الشخصية يصف حقيقة هذه المشاعر بقوله "ولقد عبر الكبابيش عن ابتهاجهم بانتصارات إسماعيل باشا."

أما العبابدة فقد وصفهم الرحالة « وادنجتون » وصفاً مغايراً ولا يتفق مع وصف من سبقوه من الرحالة مثل الرحالة "بوركهارد" الذى زار بلاد السودان (عام ١٨١٣-١٨١٤)، وقد تعرف بهؤلاء العبابدة عن كثب وتعامل معهم." [ص ١٤٩، ١٧٤، ٢٣٦ بوركهارد]. يقول فى وصف خصال العبابدة وطباعهم "إن العبابدة يتمتعون بسمعة سيئة بين المسافرين يرددون دائما أعمال الغدر والخيانة والعنف التي يعاملون بها من قبل هؤلاء." على أن « وادنجتون » يستطرد قائلاً "ولكنهم (العبابدة) كأفراد حسب اعتقادى – أمناء كرماء غير مسئولين عن سلوك العبابدة كجماعة من السوقة والرعاع." [ص ٨٦، ٨٧، ٩٤، ٩٥، ٣٠١ وادنجتون].

مصادر البحث

أولاً- المصدر الأصلي

Waddington. G. & Hanbury. B.: Journal of a Visit to Some Parts of Ethiopia, London, 1822.

ثانياً- المصادر الثانوية

١- وثائق غير منشورة من قسم المحفوظات التاريخية (بقصر عابدين) «دار الوثائق القومية».

٢- فردريك بنولا : مصر والجغرافيا - تعريب أحمد ذكي.

1- Budge. E. A. The Egyptian Sudan, Its History and Monuments (2 vols.), London, 1907.

2- Burchardt. T. L., Travels in Nubia, London, 1819.

3- Cailliaud. W., Voyage à Méroé (4 vols.), Paris, 1826.

4- Hill. R. L. A., Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan, Oxford, 1951.

الفصل السادس

الرحالة الأمير "بكلر مسكاو Muskau"

ظروف رحلته إلى السودان (عام ١٨٣٧):

هو بكلر مسكاو هرمان لودويج هندريك Puckler Muskau Herman Luduig Hendrick ولد في مسكاو Muskau في لوساتيا Lusatia، وهو سائح ألماني. وقد سافر إلى مصر للتعرف على أحوالها، والوقوف على معالم النهضة الحديثة التي حققتها تحت حكم محمد على باشا الذى ذاع صيته. وهناك اشترى من سوق الرقيق بالقاهرة بنت حبشية تسمى "محبوبة" ساح بها في مصر العليا، حيث استقبله محمد على باشا في أسيوط. بعد ذلك سافر إلى السودان عام ١٨٣٧ للتعرف أيضاً على أحواله والوقوف على ما أصابه من تطور بعد أن خضع لحكم هذا الوالى. وقد وصل الأمير بكلر مسكاو إلى الخرطوم (عام ١٨٣٧) وصعد النيل الأزرق إلى "وادى مدني" Wady Medineh. ثم عاد إلى أوربا، وقد رافقته "محبوبة" إلى فيينا. (١) وقد نشر الأمير بكلر مسكاو رحلته في مصر والسودان باللغة الألمانية. ثم نشرت باللغة الإنجليزية في لندن عام ١٨٤٥ تحت عنوان: "مصر في عهد محمد على" "Egypt under Mehemet Ali"

وكتاب الرحلة من جزءين: **الجزء الأول** دون فيه مشاهداته وملاحظاته عن مظاهر النهضة الإدارية والعسكرية والاقتصادية التى شهدتها مصر على عهد محمد على باشا في النصف الأول من القرن التاسع عشر. أما **الجزء الثاني** وهو الذى يعنينا في هذا المقام- فقد دوّن فيه زيارته لبلاد السودان. وقد عنى خلال هذه الزيارة بمشاهدة المناطق الأثرية وما تحويه من الآثار القديمة التي ورد ذكرها في كتب بعض الرحالة الأوروبيين الذين سبقوه إلي زيارة هذه البلاد مثل "كايو" Cailliaud الفرنسى و"بوركهارد" السويسرى. وعلق الأمير بكلر مسكاو على مشاهدات هؤلاء الرحالة وملاحظاتهم بما شاهده هو ولاحظه بنفسه. بيد أن الأمر الذى شغل به الأمير بصورة واضحة في زيارته للسودان، هو متابعة سياسة محمد على العمرانية في جنوب الوادى بعد أن شاهد مظاهرها الحية في شماله. وليقف بنفسه على حقيقة التطور الذى أصاب الجنوب على عهده. وقد قرأ عن هذه البلاد دون شك في كتب الرحالة الذين قاموا بزيارتها من قبل.

---

(1) Richard Hill, Biogrophical dictionary of the Anglo - Egyption Sudan, p. 311

الأهمية التاريخية والعلمية للرحلة:

أمدنا بكلر مسكاو بوصف على جانب من الأهمية للمدن والقرى والمناطق السودانية التي زارها عام ١٨٣٧، مدعماً وصفه ودراسته لبعض نواحى النشاط البشرى فى هذه المدن والقرى والمناطق بإحصائيات وبيانات هامة تتعلق بعدد السكان والمصانع التى عنيت حكومة محمد على باشا بإنشائها فى بعض المدن. وكذلك عدد السواقى فى بعض القرى، ومساحة ما ترويه من الأراضى الزراعية مستدلاً على ازدهار الزراعة فى هذه الجهات بانتشار السواقى، وبالتالى مدى التطور الزراعى الذى أصاب بعض القرى والمناطق السودانية على عهد محمد على. وقد أشار فى الوقت نفسه إلى الغلات والمحاصيل الزراعية الجديدة التى دخلت زراعتها بلاد السودان لأول مرة على ذلك العهد. كذلك تناول النظام الضريبى الذى فرضته حكومة محمد على فى السودان على المزارعين فى القرى، وناقش باستفاضة هذا النظام وأقوال بعض الرحالة الذين سبقوه فى هذا النظام مما سنعرض له فى حينه.

ومن المدن والقرى والمناطق السودانية الهامة التى قدر لبكلر مسكاو زيارتها وتعرض لوصفها، ولنشاط أهلها، ومشروعات حكومة محمد على فيها، دنقلة، مروى، شندى، المتمة، وسنار، ومنطقة النيل الأزرق. ولقد أتاحت له زيارة منطقة النيل الأزرق ومشاهدة هذا النهر، وما سمعه عن قرب من معلومات عن مجراه –أتاح له كل ذلك بحث ودراسة احتمال أن تكون منابع النيل فى المرتفعات الشامخة البعيدة فى بلاد الحبشة. وهو احتمال أن يقول إنه كان واثقا منه للغاية، وإنه أطلع محمد على باشا عليه أثناء حديثه معه عن الرحالة "بروس". كما أطلع عليه أيضاً الحكمدار خورشيد باشا حكمدار السودان. ويذكر أنهما اقتنعا به.

كذلك أشار الأمير بكلر مسكاو وبمناسبة حديثه عن احتمال أن تكون منابع النيل فى مرتفعات الحبشة إلى اهتمام محمد على باشا بالكشف عن منابع النيل وما كان من أمر إرسال البعثات المتتالية للكشف عن منابعه فى الجنوب. كما تحدث عن الجهود التى ينبغى أن تسهم بها الدول الأوروبية وبخاصة إنجلترا بالاتفاق مع مصر لإنجاز هذا العمل الكشفى الهام، لما فيه على حد قوله من إضافة للعلم والمعرفة. أما الأقاليم السودانية الأخرى التى لم يقدر على زيارتها، ولكنه أمدنا بمعلومات هامة عنها تضمنت موقعها الجغرافى، وطبيعتها الجغرافية، وما يمارسه أهلها من نشاط فى مجال الزراعة والتجارة والصناعة، فضلاً عن نظم الحكم فى بعضها، فهى التاكا، وإقليم كردفان، ومملكة تقلى، وإقليم دارفور.

ومن المزايا العلمية والتاريخية الأخرى التى تمتاز بها رحلة بكلر مسكاو، هى

اجتماعاته مع محمد علي باشا التي أتاحت له الفرصة لأن يناقشه في المشروعات المختلفة التي أقامها في بعض مناطق السودان التي خضعت لحكمه والتي قدر له زيارتها، وكذلك في مشروعات أخرى زراعية هامة رأى ضرورة القيام بها في مناطق سودانية أخرى شاهدها بنفسه على الطبيعة. وقد كان -كما قدمنا- خبيراً بشئون الزراعة. ومن المشروعات التي عرضها على الباشا مشروع ربط الدلتا الواقعة إلى الجنوب من الخرطوم بين النيل الأزرق والنيل الأبيض، التي تمتاز بخصوبة أراضيها، بشبكة من الترع والقنوات. وهو ما عرف بعد ذلك بمشروع الجزيرة. بيد أنه -كما سنرى- قد انتقد بصراحة بعض تصرفات رجال حكومة محمد على في السودان، ومنها ارتكاب بعض الحكام والموظفين المظالم ضد الأهالي والإساءة إلى حريتهم، والمتاجرة بأقوات المواطنين. وقد ذكر على سبيل المثال احتكار أحد التجار الأغنياء بالاتفاق مع أحد موظفي الحكومة في دنقلة، بيع الغلال وغيرها من المئونة اللازمة للأهالي بأسعار مضاعفة عند حاجتهم إليها.

كذلك أشار في حديثه عن شندى والمتمة بشئ من التفصيل إلى الآثار المدمرة لأعمال الدفتردار الانتقامية التي كان قد ارتكبها انتقاماً لمقتل الأمير إسماعيل في شندى، ومنها حرق المنازل والبيوت، وقتل وأسر الآلاف من السكان الأبرياء، وما كان من أمر تأنيب محمد علي باشا له ومحاولاته لعلاج هذا الموقف المأسوى الذى خلفه صهره.

ومن الأمور الأخرى الهامة التي عاب فيها الأمير بكلر مسكاو حكومة محمد على في السودان، والتي تشير في الوقت نفسه إلى جانب هام في تاريخ علاقات هذه الحكومة بجيرانها الأحباش، ما كان من أمر حملات قنص الرقيق التي اعتادت القوات المصرية القيام بها في المناطق السودانية المتاخمة للحبشة كل عام، وما كانت ترتكبه هذه القوات من أعمال عدوانية ضد الأحباش دون تقدير لحقوق الجيرة. ثم ما انتهى إليه الأمر من نفاد صبر الأحباش بتدبير مذبحة بشعة ضد القوات المصرية قتل وأسر خلالها الآلاف من هذه القوات.

ومع ذلك فقد امتدح الأمير بكلر مسكاو بصفة عامة حكومة محمد على في السودان، ودافع عن أهم النظم التي وضعتها لحكم هذه البلاد وهو نظام الضريبة التي فرضتها على الفلاحين في القرى. فقد ناقش الأمير بكلر مسكاو أقوال بعض الرحالة الذين عابوا على الحكومة فرض هذا النظام، مثل الرحالة Cadalene واعترض عليها، وخلص إلى أن نظام الضريبة التي فرضتها حكومة محمد على على الفلاحين في القرى السودانية ليس مجحفاً بالدرجة التي يتصورها البعض، بل إنه -على حد قوله- يدفع الفلاح إلى الجد والعمل ونبذ التراخي والكسل عندما يدرك عظم المسئولية الملقاة على عاتقه.

أولاً- وصف المدن والمناطق الرئيسية فى الرحلة

مدينة دنقلة (عام ١٨٣٧):

فى الطريق إلى دنقلة شاهد قرى وصفها "بأنها قرى كبيرة يبلغ امتدادها فرسخاً، بيوتها مبنية بالطوب غير المحروق، وأسقفها مغطاة بطبقة سميكة من سعف النخيل، ومحاطة بحقول غنية بمحاصيلها المثمرة. وسوف تنتج خلال شهرين أو ثلاثة أشهر المحصول الثانى." ويضيف قائلاً "وهذه الحقول تكفل لهم قدراً كبيراً من الطمأنينة التى أخذت تسود هنا منذ حكم محمد على."(١) كذلك شاهد وهو فى طريقه إلى دنقلة منطقة أخرى يصفها "بأنها تزرع جيداً ويزيد من انتعاشها البيوت المتفرقة المصنوعة من الطوب التى تمتد على مسافة فرسخ على جانب نهر النيل إلى جزيرة وقرية "دهل" Dahl الكبيرة وسكان "دهل" أكثر مدنية وألفة من سكان دار الهشار أو الحجر Dar-el-Hadshar. والأهالى يقدمون ما لديهم (من منتجات الريف) للبيع وأسعارهم منخفضة مثل الضأن ومنتجاته، والبط، والصنادل والأشياء المصنوعة من سعف النخيل. ولكن الدجاج الذى نجده فى كل مكان فى الشرق، وبخاصة فى مصر بأعداد كبيرة يبدو أنه غير معروف كلية هنا. والسكان يعرفون بيض الطيور البرية. بيد أنهم لا يرغبون فى أكلها." كما يصف "الحافر" أو الحفير التى يذكر بأنها تبعد حوالى فرسخ عن النيل "بأنها تمتاز بمنازلها الجيدة، كذلك فإن الزراعة فيها يبدو عليها المزيد من العناية والاهتمام، والسكان أكثر مدنية."

أما عن مدينة دنقلة فقد وصفها "بأنها تنقسم إلى قسمين متميزين:

القسم الأول: وهو محصن بالحوائط والأبراج الكافية للدفاع ضد المواطنين. وفى هذا القسم يقطن رجال الحكومة والعساكر من مشاة وفرسان. أما **القسم الآخر:** من دنقلة فهو أكثر اتساعا واقتراباً من النهر، وتقطنه بقية السكان البالغ عددهم حوالى أربعة آلاف نسمة. كما توجد سوق معدة إعداداً جيداً، وقليل من المنازل المبنية بالطوب الأحمر ذات النوافذ الخالية من الزجاج، ويمتلكها المواطنون الأثرياء." [الجزء الثانى ص ١٦٠].

وعن النشاط الزراعى فى منطقة دنقلة ذاتها يذكر "أن سهول دنقلة مهملة إهمالاً كبيراً، وأن مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية قد هجرت بسبب الأمراض الوبائية التى اكتسحت عدداً كبيراً من السكان فى السنوات الأخيرة. وتتوالى الهجرات من هذه الجهات إلى إقليم دارفور. كما أن الرى الصناعى قد توقف بطبيعة الحال، ونبتت أشجار السنط الكثيفة فى مساحات واسعة، وأخذ حيوان التيتل يتردد عليها." [ص ١٥٨]. بيد أنه فى مكان آخر من كتاب رحلته يذكر "أن عدد السواقى فى دنقلة يتراوح بين أربعة آلاف

(1) Puckler Muskau, Egypt under Mehemet A li, vol. II, pp. 147.

وخمسة آلاف ساقية". وقد علق على ذلك بقوله "إن هذا دليل قاطع على اتساع نطاق الزراعة فى هذه الجهات." [ص ١٧٢]. ويتحدث عن نظام الاحتكار الذى فرضته حكومة محمد على فى السودان فيقول "إن الحكومة تقوم باستلام الحنطة والأرز وغيرهما من الغلات الزراعية من الأهالى وتبيعها لهم عند حاجتهم إليها بسعر مرتفع." [ص ١٦٦]. ويضيف "أن الحكومة تمتلك فى دنقلة عدة حدائق، تحتوى على الكروم [ص ٣١١]. وكثير من أشجار الفاكهة التى جلب بعضها من كردفان، وترويها السواقى لأن منسوب مياه النيل فى جهات دنقلة منخفض." [ص ١٦٥]. أما عن الماشية فى إقليم دنقلة فإنها تمتاز بضخامتها واستدارة ظهرها، وأن المواد الغذائية خصوصاً اللحوم تبدو لنا جيدة فى دنقلة بشكل ملحوظ، وأسعارها لا زالت منخفضة."[ص١٦٤].

كما أشار إلى "أن الزراف ينتشر فى الصحراء المجاورة لدنقلة، وثمن الزرافة الواحدة يتراوح بين خمسين وسبعين دولارا، وأنه لابد من تصريح خاص من الحكومة بصيدها."[ص١٦٥]. وعن النشاط الصناعى فى دنقلة حدثنا عن مصنع النيلة الذى أسسه محمد على فى دنقلة، وهو من الصناعات الجديدة التى أدخلها فى بعض المناطق السودانية التى خضعت لحكمه ومنها دنقلة. يقول: "إنه ينتج ثلاثة أنواع من النيلة: النوع الأول يتساوى من حيث الجودة مع النيلة الهندى والأقة منه تكلف الحكومة أربعة وعشرين قرشاً، وتباع بثمانين قرشاً." [ص ١٦٤]. ويضيف إلى ذلك "أن المصنع ينتج بصفة عامة خمسين أقة سنوياً، وأنه لا يوجد موظف أوروبى واحد فى المصنع." [ص ١٦٤].

وهناك صناعة محلية أخرى فى إقليم دنقلة اشتهر بها أهل دنقلة قبل حكم محمد على للسودان، وهى صناعة نوع من الأقمشة، حدثنا عنه وما كان له من أهمية فى التعامل بين الناس بقوله "إن نوعاً من قماش الكتان الردئ يقوم الأهالى بصناعته فى تلك الجهات. وإنه فيما مضى كان يقطع إلى أشرطة طويلة يتعاملون بها بدلا من النقود فى بلاد بربر وكذلك فى السودان." [ص ١٥٢]. ويستطرد قائلاً "إن السكان الآن يجبرون فى كل مكان -وهم على مضض- على التعامل بعملة الحكومة طبقاً لقيمتها الثابتة. وإنه لابد من اتباع مثل هذه الصرامة (أى إرغامهم على التعامل بها) لأنه بدونها لا يقبل المواطنون على التعامل بعملة الحكومة." [ص ١٥٢]. كذلك حدثنا عن صناعة نوع من الخمور لفت نظره ويبدو أنه تعاطاه أو تذوقه فى أثناء زيارته دنقلة، إذ يصفه بقوله "يصنع فى دنقلة نوع (من الخمور) يسمى "بلبل" Bil-Bil يشبه البيرة، ولكنه مرطب وطعمه مقبول فى الطقس الحار. وينتشر استعماله حتى فى الخرطوم." [ص ١٦٤].

أما عن تجارة دنقلة، فيحدثنا عن أهمية موقع دنقلة الجغرافى على طريق التجارة بين أقاليم السودان ومصر قائلا "إنه فى طريقه من كرسكو إلى دنقلة شاهد قافلتين من الرقيق وثلاثة قوافل من الإبل فى طريقها إلى مصر." [ص ١٣٦]. ويضيف "أن آلافاً من الإبل ترسل سنوياً من الأقاليم السودانية لسد حاجة مصر، كما أن الطلب على الرقيق لا يزال

متزايدا." [ص ١٣٦]. وفى مكان آخر من كتاب رحلته يذكر "أن القوارب تأتى من دنقلة إلى مصر محملة بالرقيق من الذكور والإناث." [ص ١٠٤]. وفى ذلك إشارة واضحة إلى أن تجارة دنقلة مع مصر كان بعضها يجد طريقه عبر الصحراء والبعض الآخر عبر نهر النيل. على أنه يشير فى الوقت نفسه إلى ظاهرة خطيرة بدأت تهدد العلاقات التجارية التقليدية بين دنقلة وبعض مناطق السودان الأخرى، مع مصر، حين يتحدث عن تحول بعض تجارة هذه البلاد السودانية عن مصر إلى أقطار أخرى مجاورة بسبب النظام الجمركى الذى فرضته حكومة محمد على فى السودان على بعض السلع والمنتجات السودانية ذات القيمة التجارية مثل العاج والصمغ، فضلاً عن ظلم الحكام، إذ يقول "لقد أصبح نادراً مرور القوافل الكبيرة فى الطريق الصحراوى إلى دنقلة والقادمة من سنار "ودهل" Dahl و"ساقية العبد" Saki-El-Abd، لأن طريق التجارة الداخلية تحول إلى طرق أخرى إلى بلاد بربر ومملكة تونس بسبب نظام الجمارك الداخلية غير المعقول والسخيف للغاية معاً، وكذلك بسبب ظلم حكام المناطق الداخلية الذين زادوا من صعوبة إدارة هذه المناطق النائية."[ص١٢٠].

مدينة مروي (عام ١٨٣٧م)

يصف الرحالة بكلر مسكاو المنطقة التى تقع فيها مدينة مروى بأنها تضم ألفا ومائتين ساقية، وأن المظهر العام لها يدل على انتعاشها وتقدم أهلها، فالقرى مبانيها أجود من مبانى غيرها، والحقول تكسوها المحاصيل الزراعية الغنية. كما أن الشواطئ غنية بالكثير من قطعان الماشية. أما مدينة مروى ذاتها فيصفها بأنها تشمل بعض المنازل الحسنة ومن بينها مصنع النيلة الذى هو جدير بالمشاهدة. وفى منتصف الطريق بين "الدبة". و"مروى" تقع "أم أمبكول" Ambukol التى يصفها بأنها مقر الكاشف، وتعقد فيها سوق فى حقل رملى بالقرب من أكواخ القرية (قرية أمبكول). ونصف البضائع التى تعرض فيه من الصناعات الأوروبية مثل المرايا والآلات المعدنية البسيطة والخرز الزجاجي وبعض البفتة الإنجليزية الخشنة. أما باقى البضائع المعروضة فعبارة عن المنتجات الريفية، وبخاصة المواد الاستهلاكية. كما تعرض الصنادل الحجازية الملونة [ص ١٧٧]. أما المنطقة التى تقع فيها قرية "أمبكول" فيصفها "بأنها ليست كبيرة، ويوجد بها ثلثمائة وأربعون ساقية، بمعدل ساقية لكل ثمانية إلى عشرة أشخاص." [ص ١٧٩].

مدينة شندى (عام ١٨٣٧م):

وقبل أن يصف مدينة شندى يرجع إلى ما كانت عليه المدينة قبل أعمال الدفتردار التخريبية التى ارتكبها فيها، إذ يقول "إنها كانت قبل أن يدمرها الدفترار مدينة مزدهرة

تقوم بنشاط تجارى كبير." [ص ٢٤٢]. ويمضى قائلاً: "إنه من المؤلم أن ينظر المرء إلى هذه المدينة التى كانت تضم فى الماضى خمسين ألف نسمة. فمنازلها المتهدمة لا زالت تمتد على جميع الجهات فى الحقول المجاورة التى أصبح قسم كبير منها مهجوراً."[ص٢٥٣]. ثم يستطرد فيحدثنا عن موقف محمد على باشا من أعمال الدفتردار البشعة فى شندى، فيقول "إن محمد على وهو أكثر حنكة وسياسة من الدفتردار بذل جهده فى سبيل إزالة الأثر السيئ الذى تركه الدفتردار، فمعظم المشايخ فى هذه الجهات يتسلمون منه مكافآت، والشيخ بشير يتقاضى بمفرده خمسمائة قرشاً شهرياً من الحكومة، ويُعد ذلك مبلغاً كبيراً." [ص ٢٥٣]. وربما كان لهذه السياسة الطيبة التى أخذ محمد على يسلكها مع مشايخ المنطقة التى تقع فيها شندى بعد أحداث الدفتردار المؤلمة، أثرها الواضح فى انتشار الأمن والطمأنينة فى ربوع هذه البلاد، ويذكر فى مكان آخر من كتابه "أن الطريق الصحراوى الذى يصل إلى شندى وتقطنه عرب الحسينية كان أيام الرحالة "بوركهارد" تكتنفه الكثير من المخاطر. أما الآن فى عهد محمد على فقد أصبح السير فيه آمناً كما هو الحال فى مصر." [ص ٢١٠].

مدينة المتمة (عام ١٨٣٧م):

ويصف مدينة المتمة ويقارنها بدنقلة التى تشبهها من بعض الوجوه بقوله "إن المتمه تقع مقابل شندى إلى الجنوب قليلاً. وهى فى حجم ومساحة دنقلة، وتشبهها فى بيوتها المبنية بالطوب الجاف المصنوع من الطفل (الطين)، ولكن منظرها العام أكثر إزدراء." [ص ٢٤٣]. ويصف لنا ما قام به الدفتردار فى المتمة من أعمال بشعة، وما خلفه من آثار سيئة، على نحو أكثر وضوحاً وتفصيلاً مما حدثنا به عنه فى شندى، إذ يقول "إن قسوة الدفتردار فى تلك المدينة ما زالت آثارها قائمة، فقد قتل الدفتردار ما يقرب من ستة آلاف نسمة. وبذلك تسبب فى إقفار البلاد من سكانها، على نحو ما فعل فى شندى. فحتى النساء صغاراً أو كباراً ممن فقدن أزواجهن أرسلهن جميعاً كرقيق إلى القاهرة. بيد أن محمد على عندما علم بذلك أمر بإطلاق سراحهن، وأنّبه على قسوته."[ص٣٢١].

ويصف لنا فى الوقت نفسه ما صار عليه حال مدينة المتمة بعد ذلك الدمار الذى أصابها على يد الدفتردار، وكيف عادت إليها الحياة والنشاط من جديد وبصورة تدعو إلى الإعجاب، فهو يقول: "إنه لأمر يدعو إلى الدهشة حقاً إنه بعد هذا التخريب والفزع استطاعت البلاد خلال خمس عشرة سنة أن تستعيد نشاطها، وتصبح مرة أخرى مدينة منتعشة يقدر سكانها بالآلاف. وقد عاودوا نشاطهم التجارى فى شتى نواحى التجارة، وكذلك نشاطهم الصناعى. فهم يصنعون نوعاً من البفتة يقومون بصباغتها بصبغة جميلة ذات لون أحمر قاتم، وأيضاً نوعاً من قماش الكتان الخشن الرمادى اللون، وأشكالاً من

الحصر على جانب كبير من الجمال، وكذلك سلعاً وأوانى من سعف النخيل. ويباع ريش النعام هنا بكثرة بسعر زهيد يبلغ فرنك واحد فقط للرطل الذى يباع فى القاهرة بثلاثين فرنكا." [ص ٢٤٣].

منطقة النيل الأزرق (عام ١٨٣٧م):

لقد وصل الرحالة بكلر مسكاوى فى رحلته فى السودان جنوباً إلى النيل الأزرق -كما سبق أن أوضحنا- حيث صعد النهر إلى "وادى مدنى" Wady Medineh، ومنها سار إلى "ماسلينة" Masselineh التى تقع على مسيرة ثمانية فراسخ إلى الغرب من "وادى مدنى".

وقد وصف منطقة النيل الأزرق وصفاً متكاملاً تناول فيه طبيعة التربة فى المنطقة، ونشاط أهلها الزراعى والمشروعات الزراعية التى يمكن لحكومة محمد على فى السودان أن تقوم بها للنهوض بالزراعة وزيادة الإنتاج الزراعى فى هذه المنطقة، بالنظر إلى اتساعها وخصوبة تربتها، كما تناول نشاط أهل المنطقة الصناعى الذى امتازوا به، وكذلك نشاطهم الرعوى وثروتهم الحيوانية. كل ذلك جاء فى وصف الرحالة بكلر مسكاو للقرى الرئيسية التى زارها في هذه المنطقة مثل قرية "نوبا" Nuba وقرية "ماسلينة" Masselineh، وقرية "وادى مدنى" Wady Medineh.

كذلك فإن وصوله إلى منطقة النيل الأزرق وهى القريبة من حدود السودان المتاخمة للحبشة، ومشاهدته لمعالم الطبيعة فى هذه الجهات عن قرب، جعله يتناول الحديث عن منابع نهر النيل واحتمال أن تكون فى بلاد الحبشة المجاورة. حيث تسقط الأمطار الغزيرة على جبالها الشامخة. كما أنه تناول جانباً خطيراً من علاقة حكومة محمد على فى السودان بجيرانها الأحباش، إذ أشار إلى حملات قنص الرقيق التى اعتادت قواتها أن تقوم بها على حدود الحبشة كل عام، وما كان يتخللها من اعتداءات على الأحباش دفعتهم إلى بعض الأعمال الانتقامية ضد هذه القوات مما سنتناوله بالتفصيل فى حينه.

يصف طبيعة التربة فى منطقة النيل الأزرق "بأنها على درجة عالية من الخصوبة، بحيث أنه إذا ما سقطت كمية كبيرة من الأمطار فى إحدى السنوات، فإن المحاصيل الزراعية تكفى لسبع سنوات قادمة. ولكن لسوء الحظ لم يأت فصل غزير المطر منذ عشر سنوات، مما أدى إلى حدوث فاقة من حين لآخر. ومع ذلك فهم الآن يتوقعون حدوث البركة لأن موسم الأمطار ظهر مبكراً قبل موعده المعتاد بأربعين يوماً." [ص ٣٢٦].

ويصف مبانى القرى فى هذه المنطقة بقوله "إن مبانى قرى هذه الجهات -كما تبدو- تمتاز بأنها جيدة ومتسعة، ويملك الأهالى قطعاناً من الماعز والإبل تأتى إلى النهر لتستقى من مائه، مما يؤخذ عادة دليلاً على تقدم سكان هذه القرى." [ص ٣٢٤، ٣٢٦].

ويصف قرية نوبا، Nuba إحدى قرى منطقة النيل الأزرق التى زارها "بأنها تمتاز بجودة

أراضيها وبالحقول الخصبة التى تحيط بها، وأنه لا يوجد بها إلا القليل من السواقى لأن فصل الأمطار يكفى تقريباً لرى الأراضى لجميع الأغراض الزراعية." [ص ٣٢١]. أما قرية "مسلينة" Masselinch التى تقع إلى الغرب من قرية "وادى مدنى" فى اتجاه النيل الأبيض فيصفها بأنها قرية كبيرة أكثر نظافة وذوقاً فى مبانيها من "قرية وادى مدنى". ثم يتحدث عن النشاط التجارى فيها بقوله "ويعقد فيها (قرية مسلينة) سوق سنوى عظيم، بالإضافة إلى سوق كبيرة تعقد مرتان فى الأسبوع: يوم الثلاثاء والسبت فى سهل فسيح عند نهاية القرية. وفى هذه السوق تعرض الصنادل والأحجبة (التمائم) والأسلحة وتراب الذهب وأدوات الزينة لملابس النساء، بالإضافة إلى منتجات الريف الزراعية والصناعية."[ص٣٥٥]. ويصف المنتجات والصناعات الريفية التى اشتهرت بها قرى هذه البلاد بشئ من التفصيل معبراً عن إعجابه الشديد وتقديره الكبير لتلك الصناعات والمنتجات الريفية بقوله "إنها تشمل الحصر من سعف وألياف النخيل والتى يتخللها سيور جلدية ملونة تلويناً بديعاً، وهى تفوق نظائرها فى أوروبا جمالاً وبهاء وإبداعاً، وفى نفس الوقت أسعارها منخفضة جداً. ويقومون كذلك بصناعة الأطباق والأوانى والكؤوس البدائية (البسيطة) ذات الأشكال المتنوعة من ثمار نبات القرع المختلفة التى تلون غالباً مثل الأوانى الأتروسكونية برسوم الحيوانات التى يصور الكثير منها تصويراً بديعاً. وهذه الأوانى خفيفة الوزن مثل الجلد، ومع ذلك فهى أكثر تحملاً، وسهلة التنظيف، كما أنه لا يعلق بها شئ من محتويات الطعام، كما هو الحال فى الأوانى الخشبية. ولا توجد سلطانية لبن أبسط وأجمل فى صنعتها من ثمرة القرع بعد نضجها." [ص ٣٦٤- ٣٦٥]. ويضيف "أن الزيت غير معروف لدى أهالى الجنوب على النيل الأزرق، لذلك فهم يحرقون الزبد لإشعال مصابيحهم. كما يستخدمون الزبد بكميات كبيرة بدلاً من الدهان. ومن المحتمل أن يكون ذلك هو السبب الذى من أجله يكرهون الزبد كعنصر من عناصر الطعام."[ص٣٢٠] ويستطرد قائلاً "إن هذه السلع تعرض بأثمان منخفضة جداً، ويحرص أهالى تلك الجهات على إخفاء الأشياء غير المتداولة فى السوق لمدة عام يضطر المسافر (الزائر) الراغب فى شرائها إلى الانتظار خلالها فى مكان ما وقتاً طويلاً يكفى لإدخال الثقة فى نفوسهم نحوه. ويرجع الدافع إلى ذلك أن الأتراك قد جرت عاداتهم أن يحصلوا على ما يريدون من تلك السلع إما كرهاً أو بثمن بخس جداً." [ص ٣٥٨].

أما عن المشروع الزراعى الذى اقترح على محمد على باشا تنفيذه فى منطقة النيل الأزرق والأراضى الواقعة بين النيل الأزرق والنيل الأبيض بعد زيارته لهذه الجهات ومشاهدة معالمها الطبيعية، فقد قدم له دراسة لظروف البلاد الطبيعية، وما كانت عليه هذه البلاد من انتعاش وازدهار فى الماضى، ثم ما أصابها بعد ذلك من تدهور. وأخيراً ما يمكن أن ينالها من تقدم يعيدها إلى حالة الازدهار والانتعاش التى كانت عليها من قبل. وقد عبر عن ذلك بقوله "إن منطقة النيل الأزرق تمتاز بخصوبتها فى كل بقعة من بقاعها.

وجزء منها يزرع عقب سقوط المطر. وقد كانت هذه المنطقة هى وجزء من شبه جزيرة مروى تروى وتزرع باستمرار، وتضم مدناً زاهرة وآهلة بسكانها، كما كانت تخترقها طرق القوافل. وإن الجهات المهجورة منها لا تحتاج إلا للرجال والمال، ونشر الصناعة لتصبح مرة أخرى منطقة منتعشة." ويستطرد قائلاً "والدلتا الواقعة بين النيل الأزرق والنيل الأبيض، تمتاز بخصوبتها مع افتقارها إلى السكان. ولو أن محمد على ربطها بشبكة من الترع والقنوات لكان ذلك معيناً لا ينضب من الخيرات الوفيرة." [ص ٣٧٢]. ويضيف "بأنه كتب إلى محمد على باشا تقارير مطولة عن هذا الموضوع، وأن الباشا وعد أن تكون موضع اهتمامه وعنايته. ويقول إنه أولى هذه الأقطار اهتماماً وعناية أكثر من ذى قبل." [ص ٣٧٢].

يقول عن الموضوع الخاص بالكشف عن منابع نهر النيل "لقد وصل خورشيد (حكمدار السودان) فى استكشافاته جنوباً إلى خط عرض ٨ تقريباً" [ص ٣٠٢]، لكنه لم يشاهد ما يدل على وجود منابع النيل فى هذا الاتجاه الذى تشير إليه خرائطنا. "ووفقاً لما دلت عليه احتمالاتنا نتيجة لذلك، فإن تلك الجبال التى ينبع منها تقع إلى الجنوب الشرقى، حيث الجبال الشامخة فى أقاصى الحبشة. وقد وصل خورشيد إلى ذلك الاحتمال، بل إن محمد على نفسه وصل إليه، عندما كنا نتحدث عن بروس، إذ أبدى رأيه فى أن منابع النيل الحقيقية يجب أن يبحث عنها فيما وراء الحبشة." [ص ٣٠١]. ويضيف قائلاً: "وعلى الرغم من أن منابع النيل كانت موضع بحث وكشف دون الوصول إلى نتيجة خلال أربعة آلاف سنة، فإننى واثق تمام الثقة بفضل ما حصلت عليه من المعلومات، ومعرفتى بتلك البقاع أنه لا توجد عقبات كأداء تحول دون اكتشافه، لو أننا اتبعنا وسائل الكشف الصحيحة." [ص ٣٠١]. ويستطرد: "ولا يسعنى هنا سوى أن أعبر عن دهشتى كيف أن دول أوروبا لم تفكر فى تنظيم بعثة لهذا الغرض، وعلى رأس هذه الدول تلك الدولة الفتية الغنية انجلترا العظمى التى يروقها القيام بمثل هذه الأمور، بفضل ما جبل عليها أهلها من حب الترحال (الرحلات)، فضلاً عن قدرتهم على تنفيذ مثل هذا المشروع. ولو أن فرداً أو حكومة تعلن عن استعدادها للقيام بتلك المهمة وعن تحملها نفقات هذه الرحلة مع قناعة بأن الهدف منها هو زيادة المعرفة والعلم، فإنه لن توجد بعد ذلك ثمة صعوبة أياً كان نوعها فى ضمان الحصول على التعضيد الكافى من الحكومة المصرية التى بدونها يتعثر دون شك تنفيذ مثل هذا المشروع" [ص ٣٠١].

ثانياً: دراسات الرحالة بكلر مسكاو فى شرق السودان وغربه

إقليم التاكا:

لقد حدثنا عن إقليم التاكا شرق السودان، فتناول موقع الإقليم الجغرافى، وطبيعة أراضيه، واتساع العاصمة التى تحمل اسم الإقليم، وموقف سكان الإقليم من دفع الضريبة لحكومة محمد على، مشيراً إلى بعض ما جاء فى كتاب الرحالة كايو Caillioud الفرنسى عن إقليم التاكا، إذ يقول "إن إقليم التاكا يقع حسب الخرائط التى وضعها الرحالة "كايوه" بين قوز رجب ونهر العطبرة والحبشة. وبعض الأهالى العديدين الذين يقطنون هذا الإقليم يدفع الضريبة للوالى (محمد على باشا)، ولكن لابد بصفة دائمة من استخدام قوة السلاح فى جمعها" [ص ٣٤٤].

ويضيف "أن سهول التاكا تمتاز بأنها متسعة، وآهلة بالسكان، وصالحة جداً للزراعة. وعاصمة الإقليم التى تحمل اسمه ربما يبلغ اتساعها ستة أمثال الخرطوم" [ص ٣٤٤].

إقليم كردفان:

لقد قدم لنا الرحالة "بكلر مسكاو" دراسة هامة لإقليم كردفان تناول فيها وصف مدينة "الأبيض" عاصمة الإقليم، وثروة الإقليم الحيوانية والمعدنية، وبخاصة معدن الذهب، وما كان من أمر اهتمام حكومة محمد على باستخراجه من مناطقه فى مرتفعات "شيبون". ونظرة الأهالى المشوبة بالحقد على الحكومة لمنافستها لهم فى استخراج هذا المعدن النفيس. كما تضمنت هذه الدراسة عرض مشروع "هولرويد" Holroyd الزراعى الذى اقترحه على محمد على ليخدم المنطقة الواقعة بين النيل الأزرق والنيل الأبيض، ومنطقة كردفان المجاورة، فضلاً عما يعود عليه من منافع كثيرة، إذا ما تم تنفيذه. كذلك تناول فى دراسته لإقليم كردفان تحت حكم محمد على عملية قنص الرقيق من مناطق الزنوج فى الداخل، التى اعتادت الحكومة أن تقوم بها كل عام. كما أشار إلى انتشار تجارة الرقيق بين شعوب إفريقية الداخلية، والأسباب التى من أجلها يصبح منع هذه التجارة الشائنة أمراً صعباً على محمد على.

ويصف مدينة "الأبيض" عاصمة إقليم كردفان "بأنها أكثر الأماكن إتساعاً وإزدحاماً فى السودان الخاضع لحكومة مصر، ويزيد عدد سكانها على عشرين ألف نسمة، أغلبهم يسكنون فى أكواخ على شكل خيام ذات شكل طريف. والشخصيات البارزة هى التى تقطن منازل من الطفل (الطين) مثل التى فى المتمة" [ص ٢٤٩]. أما عن طبيعة إقليم كردفان الرعوية وثروته الحيوانية فيصفها بقوله "إن جميع كردفان الشمالية تغطيها

السافانا التى لا حد لها، وأشجار السنط تنمو أحياناً منفردة، وأحياناً أخرى تنمو متجمعة على شكل غابات يوجد بها الزراف وقطعان من النعام وأعداد من التيتل من مختلف الأنواع" [ص ٢٤٩]. وعن الماشية التى اشتهر بها إقليم كردفان وقد أشار إلى ما سبق أن ذكره الدكتور هولرويد Holroyd فى هذا الشأن من أن وفرة الماشية فى شمال كردفان غير عادية إلى درجة كبيرة، وأن بعض السكان يملكون قطعاناً تزيد على عشرة آلاف رأس، وجميعها يجد مرعاه فى السافانا. وهذا دليل على أن المياه لابد أن تكون متوافرة أسفل سطح الأرض[ص ٢٤٩، ٢٥٠]. ويقول: "لقد كان من رأى الدكتور (هولرويد) أن هذه البلاد فى الإمكان أن تتحول إلى أغنى البقاع فى إفريقية، لو أن قناة حفرت من "جبل موجل" أو من البحر (النيل) الأزرق إلى النيل الأبيض والتى لا يمكن تنفيذها دون صعوبة كبيرة. بهذه الوسيلة يمكن الحصول على جزيرة بين هذين النهرين حتى الخرطوم تكون أكثر ازدهاراً من مصر السفلى. وهنا سيكون المنجم الحقيقى لمحمد على، إذ عن طريق زراعة القطن وقصب السكر والنيلة ومعظم أنواع الغلال،، وكذلك السنامكا التى تنمو نمواً سريعاً، يمكنه الحصول على موارد كبيرة" [ص ٢٥٠].

وعن الثروة المعدنية فى إقليم كردفان يتحدث الرحالة "بكلر مسكاو" عن معدن الذهب بصفة خاصة وعن جهود حكومة محمد على لاستخراجه من مناجمه هناك بقوله "إن مناجم ذهب كردفان تتركز فى شيبون وقد أرسل محمد على الخبراء النمساويين للكشف عن هذه المناجم تحت إشراف الرئيس "روسيجر" Russeger، وكان يرافق البعثة حرس كبير مؤلف من أربعمائة من المشاة ومائتين من الفرسان. وكان وجود مثل هذا الحرس لازماً فى تلك المنطقة التى يوجد بها أقوام سود شجعان ميالون للقتال يملأ قلوبهم الحقد من أجل ذهبهم الذى كانوا يتابعون غسل ترابه، وإن كان ذلك يتم بطريقة غير متقنة، ولكن بقدر كبير من الصبر وطول الأناة. ومن هنا يتاجرون فيه على نطاق واسع مع كردفان وسنار بل ودنقلة أيضاً." [ص ٣٠٣]. ويضيف "أن مصطفى بك قد شغل من عهد قريب بالحرب معهم، فأحرق "شيبون" وأخضع بعض المناطق الجبلية هناك، لكن هذا كله لم يثبت أقدام المصريين هناك." [ص ٣٠٣].

وفى مكان آخر من الكتاب يشير إلى مناطق أخرى للذهب في كردفان بقوله: "إنه إلى الشرق من شيبون" توجد مرتفعات "أبو شفارة كفارمة" Abul Shaareh Kaarmeh فى الغرب و"البورام" El-Bouram و"مهرى" Mohri و"تنجور" Tangour إلى الجنوب من جبل "طيرة" Teerah وسهول بلاد "فرتيت" Fartit. وجبل "طيرة" يقع على مسيرة يوم من "شيبون". وجميع هذه الجبال المنفصلة آهلة جداً بالسكان الزنوج الذين مثل النمل فى كثرتهم. هذه الجبال المنفصلة والمنخفضة من المحتمل أن تكون امتداداً لسلسلة من الصخور الأولية التى تخترق إفريقية من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى، ويقول خبراء المعادن أنها تبدو الموطن الرئيسى لمعدن الذهب فى هذا الجزء من العالم. وبين جبل "طيرة" وجبل

"تنجور" يوجد سهل ذو تربة رملية ناعمة غنية بتراب الذهب. ومع أن غسل تراب الذهب لا يتم بمهارة، إلا أن الرجل يمكن أن ينتج ما قيمته من فرنكين إلى ثلاثة فرنكات فى اليوم."[ص٢٠٨]. كذلك يشير إلى وجود معادن أخرى فى إقليم كردفان، إذ يذكر أن هناك الأرض التي تغطيها الرمال الناعمة المبللة التي تحتوي علي صخر يستخرج منه معدن يقوم الأهالى بصهره وصناعة الأسلحة الجيدة جداً منه.

أما عن قنص الرقيق من المناطق الداخلية فى إقليم كردفان التى يقطنها هؤلاء الزنوج، وما يرتبط بهذا العمل من قيام تجارة شائنة شائعة بين شعوب إفريقية الداخلية هى تجارة الرقيق، فقد أمدنا الرحالة بمعلومات هامة فى هذا الشأن، إذ يقول إن قنص الزنوج المتوحشين فى الداخل الذى يحدث بانتظام كل عام [ص ٣١٠-٣١١]، ليمد الحكومة بهؤلاء التعساء لهو عمل من أعمال البربرية الذى لا يقبل له عذر. إلا أن هذه التجارة تعم بين جميع شعوب إفريقية الداخلية، كما أنها تجارة مربحة لحكام الأقاليم الذين يقومون فى الوقت نفسه بتجارتهم الخاصة بهم فى الرقيق المأسورين، ويمدون أنفسهم بما يحتاجون إليه. لذلك فإنه سيكون من الصعب جداً على محمد على أن يمنعها كلية[ص٢٤٦]. ويضيف: إن أخا سلطان دارفور الذى يقيم لاجئاً فى "الأبيض" منذ قيام الثورة فى دارفور، هذا الأمير يقوم بتجارة مربحة فى الأطفال المخصيين، ويجد راحة وسعادة فى القيام هو وابنه بالجزء الأكبر من هذا العمل (خصى الأطفال) الذى يتم بطريقة بربرية بأيديهم"[ص٢٥١]. ويستطرد: "وفى مصر العليا يوجد ديران مسيحيان (أقباط) موردهما الرئيسى من عملية الخصى التى يقومون بها على نطاق واسع، حتى أنهم يمدون جميع بلاد مصر تقريباً وجزءا من تركيا بهؤلاء المخصيين" [ص ٢٥١]. وأخيراً يحدثنا عن معاملة الأهالى فى كردفان وفى الشرق بصفة عامة للرقيق بقوله: "إن هؤلاء الرقيق لا يعاملهم الأهالى فى كردفان، كما فى جهات الشرق بوجه عام معاملة قاسية، وإن كان الدكتور "هولرويد" قد شاهد (ولكن فى منزل أوروبى) رجلين جدعت أنفاهما لمحاولتهما الفرار من أسرهم، وهو أمر مفزع، بيد أنه لا يقتصر على هؤلاء الرقيق وحدهم، لأنه فى هذه البلاد يستطيع كل رجل أن يعامل أولئك الذين تحت يده كما يشاء"[ص٢٥١].

يقول: "إن إقليم تقلى الجبلى يقع إلى الجنوب الشرقى من كردفان وهو أقل شأناً من الأقاليم الأخرى (دارفور وكردفان المجاورة). وعلى الرغم من وقوعه مباشرة بين كردفان وسنار، إلا أنه يمتاز بموقع حصين يشد أزره نظام حربى ممتاز. ومن هذا أصبح فى استطاعة أهله الشجعان صد هجمات الأعداء. والحكومة صارمة للغاية، والسلطان الحالى شاب زكى (ذو شخصية) قوية قادر على أن يجمع جيشاً قوامه خمسين ألف رجل. وجميع الأراضى ملك للسلطان الذى له أيضاً السلطة على كل فرد من أفراد رعيته. ومع ذلك يقال إنه يحكم شعبه حكماً عادلاً، ليس فيه قسوة أو جبروت" [ص ٣٠٤]. وعن نشاط أهل "تقلى" يقول: "إن الذهب يوجد فى هذا الإقليم، والزنوج الذين يقومون بغسل تراب

الذهب في منطقة "شيبون" المتاخمة للإقليم هم أولاً وقبل كل شئ فى خدمة حاكم تقلى، وهم يقومون ببعض التجارة مع الجلابة الأجانب. ولا تبدو عليهم مظاهر الرفاهية التى تتجلى بوضوح داخل قصر السلطان." [ص ٣٠٥].

ويضيف الرحالة "بكلر مسكاو" إلى ذلك ما أكده له مصطفى بك (حاكم كردفان) عن إمكانية دخول الأجانب إلى إقليم تقلى، معبراً عنه بالقول: "إن أى شخص أجنبى تبدو أغراضه واضحة مثل التاجر لا يجد صعوبة فى الحصول على موافقة للدخول إلى تقلى، حيث لا يوجد تعصب دينى هناك" [ص ٣٠٦]، ويعلق على الناحية الدينية بالذات بقوله "ولكن مصطفى بك لا يعرف معرفة تامة إذا كان جميع السكان (سكان تقلى) قد اعتنقوا الإسلام"[ص ٣٠٦].

من الملاحظ أن إقليم دارفور لم يكن ضمن الأقاليم والمناطق السودانية التى قدر للرحالة "بكلر مسكاو" زيارتها عام ١٨٣٧ بيد أن اهتمامه بالتعرف على هذا الإقليم جعله يمدنا بمعلومات هامة عنه تضمنت عاصمة السلطنة التى هى مقر سلطان دارفور، وطبيعة الإقليم الجغرافية، من حيث مصادر المياه والحياة النباتية. وأخيراً موقف سلطان دارفور من كل أجنبى يرغب فى دخول بلاده. يقول الرحالة "بكلر مسكاو": إن كوبة ليست عاصمة سلطنة دارفور ومقر السلطان -كما تخبرنا بذلك المصورات الجغرافية- وإنما هى "تندلتى فاشر" Tendelti Fassir (الفاشر) التى لا توجد على خريطة. لقد كانت كوبة المقر التجارى فحسب، ولكن المدينة الأخرى التى تبدو أكثر جمالاً واتساعاً هى مقر الملك (السلطان) والشخصيات العظيمة. وعن طبيعة الإقليم الجغرافية يذكر "أنه لا يوجد فى دارفور نهر كبير، وإنما توجد جداول مياه تتسع إلى أنهار، إلى جانب عدة آبار وأحواض مائية، ولذلك ليست هناك حاجة إلى ماء فى أى مكان فى الصحراء المجاورة. وتوجد غابات هناك. والأرض خصبة جداً، ومن المحاصيل الزراعية الفواكه مثل البرتقال والليمون والرّمان والشمام وأنواع أخرى، كما توجد أصناف الخضر التى توجد فى السودان وكردفان" [ص ٢٥٧]. أما عن موقف سلطان دارفور من الأجنبى الذى يرغب فى دخول بلاده فيقول "إن سلطان دارفور يسمح لأى شخص (أجنبى) أن يدخل مقاطعاته، ولكن لا يسمح لأحد من الأجانب الذين دخلوها بمغادرتها"[ص١٦٩]. ويضيف "أن الدكتور "إكن" Dr. Iken الذى قصد استثمار ثروته فى دارفور يتحدث عن رجلين إنجليزيين كانا يقيمان معه هناك مدة خمس سنوات، وأنهما يعاملان معاملة حسنة ويجدون كل شئ متوافراً لديهم، ولكن حتى الآن لا يجدون وسيلة للهروب" [ص ١٦٩].

ثالثاً: الرحالة بكلر مسكاو وحكومة محمد على فى السودان

لقد تناول بالوصف والدراسة بعض مشروعات حكومة محمد على فى السودان فى مجال الزراعة والإنتاج الزراعى، وفى مجال الثروة الحيوانية، وفى مجال التعدين والصناعة، وفى مجال التجارة المحلية والتجارة الخارجية. وفى مجال الزراعة والإنتاج الزراعى عنى "بكلر مسكاو" بمتابعة اهتمام الحكومة بإقامة السواقى فى كثير من قرى المناطق السودانية التى خضعت لها، وما ترتب عليه من انتعاش الزراعة وزيادة المساحة المزروعة ووفرة الإنتاج الزراعى فى كثير من القرى التى شاهدها بنفسه. وقد قدم بيانات بالأرقام عن عدد السواقى فى هذه القرى. كذلك تحدث عن قرية أمبوكول التى وصفها "بأنها ليست كبيرة، ولكن يوجد بها ثلثمائة وأربعون ساقية، وأن كل ساقية يملكها من ثمانية إلى عشرة أشخاص" [ص ١٧٩].

وفى مجال التعدين والصناعة حدثنا عن جهود حكومة محمد على فى الكشف عن المعادن فى بعض الأقاليم السودانية التى خضعت له، وبخاصة الكشف عن معدن الذهب فى مرتفعات « شيبون » في أقليم كردفان، وما كان من أمر إرسال الخبراء الفنيين فى التعدين من الأوربيين [ص ٣٠٢]. كذلك حدثنا عن صناعة النيله التى أدخلها محمد على فى السودان، فوصف مصنع النيله الذى أقامه فى مدينة دنقلة وأمدنا بمعلومات هامة عن نوع الإنتاج ومقدار ما ينتجه المصنع سنوياً والسعر الذى يباع به، كذلك أشار إلى مصنع النيلة الذى أقامته حكومة محمد على فى مدينة "مروى" ووصفه بأنه هو الجدير بالمشاهدة من بين المنازل والمنشآت الأخرى [ص ١٨١].

وفى مجال التجارة الداخلية حدثنا الرحالة "بكلر مسكاو" عن جهود حكومة محمد على فى السودان للنهوض بنظام التعامل بين السودانيين فى عمليات البيع والشراء، وذلك بإصرارها على أن يكون هذا التعامل بعملة نقدية قيمتها ثابتة، بدلاً من أثواب القماش الصغيرة التى اعتادوا التعامل بها فيما بينهم، حتى لو كان فى هذا الإجراء ما يضايقهم[ص١٥٢]. أما فى مجال التجارة الخارجية، وبخاصة مع مصر، فقد حدثنا عن حرص محمد على باشا على تنشيط الحركة التجارية بين مصر والسودان بتشجيع المصريين على شراء الماشية على وجه الخصوص من الأقاليم السودانية، لوفرتها فى هذه الأقاليم وحاجة مصر إليها لخدمة الأغراض الزراعية بها، تحقيقاً لمبدأ التعاون والتكامل الاقتصادى بين شطرى الوادى الذى سعى إلى تنفيذه بعد خضوعهما لحكومة واحدة [ص ٢١٠]. وقد ارتبط حرص حكومة محمد على على تنشيط حركة التجارة فى الأقاليم

السودانية التى خضعت لها، ومع مصر بصفة خاصة، اهتمامها الملحوظ بنشر الأمن والأمان فى الطرق الصحراوية والنهرية التى ربطت بين البلدين.

وقد أبدى إعجابه وتقديره لجهود الحكومة فى هذا الشأن، إلا أنه عاب سياستها فى نواحى أخرى، ومنها نظام الرسوم الجمركية ونظام الاحتكار الذى فرضته على بعض السلع والمنتجات السودانية ذات القيمة التجارية. كذلك أبدى استياءه من تصرفات بعض الحكام وسوء معاملتهم للأهالى واعتدائهم على حرية الناس. فقد شاهد تاجراً غنياً وموظفاً قبطياً مرتبه الشهرى ألف قرش وينفق أضعافه عشرين مرة، يشتريان جميع الغلال فى مخازن الحكومة بسعر محدد، فإذا ما احتاج أحد المواطنين لشئ منها لغذائه اضطر بدافع الحاجة والضروة التى لا تمهله لانتظار المحصول الجديد إلى شرائه من هذين الشخصين بضعف أو ثلاثة أضعاف السعر المحدد، بينما يقتسم الرجلان الأرباح فيما بينهما [ص ١٦٧]. كذلك انتقد حملات قنص الرقيق التى اعتادت الحكومة القيام بها سنوياً فى المناطق التى يقطنها هؤلاء الزنوج فى داخل كردفان، ومتاجرة الحكام وكبار الموظفين بهذه السلعة البشرية [ص ٣١٠، ٣١١، ٢٤٦].

لئن كان الأمير "بكلر مسكاو" قد عاب على محمد على تطبيقه بعض النظم فى السودان، وأهمها النظام الجمركي ونظام الاحتكار -اللذين قيدا حرية التجارة فى الأقاليم السودانية التى خضعت له إلا أنه أبدى تأييده لنظام الضرائب الذى فرضه على الفلاحين فى القرى السودانية والذى عابه معظم الرحالة الأوروبيين الذين سبقوه إلى زيارة السودان، واعتبروه نظاماً مجحفاً بالفلاحين السودانيين وأرجعوا إليه السبب الرئيسى فى هجر الفلاحين قراهم إلى الصحارى والأقاليم المجاورة، وبالتالى ترك مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية دون زراعة. بل لقد ناقش أقوال هؤلاء الرحالة وآراءهم فى هذا النظام الضريبى مثل الرحالة "كادلفين" Cadalvene الفرنسى الذى زار السودان عام ١٨٢٩م، ودافع عن وجهة نظر حكومة محمد على فى السودان فى فرضه، رغم أنه أورد بعض مساوئه عند حديثه عنه من حيث إلزام أفراد القرية ككل بدفعها، حتى لو كان بينهم المفلس أو العاجز عن دفعها. يقول إنه بالرغم من ذلك فقد اعتبر الأمير بكلر مسكاو الضريبة التى فرضها "محمد على" على الفلاحين فى قرى السودان غير مجحفة بالدرجة التى يتصورها البعض. بل إنها على حد تعبيره تدفع الفلاحين على الجد والعمل، إذ يقول "إن الضرائب التى يدفعها الأهالى فى منطقة دنقلة والبلاد الممتدة حتى شندى تفرض على السواقى.، ويدعى كادلفين زوراً وبهتاناً أن الحكومة تقسو فى تقديرها، إذ أنها تصل إلى ٢٢ دولاراً عن كل ساقية، كما أن الفلاح عليه أن يقدم للحكومة مقداراً غير محدود من المحصول الذى يضطر بعد ذلك لشرائه من الحكومة بأسعار مرتفعة- لكن الحقيقة أن الساقية الكبيرة التى تستطيع أن تروى أربعة أفدنة وتنتج فى المحصول الأول ٤٠ أردباً، هذه الساقية تقدر الضريبة المفروضة عليها بـ ١٥ دولاراً فقط، وأما الساقية الصغيرة فيقل

مقدار الضريبة المقرر عليها . ولا يدفع الفلاح بالإضافة إلي الضريبة النقدية ضريبة أخرى عينية من المحصول، إلا أنه ترك لرؤساء الأقسام الحق فى أخذ جزء من الضريبة عيناً طبقاً للتعريفة التى تحددها الحكومة سنوياً (وهذه الحصة العينية لا تزيد قانونا على خمسة أرادب)" [ص ١٧٣].

ويعلق الأمير بكلر مسكاو على هذا النظام الضريبى الذى فرضته حكومة محمد على فى السودان بقوله: "وإن هذا النظام من شأنه أن يؤدى إلى مساوئ، ولكن من جهة أخرى إذا كان الرؤساء أمناء فإنه يسهل علي الفلاحين دفع الضرائب المقررة عليهم بصفة مستمرة فقد شاهدت بنفسى أمثلة عديدة أثناء رحلتى فى هذه البلاد تؤكد أن الفلاحين يفضلون دفع الضريبة عينا، وليس صحيحاً ما تذكره الكتب من أن الفلاح يجب عليه أن يسلم للحكومة جميع المحصول الذى جمعه بسعر منخفض ثم يشتريه فيما بعد بسعر مرتفع، إذ الحقيقة أن الفلاح يقدم جزءاً من الضريبة المفروضة عليه عيناً من محصوله، ويخصم ثمنه من جملة الضريبة المستحقة عليه. وإذا اضطرته خسارة المحصول أو سوء الإدارة أو أى ظرف آخر إلى شراء بذور التقاوى من الحكومة فإنه فى مثل هذه الحالة يجب عليه أن يشتريها بسعر يزيد على السعر الذى سلم به للحكومة، ولكن دائماً طبقاً للسعر المحدد. وفى هذه السنة وضعت الحكومة الأسعار بحيث لا يزيد الفرق بين سعر التسليم والسعر الذى يباع به للفلاح على قرشين مصريين لأردب الذرة، وثلاثة قروش لأردب الشعير، وعشرة قروش لأردب القمح" [ص ١٧٤]. ويمضى فى تعليقه قائلاً "وإذا استدان الفلاح إما لسوء معاملة الموظفين. وهو أمر دون شك غالباً، أو لإهماله هو وكسله، وهذا ليس قليل الحدوث، فإن حالته تصبح حقيقة سيئة، ولكن من ليس منهم مديناً بشئ للحكومة تكون له حرية التصرف فى كل محصوله بعد دفع الضريبة المقررة عليه. أما الضريبة التى تفرض بعد ذلك على الحبوب التى تباع فى المدن فإنها لا تقع على عاتق الفلاح وإنما على عاتق التاجر الذى يتعامل فيها." [ص ١٧٤].

ويختم الأمير مناقشته لنظام محمد على الضريبى فى السودان بإبداء رأيه الصريح فى هذا النظام إذ يقول أنه مقتنع اقتناعاً تاماً عن طريق المشاهدة أن ما تتطلبه الحكومة من الفلاحين بالنظر لخصوبة التربة فى هذا الإقليم خصوبة غير عادية، بحيث تنتج الأرض عشرة أمثال ما تنتجه فى الأقاليم الأخرى لا يعد مجحفاً على الإطلاق. إذ أن كل شخص بعد دفع الضريبة المستحقة عليه يستطيع بقليل من التدبير والمثابرة أن يكتسب قوته الضرورى وقوت أسرته، وإن كان لا يستطيع أن يختزن مقادير كبيرة منه. وإن أى شخص عرف ولاحظ جيداً سكان هذا الإقليم ينبغى أن يعترف أن هذا النظام بالضبط أنسب لحالهم، فهو النظام الوحيد الذى يستطيع أن يجنبهم الكسل والتدهور، لأنه يدفعهم للعمل. ولو أن الإدارة هنا استطاعت أن تنفذ مطالب الحكومة فحسب، فإنه لن يكون هناك بؤس بين السكان، كذلك لن تكون هناك هجرة من الحقول، بل سوف تكون فى

ممتلكات محمد على طبقات عاملة ليس على النمط الحديث الذى نشاهده الآن (فى أوروبا)، وإنما وفقاً لفلسفة عملية يمكن "لفولتير" أن يقول بمقتضاها "إن فى مصر لويس الرابع عشر"، ذلك أن حاجة الإنسان ينبغى أن تنقص للضرورة، لأن هذا يدفعه للعمل، وتلك هى طبيعة البشر (وهذا ما ينطبق على الفلاح أكثر من غيره). ينبغى أن يكون العدد الأكبر فقيراً وليس بائساً -هذا هو رأى محمد على أيضاً. وإنه لمن الحماقة أن نرغب فى أن يعيش جميع الناس فى رغد من العيش، لأن تحقيق ذلك مستحيل.

مصادر البحث

أولاً- المصدر الأصلى

- Puckler, Muskau: Egypt under Mehemet Ali, (2 vols.). London 1845.

ثانياً- المصادر الثانوية

- Richard Hill: Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan. Oxford 1951.

- دكتور نسيم مقار: الأسس التاريخية للتكامل الاقتصادى بين مصر والسودان - دراسة فى العلاقات الاقتصادية المصرية السودانية (١٨٢١-١٨٤٨) - القاهرة ١٩٨٥.

الفصل السابع

الرحالة فرديناند ڤرن F.Werne

ظروف رحلاته إلي السودان :

الرحالة "فرديناند ڤرن F. Werne " ألمانى الجنسيةمن مقاطعة وستڤاليا. يتبين لنا من روايته عن نفسه أنه كان قبطان سفينة ومهندساً، وأنه قضى فترة من عمره فى بلاد اليونان يحتمل أنه شغل خلالها بالحرب التى كانت قائمة وقتذاك ضد السلطات الحاكمة. ثم سافر إلى السودان، حيث التحق بخدمة حكومة محمد على. وقد كان له أخ يعمل طبيباً بإدارة الشئون الطبية المصرية، وقد توفى بالخرطوم. ولقد اشترك "ڤرن" فى حملة الحكمدار أحمد باشا "أبو ودان" على إقليم التاكا بشرق السودان عام ١٨٤٠، حيث أشرف على إقامة السدّ الذى أمر هذا الحكمدار ببنائه على مجرى حوض القاش، ليحول مياهه إلى نهر العطبرة، فيضطر الهدندوة سكان هذه الجهات إلى التسليم والخضوع للحكومة. وفى إقليم التاكا، حيث أنشأ الحكمدار أحمد باشا "أبو ودان" مديرية التاكا الجديدة، واتخذ كسلا عاصمة لها، أقام ڤرن سبعة شهور، استطاع خلالها أن يقف على أحوال تلك البلاد، وطبيعة سكانها، وعلاقتهم بجيرانهم(١).

ثم رافق "ڤرن" حملة البكباشى المصرى سليم قبطان الثانية التى أرسلها محمد على فى النيل الأبيض للكشف عن منابع نهر النيل جنوباً (عام ١٨٤٠ - ١٨٤١)، فأتيحت له فرصة زيارة مناطق بعيدة فى السودان الجنوبى وأواسط إفريقية. ظلت حتى ذلك الوقت مجهولة وبعيدة عن أنظار الرحالة والمكتشفين الأوروبيين.

وقد سجل "ڤرن" مشاهداته ودراساته فى أقاليم السودان المختلفة التى زارها فى ثلاثة مؤلفات باللغة الألمانية :

الأول: "Feldzug von Sennar nach Taka" (Stuttgart, 1851) وقد ترجم إلى اللغة الإنجليزية عام ١٨٥٢ تحت عنوان "African Wonderings" وقد وصف "ڤرن" فى هذا المؤلف حملة الحكمدار أحمد باشا "أبو ودان" العسكرية على إقليم التاكا لضمه إلى الإدارة المصرية عام ١٨٤٠.

والثانى: "Reise durch Sennar, nach Mandera, Masiib, Gheli" (Berlin, 1852.) وقد ضمن "ڤرن" هذا المؤلف وصفاً لسهل البطانة بين نهرى العطبره والنيل الأزرق بالسودان الشرقى.

---

(1)Werne: Expedition to discover the sources of the white Nile in the years 1840 / 1841, Vol. I, p. 17& vol.

والثالث: "Expedition Zur Entdeckung der Quellen des Weissen Nils" (Berlin, 1848)
وقد ترجم هذا المؤلف إلى اللغة الإنجليزية فى لندن عام ١٨٤٩ تحت عنوان:
"Expedition to Discover the Sources of the White Nile in the Years, 1840, 1841."
(London, 1849)

وهذا المؤلف يعد بحق المصدر الرئيسى لحملة البكباشى المصرى سليم قبطان الثانية للكشف عن منابع النيل كما يدل عليه عنوانه. ويمكن للباحث أن يستدل على أهمية هذا المؤلف فى ذلك الشأن إذا علم أن المصادر الأخرى لتلك الحملة الكشفية وأهمها التقرير الذى وضعه "دارنو" D'Arnaud الذى كان أيضاً برفقتها لم ينشر حتى الآن، ولا يزال محفوظاً فى مكتبة الجمعية الجغرافية بباريس. فضلاً عما امتازت به مشاهداته ودراساته من الدقة التى نلمسها بصورة واضحة فى حديثه عن سياسة الحكمدار أحمد باشا "أبو ودان" فى الحكم وبخاصة فى الشئون الإدارية والمالية، والتى دللنا على صحتها ودقتها بما ورد فى هذا الشأن فى الوثائق والمكاتبات الرسمية من ذلك العهد. التى قدر لنا الاطلاع عليها فى أرشيف سراى عابدين بالقاهرة (القصر الجمهورى).

أولا: مشاهدات "ڤرن" ودراساته فى أقاليم السودان الشمالى:

لعل من أهم الموضوعات التى عالجها "ڤرن" فى كتابه هى السياسة التى انتهجها الحكمدار أحمد باشا "أبو ودان" فى إدارة وحكم السودان (١٨٣٨-١٨٤٣). كما تناول بصفة خاصة نشأة مدينة الخرطوم العاصمة الجديدة للسودان على عهد محمد على، والتطور الذى أصابها خلال حكمدارية أحمد باشا "أبو ودان"، وما قام به الحكمدار أحمد باشا "أبو ودان" من إصلاحات لعمرانها والنهوض بها وحمايتها من الأوبئة وأخطار الفيضان. كذلك حدثنا "ڤرن" عن أهم القبائل الرعوية فى السودان الشمالى وهى البقارة والكبابيش.

سياسة الحكمدار أحمد باشا "أبو ودان" في حكم السودان:

يجمع الرحالة الذين زاروا السودان مدة حكم الحكمدار أحمد باشا "أبو ودان"، وكذلك المورخون السودانيون على القول بأن هذا الحكمدار كان من أقوى الشخصيات التى حكمت السودان على عهد محمد على وأشدهم بأساً (١).

ويشبه "ڤرن" السودان على عهد أحمد باشا "أبو ودان" بروسيا زمن القيصر نيقولا، من حيث أنه كان مثار رعب فى نفوس الموظفين المصريين والترك الذين كانوا -على حد قوله- يبدون كالخرس أمامه لا يجرؤ أحد منهم على الكلام، وحتى الموظفين الأوروبيين،

(1)Robivson: the rulers of the Sudan.... Journal of African Society, Vol. XXIV, P 42.

وإن لم يستخدم معهم الشدة التى كان يعامل بها الموظفين الآخرين، إلا انهم لم يسلموا من إهاناته.

ويصف "ڤرن" شدة بأس الحكمدار أحمد باشا "أبو ودان" وصرامته فى معاملة الموظفين، وبخاصة المرتشين والمختلسين منهم بقوله "إن أحمد باشا لم يقنع بما كشف من اختلاس وتزوير حسابات السنوات الماضية، وبما أنجز من مراجعة هذه الحسابات، بل أخذ يعاقب هؤلاء الموظفين المختلسين لاختلاساتهم، فلم يعد أحد منهم يمتلك شيئاً سوى ردائه الحقير، إذ أن كل ما كانوا يمتلكونه قد تم بيعه، المنزل والحديقة والملابس، والأدوات المنزلية وأدوات المطبخ. وباختصار كل شئ حتى الأبسطة والأغطية التى كانوا يستعملونها أثناء نومهم وأثناء راحتهم. وقد وضعت أثمان هذه الأشياء فى الخزانة العامة."[ص ٣٧ ڤرن]. ويستطرد قائلاً: "حقيقة أن جميع الموظفين الأتراك تقريباً خائنون ويعملون من أجل إثراء أنفسهم أو اختلاس أموال الدولة. بيد أن المبلغ الذى يثبت على الموظف اختلاسه يكون فى العادة ضعف أو أربعة أضعاف ما يمتلكه. وفى هذه الحالة يستولى على جميع ممتلكاته، وإذا رغب فى أن يظل فى منصبه (لتسديد ما عليه) فإنه لا يعطى من أجره إلا مقداراً من الذرة وأما الباقى فيخصم من دينه ويوضع فى الخزانة."[ص٣٧ ڤرن]. ويستطرد "ڤرن" قائلاً وفى بعض الحالات يحكم على الذين اشتركوا مع الموظفين فى جريمة الاختلاس بأن يسددوا ما تبقى عليه من دين بعد بيع ممتلكاته. وقد يكون من بين هؤلاء الشركاء من كان موظفاً كبيراً عند الباشا سابقاً أو زميلاً له أو رفيقاً للمحصل. وهذا الحكم يتبع عادة عندما يكون الشركاء من القبط. والكثير منهم يشنقون لمجرد إشاعة الرعب فى النفوس" [ص ٣٧، ٣٨].

على أن هذه الشدة والصرامة التى اتسمت بها سياسة الحكمدار أحمد باشا "أبو ودان" فيما يبدو اقتصرت بصفة خاصة على الحكام والموظفين المرتشين والمختلسين وعلى المشتركين معهم فى أعمال الرشوة والاختلاس، ولا يوجد ما يشير إلى أنه عامل بها المواطنين السودانيين العاديين أو شيوخهم، بل على العكس من ذلك عامل شيوخ وزعماء القبائل، ولا سيما من لهم سطوة ونفوذ واضح على قبائلهم وشعوبهم، معاملة طيبة وذلك لخدمة المصالح العليا للحكومة (أو بما يوصف بحسن السياسة). وهو ما يشير إليه الرحالة "ڤرن" نفسه فى حديثه عن حملة الحكمدار أحمد باشا "أبو ودان" على المرتفعات المجاورة لمناطق فازوغلى والكماميل الشهيرة بمعدن الذهب. إذ يقول: "إن أحمد باشا (الحكمدار) كان قد أخضع فى حملة، سكان جبل "طابى" Tabi و"أبا رقرق" و"سنجة" Singue، و"بنى شنقول" (على مسيرة ١٢ يوماً خلف فازوغلى)، ودخل فى سلم معهم، كما استعان بالشيخ سليمان الذى كانت مقاطعته تمتد من "أبا نانذى" Aba Nande أسفل الروصيرص حتى "فازوغلى" على حمل رؤساء هذه المناطق على طاعة الباشا. وكان سليمان رغم كبر سنه يتمتع بمكانة وسمعة قوية بينهم. ولكن محمد على كان حانقاً على

شيوخ جبال فازوغلى والكماميل لعدم إظهارهم الولاء والخضوع له. ولذلك أخذ أحمد باشا يتبع سياسة المهادنة وإرسال الهدايا إلى رؤساء الكماميل حيث توجد أغنى مناجم للذهب هناك، وإلى رؤساء "فازانجور" Fazangur و"دهب" Duhb، وحتى إلى رؤساء "جلا" وإلى "أبو ســـاروت" Abu Sarrott الذى كان يثير الرعب فى جميع الجبال الواقعة خلف فازوغلى الذى كان قد تسلم هدايا من السيوف والملابس التركية من محمد على، ولكن بعد مضى ١٤ يوماً عاد إلى السلب فنهب جميع مخازن البارود واستولى على البقر والإبل" [ص ٤٢- ٤٣].

ويتناول الرحالة "ڤرن" سياسة أحمد باشا"أبو ودان" المالية ويقارنها بسياسة سلفه الحكمدار خورشيد باشا فيقول: "بالإضافة إلى الأموال التى كانت مصر ترسلها إلى السودان لإعانة الجيوش، كان الذهب الذى يرسل من فازوغلى وكردفان إلى القاهرة ليضرب نقوداً، يرد بالتالى إلى السودان، لأن خورشيد كان دائم الشكوى من خلو الخزانة من المال [ص٣٥]. "أما أحمد باشا فقد عرف كيف يزود نفسه بالذهب اللازم. وقد أرسل إلى مالية العزيز أربعة آلاف كيس من الفائض من الخزانة. ولكى يظهر أنه أحسن من سلفه أرسل إليه هدية من ألف وخمسمائة أوقية من الذهب وإلى جانب ذلك كان ينفق نفقات كبيرة، إذ كان يدفع للعساكر أكثر مما كان يدفعه لهم خورشيد باشا مرة ونصف، كما اشترى آلافاً من الإبل والحمير لحاجة "الغزوة" إليها فى عمليات النقل." [ص ٣٥].

ويعلق "ڤرن" على هذه السياسة المالية التى انتهجها الحكمدار أحمد باشا "أبو ودان" فى السودان، معبراً عن رأيه فيها بصراحة وموضوعية بقوله: "وإن المرء قد يستنتج من ذلك أن إصلاحاً شاملاً فى نظام الحكومة قد تم على يد هذا الباشا، وأن انتعاشاً فى الزراعة قد جاء بتلك الأموال وذلك الذهب، ولكن هذا الفائض الذى حصل عليه، إنما قد جاء من مصادر ونواح أخرى أكثر مما هو نتيجة لتقدم البلاد وازدهارها. فإذا كانت الضرائب المباشرة لم تدفع بانتظام عن طريق الكشاف، فإن لدى أحمد باشا وسائل أخرى عديدة يضغط بها على الأهالى للحصول على الذهب، ومنها فرض الضرائب الجائرة من المال والذهب" [ص ٩٥]، وبيع الغلال من شون الحكومة ومزارعها، وكذلك الغنائم والأسلاب التى يحصل عليها من "غزوات" قنص الرقيق [ص ٣٥، ٣٦].

على أن "ڤرن" لا ينكر فى الوقت نفسه على الحكمدار أحمد باشا أبو ودان قيامه ببعض الإصلاحات والمشروعات العمرانية. فهو يذكر أن زراعة النخيل التى يمكن أن تكون مصدر خير وبركة على البلاد، كانت فى سنار كما هو الحال فى التاكا ذات الخصوبة الخارقة للعادة، مهملة إهمالاً تاماً، رغم أن البساتين القريبة من مدينة سنار، وكذلك الحدائق الكثيرة فى الخرطوم تعطى لنا الأمثلة الحية على الفوائد الكثيرة التى يمكن أن تجنى من شتل بعض أنواع النبات والزرع إلى هذه المناطق الجنوبية. ويقول: "إن أحمد باشا قد نقل إلى سنار بطريق النهر ستة آلاف نخلة صغيرة، حيث اختار لغرسها أرضاً واطئة جداً حتى تفيض عليها مياه الفيضان ويوفر تكاليف ريها." [ص ٩٨].

مشروعات الحكمدار أحمد باشا "أبو ودان" في الخرطوم:

من الملاحظ أن الإدارة المصرية فى السودان (حكومة الفتح الأول ١٨٢٠/ ١٨٢١م) لم يقع اختيارها على إحدى المدن السودانية مثل بربر أو سنار أو الأبيض لتكون عاصمة البلاد ومقر الحكومة الجديدة، وإنما اختارت موقعاً وسطاً عند ملتقى النيل الأزرق بالنيل الأبيض وأقامت عليه مدينة الخرطوم الحالية.(١) ويعرض لنا "ڤرن" نشأة مدينة الخرطوم وطبيعة موقعها الجغرافى، وما قام به الحكمدار السابق خورشيد باشا الذى يرجح أنه المؤسس الحقيقى للخرطوم من منشآت لعمرانها، إذ يقول: "إن الخرطوم عاصمة بلاد السوان التى يعيش فيها الآن خليط من السكان يبلغ عددهم حوالى ثلاثين ألف نسمة، وتقع حسب تقرير "دوق بول وليم" Duke Paul William (الذى زار السودان عام ١٨٤٠) على خط عرض ٢٥ً ٤١َ ١٥ْ شمالاً، كانت منذ بضع سنوات عبارة عن أكواخ لصيادى الأسماك. وعلى لسان من اليابس يمتد من المدينة شمالاً تجاه مدخل النيل الأبيض كانت توجد الحقول والحدائق. ومن هنا حدث التوسع لهذه المدينة فى اتجاه النيل الأزرق فصاعداً إلى الجنوب الشرقى، وهكذا اتسع نطاق الحدائق على هذا الجانب الرئيسى، بينما توجد أكواخ المواطنين مبعثرة على حافة النيل الأبيض. وهذه المجموعة الصغيرة من البيوت الكائنة فى مكان أكواخ الصيد تسمى "البلد" ومعناها القرية (بخلاف المدينة)" [ص ٥٥].

ويمضى "ڤرن" فى حديثه قائلاً: "ومن الجائز أن خورشيد باشا كان المؤسس الحقيقى للخرطوم، لأنه جعلها مقراً له، كما أنشأ فيها مزيداً من المنشآت العامة، بالإضافة إلى المرفأ الذى أقامه على النيل الأبيض، وكذلك على النيل الأزرق. وباستثناء الجامع والسوق، فإن جميع البيوت من الخشب أو من الأحجار. والبيوت المنشأة حديثاً ضيقة بحيث تتسبب فى وجود البرك التى تضر بالصحة العامة ضرراً بليغاً." [ص ٥٥]. ثم يتناول "ڤرن" المشروعات العمرانية التى قام بها الحكمدار أحمد باشا "أبو ودان" فى الخرطوم وقد شاهد تلك المشروعات بنفسه، بل ربما اشترك فى تنفيذ بعضها بحكم عمله كمهندس. يقول: "لقد أحس أحمد باشا بالأضرار الصحية التى تنجم عن وجود البرك داخل المدينة. لأنه هو نفسه وقع فريسة للحميات، فأراد أن يتلافى أضرار هذا الموقع غير الصحى لتلك المدينة، ليس بردم هذه البرك عن طريق هدم المنازل المجاورة لها فحسب، بل بالعمل على توسيع الشوارع ليتجدد فيها الهواء. ولكى يجعل المدينة فى مأمن من أى خطر قد تتعرض له من جراء فيضان النيل الأزرق، قام بتقوية جسور النهر بتعليتها وتعريضها وغرس الأشجار عليها. وبالطريقة ذاتها أقام حائطاً طويلاً بمحاذاة النيل الأبيض، وترك

(1)Walkley: the story of Khartoum, S. M. S. R., Vol. XIII, P.P. 22-5-8.

مساحة واسعة من الأراضي الرملية تحت الزراعة. ثم طلب عمل رسم تخطيطي لموقع الخرطوم أنجز بسرعة، ولو أنه على مقياس كبير." [ص ٥٥].

ويبدو أن الرحالة "قرن"، قد أعجب بهذا الطابع العملي لشخصية الحكمدار أحمد باشا أبو ودان مما يفسر بسعة أفق هذا الحكمدار وإدراكه لقيمة العلوم التطبيقية سواء في مجال الهندسة أو الطب وأهميتها في خدمة الحياة البشرية وتطويرها، إذ نراه يعلق على تلك الجهود التي قام بها الحكمدار أحمد باشا أبو ودان للنهوض بالخرطوم مدنياً وصحياً بقوله "والواقع أن أحمد باشا كان رجلاً عملياً، إذ كان يرى أن كل شخص ينبغي أن يكون على قدر من المعرفة بالعلوم التطبيقية مثل الهندسة الطب." [ص ٥٦]. ويمضي في وصف المشروعات الأخرى بقوله أن النيل الأزرق يفيض تقريباً تحت منازل الخرطوم، وقد ألقى بكثير من الرمال خلال الأعوام القليلة الماضية على شاطئه الشرقي من قرية "هبة" Hubba إلى جزيرة "توتي" Tuti. حتى أن سكان هذه القرية الكبيرة يضطرون حين تهدأ المياه إلى أن يذهبوا بعيداً ... كما أن سكان الجزيرة يخوضون النهر إلى الشاطئ الأيمن. ولقد لاحظ أحمد باشا كل ذلك جيداً عندما سافرنا سوياً بطريق النيل إلى "طومانيات" Tomaniat جنوب الحلفاية، حيث استولى على أجود الحقول من الشايقية بطريق غير قانوني، وأمر بعمل خمسين ساقية. لذلك وحتى يجنب المدينة ما قد تتعرض له من أخطار في المستقبل- أحدث شقاً (كسراً) عند انحناء الشاطئ الأيمن بالقرب من "توتي" ليحمل الرمل من "هبة" بواسطة قناة، وليعمق مجرى النهر هناك." [ص ٦٢، ٦٤]. ويكشف "قرن" عن الدوافع الحقيقية لقيام أحمد باشا أبو ودان بتلك الإصلاحات العمرانية في مدينة الخرطوم بقوله "ومهما يكن من أمر، فإن الفكرة التي كانت تجول بخاطره ويتوق إلى تحقيقها هي أن يجعل مقر حكمه حصيناً، ويقيم المصانع على جزيرة "توتي"، ويجعل من الخرطوم جزيرة بأن يصل النيل الأزرق والنيل الأبيض بقناة، لأن مثل هذه القناة كانت قائمة فيما مضى بين "سوبا" والنيل الأبيض، والقدماء يرون أن النيل الأبيض والنيل الأزرق كانا يلتقيان سوياً هناك." [ص٦٤].

البقـــــــارة

البقارة من القبائل الرعوية الهامة التى تنتشر فى مساحة كبيرة من السودان الشمالى، ولها شهرتها الواسعة فى تاريخ السودان الاقتصادى فى مجال النشاط الرعوى وتربية الماشية والخيل والأغنام. ولقد أمدنا الرحالة "ڤرن" بمعلومات وحقائق هامة عن هؤلاء البقارة خلال زيارته أقاليم السودان الشمالى عندما كان يعمل كمهندس فى حكومة محمد على فى السودان كما أمدنا بمعلومات عنهم خلال رحلته إلى أقاليم السوان الجنوبى وأعالى النيل برفقة حملة البكباشى سليم قبطان الثانية. ففى القسم الأول من كتاب رحلة "ڤرن" فى السودان الشمالى يتناول البقارة بقوله: "البقارة (رعاة البقر) قبيلة عربية تنتشر على مساحة كبيرة تقطن بعيداً شمال مجرى النيل الأبيض، وتمتلك البلاد الممتدة حتى كردفان، واسم البقارة يجمع بين عدد كبير من القبائل الرعوية البدوية التي تعتبر فروعاً من نفس الأصل. وعلى الرغم من أنها أخذت تحتل أماكن مختلفة وتحمل أسماء مختلفة، إلا أنها ارتبطت بالتدريج بالاسم الأصلى لعنصرها، وذلك بعد أن تفرقت بحثاً وراء المناطق الرعوية أو تشتت من جراء الخصومات والمنازعات." [ص ٧٩]. ويستطرد قائلاً: "وبالنظر لرابطة الأصل الواحد، فإنه لا تقوم بينهم حروب. وقد ظلت أرض المرعى باستمرار لا نزاع عليها فيما بينهم منذ أقدم الأزمنة، والقبائل الأخرى معترفة بذلك."[ص٧٩].

ثم يصف علاقات البقارة بجيرانهم من الشلك والدينكا، ويقارن بين مواقف كل من البقارة على الجانب الأيسر والجانب الأيمن للنيل الأبيض. كما يصف موقف حكومة محمد على فى السودان من البقارة، ويقارنه بموقف مملكة الفونج منهم بقوله "والبقارة هنا على الشاطئ الأيسر للنيل الأبيض كلهم فرسان مما يمكنهم من شن غارات جريئة على أراضى الشلك والدينكا (وهم ليسوا فرسان مثلهم)، بخلاف البقارة على الجانب الأيمن للنهر فى إقليم سنار، فهم خاضعون (مسالمون) يقومون مع أسرهم بتربية الماشية تاركين مهمة حراسة الخيام لنسائهم وأطفالهم. أما هم فيتنقلون من مكان لآخر، ويضرمون النار فى المساء لطهى الطعام أمام كل خيمة. والحقيقة أنه بالنظر لصعوبة حركتهم يفرض عليهم الباشا الجزية، ويعاملون معاملة الخصوم. وفى هذا الشأن يتساوى الفونج مع الأتراك."[ص٧٩]. ويستطرد "ڤرن" قائلاً والبقارة يضطرون أيضاً إلى الذهاب إلى الشاطئ للماء وللرعى. وفى تلك الأثناء يكمن لهم الشلك من حين لآخر، ويسلبونهم وينهبونهم. وهم بذلك ينتقمون لما لحق بهم، ويجازونهم بمثل جزائهم." [ص ٨٠]. ويصف لنا كيف كان الشلك ينقضّون على أعدائهم من البقارة قائلاً "ولقد علمت أن الشلك

الذين يقيمون فى هذه الأجزاء على جزر النهر وعلى كلا الشاطئين، ولكن بعيداً إلى الشمال على الشاطئ الأيسر فقط، يقومون بحملات النهب والسلب بمهارة خارقة للعادة، إذ هم يزحفون على أيديهم وأرجلهم بسرعة كالحيات. ونادراً ما يلجأون إلى العنف فى سرقاتهم، وإنما يصلون إلى غرضهم بالخديعة. ويقال أن الشلك أيضاً يضطرون إلى استخدام الحيلة فى هذا الجزء الداخلى من بلادهم الذى يمتد طبقاً لملامحهم البربرية شمالاً إلى مدخل النيل الأبيض، لأن عددهم أصبح قليلاً جداً من جراء زحف القبائل العربية (البقارة) عليهم بخيولهم وأسلحتهم." [ص ٨٠].

ويتحدث "ڤرن" أيضاً عن البقارة فى القسم الثانى من كتابه فيصف ثروتهم الحيوانية، ومظهرهم العام، وطبائعهم وطبيعتهم المرحة، ونشاطهم، ووعيهم التجارى، وتمسكهم بأسلحتهم، وعراقة أصلهم وعلاقاتهم بحكومة محمد على، وبجيرانهم من الشلك والدينكا، إذ يقول "إن البقارة يشتغلون بالرعى ويمتلكون الخيول وكذلك الماعز والضأن، إلا أنهم يبدون بوجه عام كشعب أكثر مدنية ونظافة، رغم ما يبدو على ملابسهم من قذارة، وهى ذات لون أبيض وأزرق، ولا تقارن بغيرها." [ص ٣٠٩]. ويستطرد قائلاً "وعندما حضرنا إليهم تقدم الجميع، وفى الحال أقاموا سوقاً منظمة، وأتى نساؤهم بالبن والزبد والتمر هندى الطازج. وهم متحررون فى حركاتهم يضحكون ويمرحون. وهم يسعون إلى بيع سلعهم بأغلى ثمن بقدر ما يستطيعون. ويتبادلون بها الملح والخرز والفلفل وعقود بيض النعام. وهم لا يفرطون فى أسلحتهم. لأنهم دائماً فى حالة حرب. يشعرون بالعار فى بيعها. وهم ليسوا من دم خليط لأنهم لا يتزوجون مع أى قبيلة أخرى. ومن وقت لآخر يدفعون الجزية (للحكومة)، ومن الجائز أن تكون هبة أو عطية."[ص٣١٠، ٣١١].

ثم يقول "ڤرن" "لقد أخبرونا أنهم سيغيرون إلى الدينكا (إنهم يسمون الدينكا باسم "جانقى" Jenghs)، رغم أن الأخيرين شعب مختلف عنهم، ويقطن شمال الشلك، يسكنون إلى الشمال كما نقل إليهم. كذلك قالوا إنه يوجد هنا قليل من شعب الشلك الذين كانوا قد تقهقروا عند وصولهم إلى الجزيرة، وإنه لا يوجد ما يخيف منذ أن مات شيخ الشلك عبد الرحمن. وهم يعتبرون أنفسهم أصحاب جميع هذه البلاد." [ص ٣١١].

الكبـــابـيش

الكبابيش من القبائل الرعوية الكبيرة فى السودان الشمالى التى اشتهرت بتربية الإبل على نطاق واسع، فضلاً عن شهرتها بقيادة قوافل التجارة، وبخاصة بين السودان ومصر، لمعرفتهم وخبرتهم الواسعة بالدروب والطرق الصحراوية بين شطرى الوادى، لما عرف عنهم من الصدق والأمانة. ولقد قاموا بدور كبير فى خدمة حكومة محمد على فى السودان فى مجال النقل التجارى عبر الطرق الصحراوية وحمايتها. ونالوا كذلك إعجاب وتقدير جميع الرحالة الأوروبيين الذين رافقوهم فى رحلاتهم إلى السودان فى النصف الأول من القرن التاسع خلال الفترة التى نحن بصدد دراستها، ومنهم "بوركهارد" الذى أثنى على خبرتهم بشئون الصحراء وأمانتهم ثناء عاطراً. أما "ڤرن" فقد جاءت المعلومات والحقائق التى أمدنا بها عن هؤلا الكبابيش قليلة نسبياً، إذ اكتفى بالحديث عن ثروتهم الكبيرة من الإبل والخيل، وبعض أوجه علاقاتهم بحكومة محمد على بالسودان. يقول: "إنه فى الداخل فيما وراء «مندرة» Mandara يقطن الكبابيش. وهم بدو ينتشرون على مساحة واسعة، ويمتلكون قطعاناً كبيرة من الإبل والخيول التى يقودونها من وقت إلى آخر إلى الشاطئ، لتشرب، وليزودوا أنفسهم بالماء الصالح للشرب. وفى هذه الأثناء يترقبهم سليمان كاشف ليحصل منهم على الجزية." [ص ٣٢٥].

ويتحدث "ڤرن" الكبابيش بقوله: "إن آلافاً من الإبل يقودها الكبابيش لترتوى على الشاطئ الأيسر (للنيل الأبيض) يأتون من الداخل. ويقال إنهم يمتلكون من هذه الحيوانات أكثر مما تمتلكه القبائل الأخرى مجتمعة. وهذا يحدث كل ثمانية أو عشرة أيام. والقبيلة تأخذ معها عند رجوعها مقدار ما يحتاجونه من الماء." ثم يصف واقعة بين سليمان كاشف وجماعة من الكبابيش، يبدو أن "ڤرن" كان شاهد عيان لها، قائلاً "لقد أراد سليمان كاشف أن يكّون صداقة معهم (أثناء الحملة الاكتشافية) لأنه رأى أنهم يمتلكون بعض الضأن والماعز، ولكنهم ركضوا وكأنما زوبعة على وشك أن تهب متحصنين متكتلين فى جماعة على هيئة جيش." [ص ٣٢٥]. وهذه الواقعة التى يسردها الرحالة "ڤرن" تؤخذ -دون شك- كدليل قاطع على عدم وجود الثقة بين هؤلاء الكبابيش وهذا الحاكم الذى يمثل الحكومة، كما تدل فى الوقت نفسه على يقظة هؤلاء البدو ووعيهم، وشدة إدراكهم لحقيقة مصالحهم.

ثانياً- مشاهدات "ڤرن" ودراساته
فى أقاليم السوان الجنوبى وأعالى النيل

على أثر عودة حملة البكباشى سليم الأولى فى النيل الأبيض دون أن تحقق الهدف الرئيسى المقصود من إرسالها، وهو الكشف عن منابع نهر النيل جنوباً، بسبب العوائق الطبيعية التى اعترضت سيرها فى مجرى النهر عند نهاية مواطن العلياب، أخذت الحكومة المصرية فى إعداد حملة كشفية ثانية (١٨٤٠/١٨٤١) تكون أكثر استعداداً من سابقتها، ويصحبها عدد من العلماء والمهندسين من ذوى الخبرة بأعمال الكشوف وتدوين الملاحظات العلمية والجغرافية عن طبيعة النهر فى أجزائه العليا كقياس عرض وعمق المياه وسرعة التيار، وكذلك عمل الخرائط والرسوم الجغرافية للجهات التى يتم كشفها فى أثناء سير الحملة.

ومن العلماء والمهندسين الأوروبيين الذين رافقوا هذه الحملة لهذا الغرض "ثيبو" Thibaut الفرنسى الذى كان قد رافق الحملة الأولى تحت اسم مستعار هو إبراهيم الشايقى، واشتهر بخبرته بمعرفة جزائر الشلك لكثرة طوافه فيها. و"ساباتيه" Sabatier و"دارنــو" D'Arnaud الفرنسيان، والمهندس الألمانى "ڤرن" Werne. وجميعهم قد سافروا مع الحملة على نفقة الحكومة المصرية باستثناء "ڤرن" الذى سافر على نفقته الخاصة. وكان رأيه فيها استشارياً. كذلك رافق الحملة سليمان كاشف. [ص ٣٢٦، ٣٢٧].

وقد واصلت تلك الحملة الكشفية الثانية تقدمها جنوباً فى النيل الأبيض وأعالى النيل، يرافقها "ڤرن" حتى بلغت خط عرض ٣٢َ ٤ْ من خطوط العرض الشمالية. وهكذا أتيحت للرحالة "ڤرن" فرصة زيارة الأقاليم النائية من السودان الجنوبى وأعالى النيل، فأمكنه ذلك أن يجمع العديد من المعلومات والحقائق جمعها خلال مشاهداته ودراساته فى تلك الأقاليم. وقد تضمنت مشاهداته طبيعة تلك الأقاليم الجغرافية، والقبائل المختلفة التى تقطنها، والخصائص الطبيعية والبشرية المميزة لتلك القبائل، وأوجه النشاط الذى تمارسه من زراعة وصناعة وتجارة وفق طرق ونظم بدائية، وعاداتها وتقاليدها، والنظم والتقاليد التى تحكم العلاقات بين أفرادها، وغير ذلك مما يجذب السائح الأوروبى ويشده إلى مشاهدتها ودراستها.

الشـــــلك

يصف الرحالة "ڤرن" طبيعة بلاد الشلك النباتية بقوله : "هناك فى المناطق الجنوبية التى يسكنها الشلك والدينكا توجد أنواع من نباتات الفصيلة البصلية تقوم مقام الطعام لدى المواطنين . والبطاطس لا يمكن أن تنمو أكثر مما هو عليه الحال فى مصر التى هى أكثر برودة، لأنها ستكون مائية كثيرة السائل بسبب الرى المستمر، وتنطبق هذه الحالة أيضاً على الحشائش." [ص ١٢٥]. ويصف "ڤرن" الحقول فى بلاد الشلك وأنواع النبات التى تنمو فيها والتى يبدو أن الشلك لم يبذلوا جهداً يذكر فى زراعتها بقوله "وهناك حقول شاسعة تنحدر تدريجياً نحو النهر ينمو عليها نبات الويكة (البامية)، ولا يبدو أن هذه النباتات من بذر الإنسان، وإلا اقتلعت سيقانها القديمة بعد جنى المحصول، ما لم تكن قد تركت لتحمى النباتات الصغيرة من حرارة الشمس، حتى تصبح قادرة على أن تغطى الأرض بأوراقها، لأن الرى الصناعى لا يفكر فيه هنا . والشلك وكذلك الدينكا على الشاطئ الأيسر للنهر، إلى جانب معيشتهم على الحبوب (الذرة والدخن) فإنهم يتغذون على نوع من الفاكهة "الجليد" Geiilid، وهى تنمو دائماً هنا، وعلى بذور أنواع مختلفة من العشب الطويل يعرف باسم "جنا الجيش"، ومعناها أطفال الحشيش وهى تسمية لها معناها ودلالتها، ويتبعها أيضاً نوع من الأرز البرى (الأرز الشلكى). وكذلك يتغذون على لحوم الماشية والضأن والماعز، كما أنهم لا يحتقرون لحوم التماسيح وأفراس النهر." [ص ١٣٤- ١٣٦].

ثم يتحدث "ڤرن" عن ثروة الشلك الحيوانية قائلاً "إن هؤلاء الشلك وكذلك الدينكا فى أعالى النيل لا يملكون خيولاً أو إبلاً، وإنما يملكون فقط البقر والضأن. وعندما يستولون على حصان أو إبل من الأتراك لا يقتلونها، ومن المحتمل أنهم لا يأكلون لحم هذه الحيوانات، وإنما يفقأون عيونها كعقاب لها لأنها أوصلت الأعداء إلى بلادهم. وفى الحقيقة أنه قد يكون من الصعب على هذه الحيوانات أن تقاوم طبيعة تلك الأرض المستنقعية. ويمكن أن نستدل على ذلك بما هو حادث دائماً فى إقليم التاكا، حيث أنه بالنظر إلى نفوق الكثير من الخيل والإبل خلال فصل الرطوبة، فإنها تساق إلى الأجزاء المرتفعة فى الإقليم."[ص ١٣٧].

وفى موضع آخر من الكتاب يتحدث "ڤرن" عن نشاط الشلك الرعوى بقوله "لقد تأكد لىّ أن الشلك يرعون ماشيتهم فى أى مكان يرغبون فيه، إذ أن مياه الفيضان فى هذه السنة (١٨٤٠/١٨٤١) قد غطت أراضى مراعيهم الأصلية بالوحل، أو أن المياه انسحبت متأخرة، مما ترتب عليه عدم وجود عشب كاف لماشيتهم والقليل الذى نما أستهلك. ونظراً لحاجتهم إلى العشب فإن عدداً كبيراً من الشلك تجمعوا وقد سلحوا أنفسهم

بالرماح العريضة وساقوا قطعانهم من مصب السوباط إلى الجنوب، ولكن بعيداً عن الشاطئ الأيمن للدينكا. وقد انسحب الدينكا وهم يرعون الآن فى الداخل وقد نبذوا فى الوقت نفسه صيد الأسماك من النهر." [ص ٢٩٢].

وهناك جوانب أخرى من حياة الشلك الاجتماعية والاقتصادية تناولها الرحالة "ڤرن" فى حديثه عن أدوات الزينة التى يُقبل عليها الشلك والتى يفضلونها وطرق حصولهم عليها، والسلع والمنتجات المحلية التى يقايضون بها مما يتوافر وجودها أو إنتاجها فى أوطانهم، إذ يقول "إن الشلك لا يزورون أدوات الزينة، ورغم أنهم يقبلون على الخرز الزجاجى، فإنهم يفضلون الأشياء ذات القيمة الحقيقية. وقد قالوا أن الجلابة (تجار العبيد) والتجار يقومون بزيارة بلادهم مراراً وتكراراً، ويأتى بعضهم من الخرطوم على الإبل ومعهم الأقمشة القطنية، وأثواب الدمور، والخرز وغيره يعرضونها مقابل البقر وسن الفيل والعسل والسمسم .. ويبلغ ثمن البقرة ثوب دمور. ومثل هذه القطعة من المنسوجات القطنية لها قيمة محددة مثل قيمة العملة النقدية." [ص ٢٨٨]. ويصف "ڤرن" مكانة التاجر في نظر الشلك بقوله: "ومما يدهش له الإنسان أن التاجر في نظرهم رجل مقدس تقريباً" [ص ٢٨٨]. ويعلق على ذلك قائلاً "وإنى لا أوصى أى رجل أبيض أن يقوم بعمل التجارة هنا إذا لم يشأ أن يقتل."

وهناك سوق يعقد فى قرية تعرف "بالآيس" اعتاد الشلك الذهاب إليه ليقايضوا سلع ومنتجات بلادهم التى من أشهرها الماشية والعاج بسلع ومنتجات أخرى يحتاجون إليها، يشير إليه "ڤرن" بقوله: "هناك قرية صغيرة بسيطة قد يصل تعدادها إلى خمسين كوخاً كانت تسمى "الآيس" رغم أنها ليست إلا قرية صيفية للرعاة وصيادى الأسماك تابعة لمدينة الآيس الواقعة أعلى الإقليم، فإنها أيضاً أشبه بالمركز التجارى بين الشلك وأهل سنار حيث يقايض فيه تجار الآيس عبيدهم والكرابيج (التى يعم استعمالها هنا وهى مصنوعة من جلد فرس النهر)، والتمر هندى والبامية الجافة (الويكا) مقابل المواشي ذات القرون والذرة والمنسوجات. وعن بعض السلع والأشياء التى كان الشلك يقومون بصناعتها لخدمة بعض أغراض الحياة البسيطة التى كانوا يعيشونها يذكر "ڤرن" أنه إلى جانب الحُصر الجميلة المنبسطة يوجد فى بلاد الشلك الأوانى المصنوعة من الطفل أكبر حجماً وأكثر جمالاً مما نجده فى سنار، وهى على شكل "بُرمة"[ص ١٤٢].

لقد وصف "ڤرن" أكواخ الشلك التى يعيشون فيها والتى تعرف باسم "التُكل" بأنها مبنية على نمط الأكواخ التى توجد فى جهات السودان الأخرى، مع اختلاف فى سقفها الذى يبدو بخلاف الأكواخ الأخرى المخروطة الشكل، إذ هو مقوس الشكل. [ص ١٣٢، ١٣٦، ١٣٩]. ويقارن "ڤرن" بين قرى الشلك وقرى جيرانهم من الدينكا فيقول "إن أكواخ الشلك تقع على مسيرة ساعة تقريباً من حافة النهر والقرى التى على أرض الشلك تفوق كثيراً عدد قرى الدينكا على الشاطئ المقابل لها فى بعض الجهات على الأقل. وهى مقامة

بحيث تجاور بعضها البعض فى شكل مجموعات صغيرة تضم كل مجموعة منها عدداً من الأكواخ "التُكل" التى تنتشر بين الأشجار فى حين تجد أكواخ الدينكا مقامة على شاطئ النهر الذى تقل أو تنعدم فيه الأشجار." [ص ١٤٦]. أما عن المواد التى استخدمها الشلك فى بناء أكواخهم فيذكر الرحالة "ڤرن" "أن هؤلاء المواطنين قد اعتادوا قطع الأشجار القريبة لاستخدامها فى بناء أكواخهم، دون أن يعنوا بقرى بدلاً منها، لمستقبلهم أومستقبل أطفالهم، إذ أنهم لا يفكرون إلا فى حاجتهم الضرورية." [ص ١٤٠]. ويصف "ڤرن" عاصمة الشلك بقوله إن هناك عدد كبير من القرى على الشاطئ الأيسر فى أرض الشلك يقول العرب (البقارة) أنها عاصمة الشلك "ديناب" Dennab. وهذا الاسم يطلق على ذيل الحيوان. وقد نعتوها بهذه التسمية بالنظر إلى طول صفوف الأكواخ التى تضمها مجموعة القرى، كما أنها متماثلة، مع أنه من المحتمل أن يكون الاسم (اسم العاصمة) هو "كاك" Kak. [ص ١٤٦، ١٤٩].

وعن تعداد الشلك وقت زيارته لهذه المناطق الجنوبية فى أعالى النيل (١٨٤٠/١٨٤١) يشير إلى أن عدد الشلك حسب تقدير سليمان كاشف يبلغ ٢٠٠,٠٠٠ نسمة." [ص ١٤٥]. ويعلق الرحالة "ڤرن" على هذا التقدير لتعداد الشلك فى ذلك الوقت "بأنه إذا صح فمعناه أن هناك خيران كثيرة فى الداخل تتغذى من مياه النيل الأبيض، يقوم على ضفافها عدد كبير من الأكواخ، بحيث تزاحم بعضها بعضاً، كما هو الحال على ضفاف النهر الرئيسى."[ص ١٤٥].

لقد عبر عن نزعة الشلك القتالية برواية واقعية يرويها عن موقف هؤلاء الشلك من حملة البكباشى سليم قبطان الأولى للكشف عن منابع النيل عندما علموا بوصولها إلى بلادهم. يقول "ڤرن" إن سلطان أو باندو"Bando الشلك فى العام الماضى عند وصول الحملة الأولى خشى أن تكون معادية، لذلك جمع ألوفاً عديدة من الرجال وفى تلك الأثناء ظل الأتراك لمدة يومين أو ثلاثة أيام حتى وصلوا معه إلى صلح. وقد قدم لهم الماشية والضأن."[ص ١٤٤].

أما عن عداء الشلك التقليدى لجيرانهم من البقارة، فإن "ڤرن" يصف علاقات الشلك بهؤلاء البقارة وصفاً دقيقاً ومعبراً، يقول "إن كراهية هؤلا الزنوج لهؤلاء العرب (البقارة) لا حد لها، ففى حالة وقوع أحد البقارة أسيراً فى أيديهم، فإنهم يضربونه ضرباً مبرحاً بالنبابيت حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة، وذلك لأن القتل بالحربة فى عرفهم شرف كبير لا ينبغى أن يحظى به الأسير من هؤلاء البقارة، رغم أن العرب البقارة لا يذبحون الشلك الذين يقعون أسرى فى أيديهم، ليس احتراماً لتعاليم القرآن، وإنما بدافع أنانيتهم الموروثة. وعندما يأتى البقارة إلى النهر لرعى الماشية على العشب الذى يعتبر علفاً جيداً، وهو ينمو بعد أن يحترق ويتلاشى قصب الغاب، فتنشب الحروب القصيرة باستمرار بين الشلك والبقارة، وفيها يبدى الأخيرون (البقارة) شجاعة كبيرة، كما يذكر ذلك سليمان

الكاشف نفسه."[ص١٢٢]. ويقارن بين معاملة الشلك لأسرى البقارة ومعاملتهم لأسرى الدنكا المجاورين لهم بقوله "وعلى العكس من ذلك لا يقتلون أسرى الدينكا إذا وقعوا في أيديهم، إذ ينظرون إلى هؤلاء الدنكا باعتبارهم سكاناً أصليين وجيرانا قدامى."[ص١٢٢].

ويفسر لنا ڤرن أسباب العداء التقليدى بين الشلك والبقارة بقوله "لقد اعتاد الشلك والبقارة القيام بغارات السلب والانتقام من حين لآخر، فالبقارة كانوا يخطفون من الشلك أطفالهم، حيث كانت خيولهم السريعة التى لا يملك هؤلاء الزنوج نظيراً لها تؤدى لهم أجل الخدمات في هذا الشأن. أما الشلك فكانوا ينتقمون من البقارة بخطف ماشيتهم وقد استخدموا في ذلك القوارب التى اشتهروا بصناعتها." [ص ٢٨٧]. ويصف ذلك النوع من القوارب التى كان الشلك يستخدمونها في السطو على جيرانهم البقارة "بأنها تفوق في الحجم والسعة والمتانة قوارب القبائل الأخرى، إذ لها مقدمة طويلة، وتسع من عشرين إلى ثلاثين رجلاً يجلسون في صفوف متوازية. وهى عبارة عن سيقان أشجار ضخمة شد بعضها إلى بعض بحبال ليفية، وتلون عادة باللون الأحمر أو الأخضر الذى يحصلون عليه من طبقة الأرض." [ص ٢٨٧].

الديـــــنكا

الدينكا من القبائل الزنجية الكبيرة التى تقطن السودان الجنوبى وأعالى النيل على ضفاف النيل الأبيض، وتجاور أوطان الشلك. يقول الرحالة "ڤرن" في وصف طبيعة وجغرافية الشواطئ التى يحتلها الدينكا على النيل الأبيض، ويقارنها بشواطئ الشلك "إن الشواطئ تتفاوت في الانحدار من مكان إلى آخر. وإنى لا زلت أؤكد أن بلاد الدينكا أكثر ارتفاعاً من بلاد الشلك. لذلك فإن جدب الأولى وكثافة أشجار الثانية الواقعة على الشاطئ الأيسر يرجع إلى هذا السبب." [ص ٢٩٠].

ويصف "ڤرن" الجزر التى يقطنها الدينكا في النيل الأبيض، ودورها في حمايتهم من أعدائهم سواء من القبائل المجاورة لهم في أقاليم السودان الجنوبى مثل الشلك أو من أقاليم السودان الشمالى القريبة منهم مثل الأتراك في حكومة محمد على بقوله "وهناك جزر مستنقعية طويلة ينمو عليها قصب الغاب وغيره من النباتات المتلاصقة والمتضافرة بعضها مع بعض تمتد من بلاد الدينكا إلى وسط المجرى. وهكذا الحال على الجانب الأيسر للنهر، وإن كان على مقياس أصغر. والمسافة بين الشاطئ والآخر تبلغ أكثر من ساعة. وقصب الغاب على هذا النحو يكون حماية لا يمكن التغلب عليها، حتى عندما يبلغ ارتفاع المياه أقصاه. وكذلك الحال على الشاطئ الأيسر، إذ تحميهم هذه النباتات التى

توجد تحت الماء . بيد أن الأتراك على الرغم من ذلك تمكنوا من الوصول إلى هذين الشعبين (الدينكا والشلك) عن طريق البر (اليابس). فقد نجح سليمان كاشف نفسه فى قهر الشلك مرتين على حدود إقليمهم (عن طريق الغزوات التى اعتاد شنها لقنص الرقيق). وتلك الهجمات المفاجئة والغادرة لهذه "الغزوات" لا يمكن تسميتها بالحروب أو المعارك."[ص١٢٢].

ويصف "ڤرن" نمط الزراعة التى يمارسها الدينكا وأنواع الغلات التى كانوا يقومون بزراعتها بقوله: "إن أهل الدينكا يتنقلون إلى الداخل ليبذوروا حقولهم بالذرة والدخن. وهذه الحقول يقال إنها تقع فى الغابة، ويحتمل -كما يبدو لى- أن هذه الغابة تقع فى حوض (منخفض)، كما هو الحال فى إقليم التاكا، حيث يمكن حجز مياه الأمطار أو سيول المجارى الجبلية لمدة طويلة، وإلا كانت الأرض جافة جداً. وفى تلك الحالة لا يمكن بذرها."[ص١١٨]. كذلك يشير إلى أنواع أخرى من النبات التى اشتهرت بها بعض مناطق الدينكا، إذ يقول "إنه يوجد التمر فى (بعض) مناطق الشلك والدينكا، ويكثر فى بعض الجهات بدرجة كبيرة. وطعمه سار ومقبول فى هذه الجهات. ويحتل المكان الأول فى المواد الغذائية التى يقدمها السودانيون للأثيوبيين. ويسمى فى بلاد السودان "العرديب". ولكن فى مصر يسمى التمر هندى (فاكهة الهند) ... كذلك توجد أشجار الصمغ الغنية فى تلك الأجزاء [ص ١٥٤]، التى لم يكن القدماء يحصلون منه إلا على القليل لاستهلاكهم (المحلى). والذى لا يقارن بمقادير الصمغ و"القلفونية" التى صارت تستخدم فى الأغراض التجارية لأول مرة فى الأزمنة الحديثة." [ص ١٢٤].

لقد شاهد الرحالة "ڤرن" جزيرة "آبا" التى تقع فى مجرى النيل الأبيض ويحدثنا عن تلك الجزيرة الكبيرة، فيصف طبيعة الحياة النباتية، وأنواع الحيوانات والطيور التى تعيش فيها، وكذا الغلات الزراعية التى يقوم الأهالى بزراعتها. وأنواع النباتات التى تنمو بها نمواً برياً بقوله "إن جزيرة آبا لا تبدو أن الفيضان يغطيها كلها. ولذلك فهى مغطاة تجاه الداخل بالأشجار المخضرة. ويقال إنه يوجد هنا عدد كبير من الأسود، كما يوجد عدد كبير من أسراب الفراخ السودانى التى يطلق عليها هنا اسم جدات الفرعون (فراخ فرعون) وهو اسم يطلق للتحقير. ولكن لابد أن يكون هذا الاسم قد اشتهر بما ذكر فى القرآن أكثر مما يدل عليه التعبير. وتكثر أفراس البحر فى هذه المنطقة. ويزرع هنا الدخن الذى ينتشر استخدامه فى كردفان، والبامية وهى نوع من الخضر نصادفه فى المناطق الممتدة من هنا شمالاً حتى بلاد اليونان وهى تنمو نمواً شيطانياً فى الجزيرة." [ص ١١٣].

أما عن طبيعة الدينكا التى تميزت بعدم ميلهم إلى ممارسة الأعمال الحرفية، وقد حاولت حكومة محمد على تدريبهم على القيام بها، ولكنها فشلت فى نهاية الأمر فى تغيير نمط الحياة الذى اعتادوه. يقول ڤرن: "إنه بقنص الرقيق ستحرم البلاد من الزنوج

الأحرار المستقلين الذين رغم فقرهم يرفضون أن يجندوا للعمل فى استخراج الذهب والفضة. وهم يفضلون الحياة القديمة لأنهم يحبون العادات القديمة حتى ولو رأوا وأجبروا على أن تكون لهم عادات أحسن. وها هو مثل يغنى عن كثير. فإن عدداً كبيراً من زنوج الدينكا الذين أصبحوا أصحاب حرف هربوا من فازوغلى (حيث المناجم التي يستخرج منها معدن الذهب) حاملين معهم أدوات حرفتهم. بيد أنهم لم يأخذوا هذه الأدوات معهم من أجل الفائدة العظمى التى لتلك الأدوات، ولكن لمجرد استخدامها فى البحث عن الحديد لعمل الرماح أو الأساور منه. هذا ما أكده لنا جنودنا وأفراداً من الدينكا. وبعض هؤلاء المهاجرين (الهاربين) كانوا أيضاً من صناع السفن، ولكن لم يلاحظ معهم (عند هروبهم) سفن رغم الفائدة التى كانت ستعود عليهم منها فى حملات السلب وقطع الطرق التى يقومون بها." [ص ٣٠٧].

قبائل أعالي النيل

بالإضافة إلى قبائل الشلك والدينكا التى تقطن بعض أقاليم السودان الجنوبى حدثنا "ڤرن" عن قبائل أخرى تقطن مناطق أعالى النيل مثل "البندريال" Bundurials، و"الكيك" Keks، و"البحور" Bohrs، و"البامبير" Bambers و"البوكو" Bukos و"الليان" Liens و"الشير" Tshiers، و"البارى" Bari. ولقد تناول فى حديثه عن هذه القبائل التى تقطن مناطق أعالى النيل، بعض مظاهر الحياة النباتية فى أوطانهم ونشاطهم الزراعى والغلات التى يقومون بزراعتها، وبعض نواحى النشاط الأخرى التى يمارسونها مثل تربية الماشية، وصيد الأسماك والحيوانات البرية مثل الفيل وطرق صيدها، وصناعة الأسلحة وأدوات الزينة من المعادن والعاج. وقد قارن أحياناً بين القبائل بعضها ببعض، من حيث الشكل والتكوين الجسمانى فضلاً عن بعض النواحى الأخلاقية. كما تعرض لجوانب من حياتهم الاجتماعية من عادات وتقاليد، وأشاد بما يتحلى به بعضهم من حسن التدبير فى المعيشة، وكذلك تعرض للحروب التى تنشب عادة بينهم، وأوضح الأسباب الرئيسية لنشوبها، والدور الذى تلعبه الماشية فى حياتهم، ونظام التعامل فيما بينهم.

الحياة النباتية والنشاط الزراعي:

يصف الحياة النباتية والنشاط الزراعى الذى تمارسه القبائل فى مناطق أعالى النيل التى شاهدها فى أثناء رحلته فى هذه المناطق ويقارن أحياناً بعض مشاهداته فيها بما شاهده فى مناطق النيل الأبيض مثل بلاد الشلك بقوله "إنه كلما تقدمنا جنوباً فى منطقة البحر

(النيل) الأبيض [ص ٥٢]. نجد أن أشجار التمر هندى والسنط تختلف فى شكلها عن تلك التى فى بلاد الشلك، كما نلاحظ بعض الجزر الصغيرة والكبيرة مغطاة بالذرة، كما أن الشاطئ الأيمن فى بعض الجهات قد زرع بالذرة التى حصدت من وقت قريب، وهى من النوع ذات اللون الأحمر ولا تعطى إلا قليلاً من الدقيق. كذلك توجد بين النباتات الأخرى فى بعض الجهات نبات الفول الصغير المتسلق ذات اللون الأبيض والأحمر ينمو نمواً برياً ضخماً على الأرض." [ص ٥٠ - ٥١].

ويستطرد "قرن" فى وصف المزروعات فى هذه المناطق من أعالى النيل، معبراً عن دهشته من وجود زراعة القطن فى تلك الجهات بكميات كبيرة فى حين ينمو نمواً برياً فى حوض النيل الأبيض، قائلاً "وإنه لمن المدهش أن الأهالى فى هذه الجهات يزرعون القطن بكميات كبيرة وقد لاحظت فى جزيرة "جانكير" Tshanker قطناً معروضاً للبيع. وقد دهشت لذلك لأنى وجدت القطن ينمو نمواً برياً فى حوض النيل الأبيض. ويبدو أنهم يجدلون من الخيوط القطنية بعض ملابسهم مثل الرحط Rahat، ويلونوها باللون الأحمر أو الأصفر، مستغلين فى ذلك نوعاً من المادة الطينية الملونة." [ص ٨٩]. ويضيف "قرن" إلى ذلك "أن بعض المناطق فى هذه الجزيرة تغطيها مزارع التبغ فى مساحات أكبر بكثير مما لاحظناه من قبل. وهناك سياج يحمى الجزيرة من الحيوانات البحرية. كما أن هناك نبات قصب الغاب الموضوع لحماية هذه المزروعات من حرارة الشمس. والشئ الذى لم نلاحظه فى جهات أخرى من قبل، ولكن لاحظناه هنا هو بيت الحراسة المقام على أوتاد ينظر منه الحارس خلسة. وبيوت الحراسة مقامة لحماية المزروعات من الآدميين أكثر من كونها لحمايتها من الحيوانات." [ص ٩٨].

ويمضى فى وصف النشاط الزراعى لأهالى مناطق أعالى النيل التى شاهدها فى رحلته مع حملة البكباشى المصري سلم قبطان الثانية قائلاً "وجنوباً نجد الأرض مزروعة بصفة خاصة بالسمسم واللوبيا. وفى هذه المزارع توجد بيوت الحراسة والفزاعات، وكل شئ أخضر جميل. ويستحيل على الأهالى رى هذه الحقول الكبيرة بالأيدى، كما شاهدت مزارع التبغ الصغيرة. إنه من المحال أن تجد قنوات للرى المنتظم يستطيعون بواسطتها أن يجلبوا الماء من النهر ليتدفق على الأراضى -على النحو المتبع عادة فى مصر وبلاد النوبة- أو برفعه بأبسط الحيل فى مجموعة من الجرادل بطريق السواقى التى تحركها الثيران، لأن الساقية لا تستعمل لدى القبائل القاطنة فى حوض النيل الأبيض. ولابد أن التربة الطفلية الخصبة قادرة على أن تبقى لوقت طويل على الرطوبة المتخلفة عقب الفيضان، كما أن الإرساب الليلى القوى قد يحافظ على بقاء الثمر ناضجاً. والأكثر من ذلك أن الشمس نظراً لوفرة النباتات الكثيفة لا تستطيع أن تلفح الأرض." [ص ١١٠].

قبائل البندريال والكيك والبحور:

لقد تناول "ڤرن" فى حديثه عن قبائل ا"لبندريال" Bundurials و"الكيك" Keks، و"البحور" Bohurs التى تقطن مناطق أعالى النيل موقع أوطانها الجغرافى، وصفات بعضها الجسمانية، ولغتها بالمقارنة بقبيلة الدينكا، كما تناول بعض علاقاتها مع جيرانها، والمواد التى تحصل عليها من القبائل المجاورة لحاجة بعض الصناعات البدائية التى تقوم بصناعتها. كما تناول نواحى النشاط الأخرى التى تمارسها مثل صيد الأسماك والأدوات التى تستعملها فى الصيد، وزراعة الحقول والغلات التى يحرصون على زراعتها. كذلك تناول بعض العادات والتقاليد السائدة بينهم، وتقديرهم للماشية الذى يفوق تقدير أى شئ آخر، إلى درجة تصل إلى تقديس البعض لنوع معين منها هو الثور.

يقول "ڤرن" فى هذا الصدد "إن قبيلة البندريال وقبيلة الكيك تقطن فى أعالى النيل على الشاطئ الأيمن للنهر عند خط عرض ١١َ ٥ْ، حسب تقدير سليم قبطان ولغتها القريبة من لغة الدينكا، وتركيب أجسامهم شبيه أيضاً بأجسام الدينكا، وإن يكن قوامها أحسن نسبياً. وهؤلاء البندريال والكيك يأخذون الحديد اللازم لسهامهم ورماحهم من إقليم "آرول" Arol والجبل القائم فى هذا الإقليم يقع جهة الغرب، ولا يمكن رؤيته من الشاطئ نظراً لوجود الأشجار. وهناك قبيلة أخرى تقطن هناك. ومن هذا المكان يحضرون النحاس لصناعة حلقات الأذن التى يلبسونها. ويبدو أنهم لا يعيرون هذا المعدن أية قيمة كبيرة."[ص٢٩٢].

ويستطرد "ڤرن" فى وصف مظاهر الحياة لقبيلتى البندريال والكيك والنشاط الذى يمارسونه قائلاً "ولقد لاحظت زراعات التبغ بجوار كل كوخ وسكان هذه الجهات العليا من النيل يشتغلون بصيد الأسماك وأدوات الصيد التى يستعملونها هى السلال المصنوعة من الأغصان المجدولة، ويصيدون الأسماك من البحيرات أو الخيران. ويشتغلون كذلك برعى الماشية ويبيعونها فى مقابل الخرز. ومن بين هؤلاء الرعاة جماعة "البحور" Bohrs الذين يقال إنهم يقدسون الثور، وهم يحبون ويعزون ويقدرون الماشية التى لا يفضل عليها شئ آخر .. ويوجد هناك العاج، ويمكن الحصول عليه من سكان هذه الجهات مقابل الخرز. ويستعمل الأهالى العاج فى صناعة حلقات كبيرة منه." [ص٢٩٧، ٢٩٨].

ويضيف "ڤرن" إلى ذلك "أن هناك إلى الجنوب من يقوم بزراعة الحقول على شواطئ النيل وفى هذه المناطق الزراعية يبلغ ارتفاع هذه الشواطئ من ١٢ إلى ١٥ قدماً. والتربة رملية، وهم أحسن حالاً فى المعيشة. وبالإضافة إلى إنتاج الفاكهة هناك القرع والبطيخ. والحلقات الحديدية التى توضع فى الأذرع والأقدام تبدو أنه ينظر إليها بعين الاعتبار والتقدير أكثر من الحلقات الذهبية."

قبيلة البامبير Bambers:

ويحدثنا ڤرن عن قبيلة البامبير، فيصف طبيعة بلادهم الزراعية[ص ١٢٠]، وخصالهم الجسمانية (تكوينهم الجسمانى)، وأدوات الزينة والأسلحة التى يحرصون على التمسك بها، ونشاطهم فى الزراعة وتربية الماشية وصيد الحيوان. وقد أشاد بنوع التدبير والحرص الذى يتميزون به فى بعض نواحى حياتهم فهو يلاحظ إن شواطئ النهر خضراء بوجه عام، وتحظى برعاية الإنسان فى زراعتها. وفى بلاد "البامبير" bamber (حيث توجد مدينة كبيرة تحمل اسم "بريز" Berize) يمتاز الأهالى بطول القامة، وإن كان بينهم متوسطو القامة والحجم. ويتميزن بالقذارة، ويمكن أن نطلق عليهم فقراء فيما يتعلق بأدوات الزينة والأسلحة التي يملكونها إذا ما قورنوا بما يملكه غيرهم من سكان الأراضى المرتفعة فى منطقة "البارى" Bari. والأساور المصنوعة من العاج هنا أغلى من أى مكان آخر. [ص١١٥، ١١٦].

ويقول "ڤرن" بأنهم يأتون بالأسلحة الحديدية من البارى. ويبدو أنهم لا يفرطون فيها بالبيع على الإطلاق. وهذا يستحق كل ثناء وتقدير ويدل على أنهم يفكرون لأنه باعتبارهم شعباً صغيراً – أن عليهم أن يكونوا دائماً على استعداد للقتال. وهناك مساحات فسيحة من مزارع الذرة توجد خلفها غابة بها أشجار. وكانوا يمدون الحملة الكشفية الثانية التي جاءت بقيادة المصري سليم للكشف عن منابع النيل، بالخشب مقابل الخرز الصغير. وهم يقومون بصيد الفيلة بالطريقة الشائعة فى جميع بلاد السودان لا سيما فى فازوغلى، وهى طريقة الحفر المغطاة بالقش[ص ١١٦]. ويضيف "أنه من الملاحظ، فى بعض الجهات أن كلا الشاطئين مزروع، كما أنهم يملكون قطعاناً وفيرة من الماشية يعملون لها زرايب مسورة بسيقان الأشجار والأشواك لحمايتها من الحيوانات إن لم يكن من الإنسان. كما أنهم يمتلكون مخازن مقامة على أوتاد ومصنوعة من الأغصان وملطخة بالطفل (الطين) وزرايب الحيوانات نجدها فى أماكن منفصلة، بينما نجد بيوت الآدميين محاطة بأسوار من قصب الغاب." [ص ١١٨].

قبيلة البوكو Bukos:

كتب "ڤرن" عن أصل البوكو وصلتهم العرقية بالقبائل المجاورة، وموقع بلادهم، وأوجه النشاط التى يمارسونها فى أوطانهم، والصفات التى يتحلون بها، وقارنها ببعض القبائل الأخرى مثل البارى. يقول "ڤرن" إن جماعة اليوكو الذين يقطنون المنطقة التى تقع فيها جزيرة "بوكو" هم من أصل جماعة البامبير والشير Tashierrs و"الليان" Lienns لتشابههم مع هذه القبائل فى التكوين الجسمانى وتقاطيع الوجه. والبوكو يملكون الثيران والضأن

والماعز والفراخ، وسن الفيل وجلود الحيوانات المختلفة، وأدوات الزينة المصنوعة من الحديد والعاج، وكذلك الأسلحة المصنوعة من الحديد . وهم أكثر كرماً من أهل البارى . ويقومون بصيد الأسماك بالحراب." [ص١٢٠، ١٢١].

لقد حدثنا "ڤرن" عن جانب هام وخطير فى حياة قبائل أعالى النيل هى الحروب التى كانت تنشب عادة بينها . وهو يعطى لنا التفسير الحقيقى لقيام تلك الحروب التى يشبهها بما كان يحدث فى حروب الإغريق والرومان والجرمان من حيث معاملة الأسرى معاملة الرقيق وبيعهم. وهو ينفى وجود عمليات قنص الرقيق بين هذه القبائل، إذ الأمر لا يعدو أن يكون عمليات خطف للآدميين انتقاماً لنهب الماشية، وتتم عملية المقايضة عبد مقابل ثور. ومن هنا تبرز أهمية المكانة التي تحتلها الماشية فى حياة قبائل أعالى النيل. وهو ما يوضحه "ڤرن": "فى الحروب المتبادلة التي تقوم هنا يستعبد الأسرى كما هو الحال عند الإغريق والرومان والجرمان القدماء . وربما أعتق العبد بعدد قليل من الماشية. ومن الجائز أن نقول أن قنص الرقيق لا يحدث هنا . وحروبهم تشتمل فقط على النهب المتبادل للقطعان. لذلك يحدث الانتقام عندما يقبضون على الآدميين كمقابل مساو فى القيمة لسلعتهم المسلوبة." [ص ١٢٣]. ويضيف إلى ذلك قائلاً "والماشية هنا ذات قيمة كبيرة. وقد يرجع ذلك لكثرة السكان وعدم ازدرائهم للحوم. ويبلغ ثمن العبد ثور أو ست أساور من الحديد التى لا يزيد سمكها على سمك الإصبع الصغير. وسلطان "لاكونو" Lakono هو الذى يأخذ عبيدهم منهم مقابل الحديد . وكما أن أوقية الذهب تقوم بدور العملات النقدية فى بلاد السودان (الشمالى)، فإن هذه الحلقات من الحديد تستخدم لنفس الغرض (فى أعالى النيل). وقد يكون هذا نوعاً من السياسة أن يدفع الملك فى مقابل العبيد حلقات من الحديد وليست أسلحة، لأنه إذا امتلك جيرانه الأسلحة فقد يصبحون خطراً عليه. ويأتى "لاكونو" إلى هذا المكان كل عام لينجز هذا العمل بنفسه. وهو يطلب هؤلاء العبيد للعمل فى استخراج الحديد وصناعته، وربما لحمايته أيضاً." [ص ١٢٣].

ويقارن "ڤرن" ما يقوم به السلطان "لاكونو" من شراء الرقيق من أسرى الحروب التى تنشب بين القبائل التى تقطن أعالى النيل، بما يفعله حكام سنار والأتراك فى حكومة محمد على فى السودان من شراء الرقيق عن هذا الطريق الرخيص بقوله "والظالمون المستبدون فى سنار يسايرون أيضاً هذا السلطان فى تحقيق عظمتهم بالعبيد . ولقد استفاد الأتراك عن طريق تلك الفرصة الرخيصة فى شراء العبيد . وسليمان كاشف الذى أحضر فى الحملة الأولى خمسة عشر عبداً إلى الخرطوم باعهم كجنود يقال إنه أخذ هذا الصباح عدداً كبيراً على ظهر سفينته. وليس فى مقدورى بمفردى أن أقاوم تلك الرغبة فى هذا النظام (شراء وبيع الرقيق). وحتى المهندس "دارنو" كان يبدو معارضاً لشراء أى عبد من العبيد." [ص ١٢٤، ١٢٥].

الشير Tshierrs

من الملاحظ أن حملة البكباشى المصرى سليم قبطان الثانية التى غادرت الخرطوم فى ٢٣ نوفمبر عام ١٨٤٠ للكشف عن منابع نهر النيل وبرفقتها الرحالة "ڤرن" Werne قد مرت فى طريقها فى النيل الأبيض بمختلف الجهات والقبائل التى مرت بها الحملة الأولى حتى نهاية مواطن العالياب عند خط عرض ٣٥ً ٦ْ شمال خط الاستواء، ولكنها تجاوزت هذا الحد وسارت فى مجرى النهر جنوباً حتى وصلت إلى خط عرض ٤٢َ ٤ْ من خطوط العرض الشمالية، فأمكن الكشف عن جهات وقبائل أخرى (جديدة) لم يقدر للحملة الأولى الكشف عنها مثل "الشير" Tshierrs، و"الإليان" Lienns، و"اليوكو" Bukos، و"البامبار" Bambars، و"البارى". وأكثرها كان لا يزال حتى ذلك الوقت مجهولاً وبعيداً عن أنظار الرحالة وعلماء الجغرافية. ولقد سجل "ڤرن" فى كتاب رحلته السابق الذكر، الكشوف الجديدة التى حققتها هذه الحملة الكشفية فى حوض النيل الأبيض ومناطق النيل العليا من واقع يومياتها.

فهو يذكر "أنه فى يوم ١٥ يناير عام ١٨٤٠ التقت الحملة بعد مغادرتها مواطن العلياب بجماعة من الزنوج على الشاطئ الأيمن للنهر تختلف لغتهم عن لغة العلياب وأنه مجرد أن وقع نظرهم على رجال الحملة أخذوا يصيحون ويرتلون بأصوات مرتفعة طالبين قبول هداياهم من الماشية، ولما سألهم قائد الحملة عن قبيلتهم أجابوا بأنهم من قبيلة الشير."[ص٢٢٩، ٢٣٠].

ربما لم تحظ جماعة من الجماعات أو قبيلة من القبائل السودانية الكثيرة التى التقى بها "ڤرن" فى رحلته الطويلة فى أقاليم السودان الشمالى وأقاليم السودان الجنوبى (١٨٣٩-١٨٤١) بتقديره وإعجابه قدر ما حظيت به قبيلة الشير، وهو الذى عرف بقوة الملاحظة، فقد أشاد بحسن طبائعهم وما يتمتعون به من صفات وخصال حميدة، فضلاً عن المزايا والصفات الجسمانية التى امتازوا بها. ويصف المظهر العام لهؤلاء الشير بأنهم يتزينون بحلقات من الحديد فى أرجلهم وأذرعتهم. وحول رقبة كل واحد منهم مزمار (ناى) من قصب الغاب ذى ثلاث فتحات، وعقود من الخرز. ومع أنهم كانوا مسلحين بالهروات (النبابيت) والرماح والأقواس والسهام المسمومة، فإنه لم تكن تبدو عليهم نزعة للشر أو ميل للغدر. [ص ٢٣٠-٢٣٥].

ثم يصف "ڤرن" روح المرح السائدة بينهم التى لمسها وشاهدها بنفسه بقوله "إننا كنا نشاهد من حين لآخر فى أثناء مرورنا بأوطانهم حفلات الرقص والغناء. وفيها يجتمع الرجال والنساء والأولاد تحت ظلال الأشجار، ويعزف الأولاد على المزمار، بينما النساء يرقصن ويغنين، ويشاركهم الرجال الفرح والسرور، إذ يتمايلون مثلهم ذات اليمين وذات

الشمال مع هزّ الأرداف والصدور. وأما الشيوخ فكانوا يدخنون الغليون، وقد بدت عليهم علامات الغبطة والإعجاب بنسائهم وأولادهم. والكل فى غاية البهجة والمرح." [ص٣٤٠].
ويبدو أن "ڤرن" قد أعجب كثيراً بخصال هؤلاء الشير وطباعهم، إذ وصفهم بأنهم شعب لطيف وسيم الطلعة طويل القامة قوى البنية، يبدو على محياه وسلوكه نوع من التأدب واللطف والبشاشة والكرم، حتى أن الإنسان حين يراهم يكاد لا يصدق أنه فى وسط إفريقية."

وحتى طبيعة البلاد الجغرافية التى تقطنها قبيلة الشير أبدى "ڤرن" إعجابه بها، إذ وصف أطرافها وهو يوشك أن يغادرها إلى الجنوب بقوله: "إنها لا زالت تبدو وكأنها جنة حقيقية، فالذرة فى الحقول توشك أن تنضج وسوف تقلع وينبت محصول آخر. ويحتمل ألا تكون تلك الحقول قد زرعت وفق دورة زراعية معينة، بل ربما كان العكس، فكل نبات يبدو وكأنه نما نمواً طبيعياً من تلقاء نفسه." [ص ٣٤٥]. ثم يقول "وهذه الأشجار التى تبدو شامخة بمثل هذا الطول تبدو وكأنها ليست فى حاجة إلى ماء ليرويها. والآدميون يبدون بمظهرهم السمح الوضاح وكأنهم يتمتعون بهذا الانتعاش والرخاء من فضل وكرم الطبيعة عليهم." [ص ٣٤٦].

البـــــــارى

سلطنة الباري:

في ٢٠ يناير عام ١٨٤٠، وعلى مسيرة يوم واحد من مواطن الشير والليان التقى "ڤرن" بجماعة من الناس يختلفون فى مظهرهم العام عن قبائل الشير والليان التى كانت الحملة قد غادرت مواطنها من وقت قريب. فقد لوحظ أن كل واحد منهم قد طلى جسمه العارى الضخم وشعر رأسه، وكذلك الحلى التى يتزين بها كالأساور والخلاخيل المصنوعة من الحديد بطلاء أحمر [ص ١- ٩]. ولما سئلوا عن قبيلتهم أجابوا بأنهم من قبيله البارى، وأنهم يخضعون لزعيم أكبر-يعرف بلغتهم بـ "ماتا" Matta. يدعى "لاكونو" Lakaa-no أو "لاجونو" Lagono يعيش فى مكان مرتفع يطلق عليه اسم "بلانجة" Pelanja، وهو الإسم الذى يطلق على عاصمة السلطنة. وأضافوا إلى ذلك بأنه لا توجد فى هذه الجهات من هو أقوى وأعظم من هذا السلطان، وأن نفوذه يمتد إلى أصقاع شاسعة". [ص ١٥].

وقد وصف الرحالة "ڤرن" ملامح هؤلاء البارى بأنها لطيفة بصورة ملفتة للنظر، وأنهم طوال القامة أقوياء البنية، أنوفهم عريضة بعض الشيء ولكن ليست مفلطحة، بل على العكس من ذلك مرتفعة قليلاً، كما هو ملاحظ على أنف رمسيس الثانى. والفم كبير (ممتلىء)، ولكن يختلف عن فم الزنوج، وهو يشبه تماماً فم قدماء المصريين كما يبدو على تماثيلهم والجبهة عريضة ومقوسة. والعيون بريئة معبرة، مما لم يشاهد بين قبائل الزنوج الأخرى التى مرت بها الحملة بصفة عامة. وأما السيقان فيبدو قواما جميلاً، وإن لم تبرز فيها العضلات. [ص ١٥، ١٦].

كذلك عنى الرحالة "ڤرن" بوصف طبيعة أوطان البارى الجغرافية، فأشار إلى وجود مرتفعات تعرف باسم "نياكانجا" Niakanja تقع ناحية الغرب على مسيرة بضع ساعات من الشاطىء الأيسر للنهر، ومرتفعات أخرى تسمى "لوبيك" Lubekk، "وكوريك" Korek غنية بالمعادن التى من أهمها الحديد والنحاس [ص ١٥، ٨٤، ٨٥]. ويصف "ڤرن" مرتفعات "كوريك" التى تقع فى إقليم البارى بأنها تشتهر بوفرة نسبة تراب الحديد بها، حيث يقوم البارى باستخراجه واستخلاص معدن الحديد منه بوسائلهم الخاصة. وقد اعتادوا استخدام أيدروكسيده الأحمر (مغرة الحديد الحمراء) كطلاء يطلون به أجسامهم وأدوات الزينة التى يتحلون بها، فضلاً عن استغلال هذا المعدن فى بعض المصنوعات المعدنية التى اشتهر هؤلاء البارى بصناعتها [ص ٨٥]. كما أشار "ڤرن" إلى السهول الفسيحة التى تقع على جانبى النهر، ويستغل البارى بعضها فى الإنتاج الزراعى، حيث يحمل النهر إليها كل عام الخصب والنماء. وكذلك بعض الجزر التى تعترض مجراه فى هذا الإقليم، ومن أهمها

جزيرة "جانكير" Janker فى أقصى الحدود الجنوبية لسلطنة البارى [ص ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٤].

لقد كشف "ڤرن" عن نواحى الحياة التى كان يحياها هؤلاء البارى وأوجه النشاط الاقتصادى التى كانوا يمارسونها. فهو يشير إلى حسن استغلالهم لموارد بلادهم الطبيعية المعدنية والنباتية والحيوانية إذا قورنوا بالقبائل الأخرى التى تقطن أقاليم السودان الجنوبى وأعالى النيل. فقد لاحظ أن البارى يستخرجون تراب الحديد من المرتفعات التى يوجد بها تراب الحديد، وبخاصة من مرتفعات "كوريك" السالفة الذكر، ويقومون بصهره فى أوانى فخارية، ثم سبكه فى كتل متوسطة الحجم على شكل كرات، كما جرت عادة أهل كردفان فى غرب السودان [ص ٤٧-٧٥]. ومن هذه الكتل الحديدية كانوا يعملون الآلات القاطعة، وأدوات القتال مثل السكاكين والبلط والرماح والسهام والنبال، وكذلك بعض أدوات الزينة مثل الأساور والخلاخيل والقلائد. وقد صنعوا من تلك الحلى أشكالاً ونماذج مختلفة وصفها الرحالة "فرن" بقوله "إن بعض الأساور كانت فى شكل أوراق الأشجار الرقيقة، والبعض الآخر فى شكل المغزل الصغير. وأحيانا تضاف إلى هذه النماذج بعض قطع الحديد الصغيرة كنوع من الحلية. أما القلائد التى توضع حول الرقبة وكانت فى شكل أطواق كبيرة من الحديد تتدلى حتى منتصف الصدر وهى فى سمك الإصبع " [ص٤٢-٤٣]. كذلك لاحظ "ڤرن" أن البارى يستخلصون من معدن الحديد طلاء أحمر هو مغرّة الحديد الحمراء عن طريق تركه فى الماء أو معرضاً لبخار الماء، وأنهم يستعملون هذه المغرّه (أيدروكسيد الحديد) فى طلاء أجسامهم وشعورهم وأدوات الزينة التى يتحلون بها، فيبدو مظهرهم العام وقد غلب عليه اللون الأحمر [ص ٨٥].

أما النشاط الزراعى فقد وصفه "ڤرن" بقوله "إن البارى يقومون بزراعة الذرة التى تشبه فى وفرة محصولها وجودة أنواعها ذرة التاكا فى شرق السودان، وهى تمثل المحصول الأول عندهم. ولا تقتصر زراعتها على الأراضى التى فى الداخل، وإنما تزرع أيضا فى الجزر النيلية التى توجد فى هذا الإقليم... كذلك يزرع البارى التبغ الذى يبدون عناية ملحوظة بزراعته، إذ تحاط حقول التبغ بسياج من الأشواك لحمايتها من الحيوانات المائية، وتظللها سقوف من الأعشاب تقيها من حرارة الشمس اللافحة، وإلى جوارها بيوت الحراسة والمراقبة المقامة على أوتاد من الخشب لحراستها من الحيوانات المفترسة ومن الآدميين" [ص ٥٢ ، ٨٧].

كذلك وجد "ڤرن" أن البارى يقومون بزراعة القطن، وقد شاهده معروضاً للبيع فى جزيرة جانكير فى أقصى حدود سلطنتهم الجنوبية، وظنه فى أول الأمر أنه من النوع الذى ينمو برياً، ولكن سرعان ما تأكد بعد التحريات والملاحظات التى قام بها أنه من إنتاج المواطنين أنفسهم، وليس من نوع القطن البرى الذى وجده ينمو طبيعياً فى بعض الغابات على ضفاف النيل الأبيض [ص ٨٩-٩٠].

وفضلاً عن النشاط الزراعي لاحظ "فرن" أن البارى يملكون ثروة كبيره من الماشية، وأن هذه الحيوانات تلعب دوراً كبيراً فى معيشتهم بالنظر إلى كثرة عددهم وعدم إمكانهم الاستغناء عن اللحوم وغيرها من المنتجات الحيوانية فى غذائهم. وهو يصور لنا ارتفاع قيمة الماشية فى تلك الجهات حين يذكر "أن ثمن العبد من الرقيق يقدر بثور واحد"[ص١٢٣]. وإلى جانب الماشية وجد "فرن" أن البارى يملكون ثروة لا بأس بها من الضأن الذى يشبهه "ڤرن" بالأنواع التى تعيش فى جزيرة كريت. وقد وصفه "بأن فروته مقوسة ناحية الخلف مع تضخم أسفل الرقبة، وإن كان الصوف الذى تنتجه ليس من النوع الجيد، إذ هو خليط من الصوف والشعر الذى يشبه شعر الماعز". [ص ١٨].

وبالإضافة إلى نشاط البارى فى مجال التعدين والزراعة وتربية الحيوان، وقف "ڤرن" على نشاط البارى التجارى، وبخاصة بعد تلك المعلومات التى أدلى بها السلطان لاكونو (سلطان البارى) للبكباشى المصرى سليم قبطان قائد حملة الكشف عن منابع النيل التى كان فرن برفقتها، ومنها اتضح "لڤرن" أن هؤلاء البارى على علاقات تجارية واسعة النطاق مع القبائل والشعوب التى تجاورهم مثل السير والليان والبامبير والبوكو، وأن نشاطهم التجارى قد امتد بعيداً نحو الجنوب قرب خط الاستواء [ص ١٢٥، ١١٦، ١٢٣]. وأن المصنوعات المعدنية التى اشتهروا بإنتاجها وأهمها أدوات القتال وأنواع الحلى تلعب دوراً كبيراً فى تجارتهم الخارجية، بالنظر إلى افتقار تلك القبائل والشعوب لمثل هذه المنتجات، وبخاصة أدوات القتال المصنوعة من الحديد التى كانت بالنسبة لهم شيئاً حيوياً ولازما للدفاع عن حياتهم وكيانهم وممتلكاتهم ولاسيما القبائل الصغيرة العدد مثل البامبير [ص ١٢٣].

ويصف الرحالة "ڤرن" نشاط البارى التجارى بقوله "إن البارى كانوا يقدمون لجيرانهم ما يحتاجون إليه من هذه المصنوعات المعدنية مقابل سن الفيل، وإن سلطانهم لاكونو كان له نصيب الأسد فى تجارة بلاده، وبخاصة تجارة الرقيق الذى كان يحصل عليه من المناطق المجاورة، إذ كان يقوم بشراء هؤلاء الرقيق من أسرى الحروب التى تقع بين القبائل المختلفة، مقابل حلقات من الحديد كانت تقوم مقام النقود فى التعامل بين سكان هذه الجهات، شأنها فى ذلك شأن أوقيات الذهب فى أقاليم السودان الشمالى. ويقدر سعر العبد بست قطع من هذه الحلقات المعدنية التى لم يكن يزيد سمك الواحدة منها عن سمك إصبع اليد" [ص ١٢٣]. ويضيف "ڤرن" إلى ذلك "أنه فى حالة التعامل مع القبائل التى يخشى بأسها كان البارى لا يقدمون مصنوعاتهم من الأسلحة للمقايضة عليها، وإنما يتعاملون فى مثل هذه الحالة بتلك الحلقات الحديدية" [ص ٥٧].

ومن الجوانب الأخرى الهامة فى حياة البيارى التى تعرف "ڤرن" عليها هي العادات والتقاليد السائدة بين هؤلاء المواطنين، وبخاصة مابدا غريباً منه فى نظره. فقد لفت نظر الرحالة "ڤرن" ما اعتاده البارى من خلع الأربع أسنان الأمامية، وهو ما من شأنه أن يؤثر

على الصورة العامة للوجه عند الضحك، فضلاً عن تأثيره على نطق بعض الكلمات فلا تبدو واضحة تماماً [ص ٢٩]. ويعلق "ڤرن" على عادة خلع الأربع أسنان الأمامية السائدة بين البارى بقوله "إن البارى قد لا يختلفون فى هذا التقليد عن بعض القبائل القاطنة فى أعالى النيل، ولكن الشيء الذى كان يميزهم عن هذه القبائل هو عدم اهتمامهم بثقب آذانهم لتزيينها بالأقراط أو ماشابه ذلك من أنواع الحلى" [ص ٢٩].

وفيما يختص بأنواع الزينة التى إعتاد البارى أن يتجملوا بها، فقد لاحظ "ڤرن" أن البارى يضعون على أجسامهم عقوداً من أسنان الكلاب والقرود، ولاسيما حول الرقبة للزينة، وكتعاويذ تقيهم الأرواح الشريرة، بالإضافة إلى أنواع الحلى الأخرى المصنوعة من الحديد مثل الأساور والخلاخيل التى اشتهروا بصناعتها [ص ٢٩]. كذلك لاحظ "ڤرن" أن موضة الشعر القصير هى السائدة بين نساء البارى. وإن كان بعضهن يقمن بإزالة شعر رءوسهن تماماً بآلة حادة أو بطريق الكى، كما يفعلن بأجزاء أخرى من الجسم. والبعض الآخر كن يتزين بخصلة من الشعر بأعلى الجبهة تميل إلى الخلف بما يشبه عرف الديك[ص٢٩].

على أن أهم مالفت نظر الرحالة "ڤرن" فى عادات البارى وتقاليدهم هو حرص الرجل منهم أن يضع جلد الحيوان المفترس الذى يكون قد اصطاده من قبل على جسمه ليس كغطاء لبدنه، وإنما كدليل على شجاعته، وكذكرى لانتصاره وتغلبه على الشدائد التى واجهته فى حياته. كذلك ما اعتاده البعض من وضع ناب الخنزير البرى الذى يكون قد قتله بيده فوق عصاه. أما البعض الآخر ممن لم يقدر له قتل هذا الحيوان فكان يكتفى بوضع شكل أو نموذج لهذا الناب من العاج حول ذراعه. ولكن في أغلب الأحيان كانت "النبابيت" والدمالج التى يستعملها هؤلاء القوم مزدانة أطرافها العليا بما يشبه قرون الثور الصغيرة ومغطاة بقطعة من فروة. وذلك كنوع من التقدير لهذا الحيوان الذى يرون فيه من ضروب الشجاعة والإخصاب ما لا يتوافر فى الحيوانات المستأنسة الأخرى [ص ٢٠، ٣٢]. ويشبه "ڤرن" البارى فى تمسكهم بهذه التقاليد بالجرمان القدماء، إذ يقول "وكما أن الأسر النبيلة فى ألمانيا كانت تتخذ من رأس هذين الحيوانين (الخنزير البرى والثور) شعارات لها تحمل معانى التقدير والاحترام، كذلك فإن البارى ينظرون لجلود وأنياب هذه الحيوانات كرمز للبطولة أو الشجاعة أو التقدير لبعض الصفات التى تمتاز بها عن غيرها من الحيوانات." [ص ٣٢]. ويضيف "ڤرن" إلى ذلك قائلاً "ولو لم يكن المناخ فى هذه الجهات حاراً لكان من المحتمل أن يضع البارى على رءوسهم غطاء قبعات الحرب ذات الفراء." [ص ٣٢].

ويتناول "ڤرن" معتقدات البارى الدينية فيقول "إنهم لا يعتقدون بوجود إله للثواب والعقاب، كما إنهم لا يعبدون الأصنام، أو الكواكب كالشمس والقمر، فهذان الكوكبان لايثيران فى نفوسهم أفكاراً أو تأملات غير عادية، رغم أنهم اعتادوا أن يستقبلوا الشمس

كل صباح عند ذهابهم إلي حقولهم، وأن يودعوها في المساء عند عودتهم إلي بيوتهم. أما القمر فإن تأثرهم به أو إدراكهم لمزاياه ضعيف للغاية، إذ أنهم يأوون إلى أكواخهم مبكرين كما يأوى الدجاج إلى "كنه" بيد أنهم تأثروا بالسماء وقدروها، إذ نظروا إليها على أنها مصدر الأمطار التي تروى حقولهم وتزيد من اتساع مجرى النهر الذى يجرى فى بلادهم، وتملأ بحيرات السمك بالماء" [ص ٣٠، ٣٩].

ويمضى "ڤرن" فى حديثه عن عادات البارى وتقاليدهم، فيصف أخلاقياتهم بقوله "وبصفة عامة لا يشغل الدين أو المعتقدات الدينية حديث البارى أو تفكيرهم، على أن علاقاتهم ومعاملاتهم مع بعضهم البعض تقوم على أساس المحبة والإخاء والتعاون فيما بينهم. وهذه الصفات هى المقومات الرئيسية لأخلاق هذا الشعب. فإنك تراهم يقبل بعضهم بعضا فى مختلف الظروف والمناسبات التى يلتقون فيها، كما تجد الواحد منهم يأخذ بيد الآخر عند صعوده القارب أو عند نزوله منه، دون أن يطلب منه ذلك، وإنما يتقدم لهذه المعاونة وهو عابر سبيل من تلقاء نفسه. وإذا ما كان لدى أحدهم طعام أو شراب سارع إلى توزيعه على من هم فى حاجة إليه من مواطنيه" [ص ٣٠ - ٣١]. ويستطرد الرحالة "ڤرن" قائلاً "ولكن ليس هذا معناه أن العداوة والبغضاء لا تجد طريقها بين البارى، أو ليس لها وجود على الإطلاق بينهم، إذ الواقع والحقيقة التى يؤمنون بها أن للمرء أعداء كما له أصدقاء. بل أحيانا تدفع الرغبة فى الإنتقام بعضهم إلى أن يرتكب بعض الأعمال الشائنة التى يصعب على المرء أن يتصور حدوثها بين شعب مسالم كشعب البارى" [ص ٣٠، ٣١].

أما عن تقاليد البارى الخاصة بالأسرة والحياة الزوجية فيحدثنا الرحالة "ڤرن" أن مسألة تعدد الزوجات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمركز الفرد الاجتماعى ويكاد هذا الأمر يخضع لنظام معين، فللسلطان بحكم مركزه الممتاز أربعون زوجة، ولكل ولد من أولاده البالغين ست زوجات. والشيخ أو رئيس القبيلة له أن يتزوج ثلاثة أو أربعة من النساء. أما الفرد العادى فله أن يتزوج واحدة أو اثنتين هذا بخلاف المحظيات والجوارى اللائى يحصلون عليهن من بين أسرى الحروب، أو بطريق الشراء من البلاد المجاورة كمواطن البوكو، وذلك مقابل المصنوعات المعدنية كأدوات القتال وأدوات الزينة التى اشتهروا بضاعتها من الحديد. وقد اعتاد السلطان لاكونو نفسه أن يركب النهر إلى هذه الجهات من حين لآخر ليحصل منها على الرقيق اللازم" [ص ٢٧].

ومن الموضوعات الأخرى الهامة التى عنى الرحالة "ڤرن" بتسجيلها خلال رحلته فى هذه المناطق النائية من أقاليم السودان الجنوبى وأعالى النيل. ذلك اللقاء الهام الذى تم بين لاكونو سلطان البارى والقائد المصرى البكباشي سليم قبضان. وما كان لهذا اللقاء من نتائج هامة حرص "ڤرن" على تدوينها فى كتاب رحلته. يقول "ڤرن" "إن البكباشى سليم قد رغب بعد نزوله بأرض البارى فى زيارة زعيمهم الأكبر السلطان لاكونو. وقد عبر

عن رغبته هذه لبعض شيوخهم الذين التقى بهم، وهؤلاء نقلوها بدورهم إلى السلطان، فبعث بأخيه الأصغر "نيكلو" Nikelo وبصهره "تومبى" Tombe كسفير من قبله إلى البكباشى سليم ليخبراه بعزم السلطان على زيارته، كما بعث بعد ذلك برسولين آخرين من أقاربه يدعى أحدهما "دوجاليه" Dogale، ويدعى الآخر "بيتجه" Betja ليعلنا قرب مجيئه لقائد الحملة"[ص٢٣- ٢٦].

ويصف "ڤرن" مظاهر هذا اللقاء بقوله: "وقد حضر السلطان لاكونو لمقابلة سليم على ظهر سفينته تصحبه زوجته السلطانة "إشوك" Ishok وبعض أفراد حاشيته، وفرقة من الموسقى ظلت تعزف حتى وصول موكبه إلى الشاطىء. وعند وصوله أطلقت سفن الحملة مدافعها تحية للضيف الكبير. وكان السلطان يرتدى قميصا طويلاً واسعاً من القطن لونه أزرق وله أكمام واسعة طويلة، وفى وسطه حزام من القماش الأبيض والأزرق يضم أردافه، وحول رقبته عقود من الخرز الزجاجى وأطواق من أسلاك الحديد الرفيعة. ويضع فى قدميه صندلاً من الجلد السميك أحمر اللون. وفى أصابعه خواتم من الحديد اللامع...[ص٦٠]

"وقد استقبله سليم مع حاشيته بالحفاوة والتكريم، فقدم لهم بعض أنواع المأكولات غير المألوفة فى بلاده مثل اللوز والتمر والعنب المجفف. وأهدى إلى السلطان بعض الهدايا التى لم يستطع أن يخفى سروره وإعجابه بها. فما أن جلس على البساط الذى أعد له ليجلس عليه حتى قدم له البكباشى سليم رداء أحمر، وأشار اليه بالوقوف ليرتديه فى حضرته، ثم وضع على كتفه شالاً أبيض وآخر على رأسه فى شكل عمامة، وذلك بعد أن ألبسوه طربوشاً وعدداً من عقود الخرز الزجاجى، وعرضوا عليه عدداً آخر من تلك العقود ليقدمها لزوجته السلطانة أشوك". ويستطرد فى وصف هذا اللقاء قائلاً "وعندما وقع نظر السلطانة على بساط لسكرتير قائد الحملة لم تستطع أن تخفى رغبتها القوية فى أن تمتلكه لنفسها ،حيث ثبتت عليه نظرها وثقلت بجواره أقدامها، فلم يسع سليم قبطان إلا أن يستأذن سكرتيره فى أن يقدمه لها واعداً إياه ببساط آخر فى مقابل هذا البساط" [ص ٦٠].

ويصف "ڤرن" السلطان لاكونو وحاشيته فى أثناء تناولهم الطعام الذى قدمه لهم البكباشى سليم قبطان مسجلاً ملاحظاته عليهم بنوع من الدقة التى عرف بها بأنه على الرغم من أن تلك الأنواع من المأكولات لم تكن معروفة فى بلاد البارى، فإنه لم تبد على لاكونو أو زوجته أو على رجال حاشيته أى مظهر من مظاهر الشراهة أو السرعة فى تناولها، كما أنهم لم تدهشهم رؤية أوانى الماء المختلفة التى كانت على المائدة، بل أجادوا استخدامها. كذلك لوحظ أنهم متمسكون بآداب المائدة، ويعاملون بعضهم بعضا فى أثناء تناولهم الطعام بنوع من الاحترام والعطف والتقدير [ص ٢٨، ٥٧]. ويعلق "ڤرن" على ماشاهده من ملاحظات أثناء تناول لاكونو وحاشيته الطعام بقوله "إن تلك المظاهر قد قوت الدليل لدى سليم قبطان ورجاله على تقدم ورفاهية هؤلاء القوم النسبى، وارتفاع مستواهم الاجتماعى إذا قورنوا بالقبائل والجماعات الأخرى التى التقوا بها فى جهات

أعالي النيل الأبيض" [ص ٥٧].

بالإضافة إلى مظاهر الحفاوة والتكريم التى قابل بها البكباشى المصرى سليم قبطان قائد حملة الكشف عن منابع النيل ضيفه الكبير سلطان البارى، فقد عبر هذا القائد المصرى عن المزيد من مودته وتقديره لهذا الزعيم السودانى ولبلاده بأن قدم له فى ختام لقائه به بعض الحبوب والغلات المصرية ليقوم بزراعتها فى بلاده. وقد أبدى السلطان لاكونو من جانبه إهتماماً ملحوظاً بتحقيق هذه الرغبة النبيلة التى تعد دون شك من النتائج الإيجابية لحملة البكباشى المصرى سليم قبطان إلى جانب النتائج الأخرى العلمية والجغرافية التى حققتها .(١)

ولقد عبر "ڤرن" عن هذا العمل الإنسانى والحضارى الذى قام به هذا القائد المصرى تعبيراً صادقاً، وإن كان قد أغرى إلى شخصه أنه صاحب الفكرة إذ يقول "لقد كنت السبب فيما أهداه سليم قبطان إلى السلطان لاكونو زعيم البارى من الغلات الزراعية ليقوم هذا السلطان بزراعتها فى بلاده فى المستقبل، وأهمها الذرة النيلية والذرة العويجى من الأنواع الممتازة، والحمص والفول الذى يعرف عند العرب بفول الخيل (وهو ذو قيمة غذائية لهذه الحيوانات) فضلاً عن أنواع أخرى كثيرة من الفاكهة، والكروم" [ص ٧٧]. ويضيف قائلاً: "ولقد بدا لى واضحاً أن الرجل سيعنى ببذر هذه التقاوى إذا أنه لم يهمل نوايا التمر الذى تناوله معنا وقام ببذرها فور انتهائه من تناولها"[ص٧٧].

ويستطرد "ڤرن" قائلاً "ولما كان الكروم تنمو فى بلاد السودان فإنه من المحتمل كثيراً أن تنمو كذلك فى مواطن البارى، أما أشجار نخيل التمر فإننى أشك فى أنه سينمو فى هذه الجهات. فقد شاهدت بنفس أشجار الدوم فى الأجزاء السفلى فى حوض النيل الأبيض وقد يبست وتوقفت عن النمو" [ص ٧٧].

كذلك أمدنا "ڤرن" بنتائج أخرى أسفر عنها لقاء لاكونو سلطان البارى بالبكباشى سليم تتعلق بالمعلومات الهامة التى أدلى بها لاكونو لسليم قبطان عن طبيعة وجغرافية المناطق الجنوبية فى أعالى النيل التى كان البكباشى سليم يرغب فى التعرف عليها وهو فى طريقه جنوبا للكشف عن منابع نهر النيل، وقد كان السلطان لاكونو على علم ببعض هذه المناطق بالنظر إلى إمتداد نفوذه السياسى على بقاع شاسعة، فضلاً عن نشاطه التجارى على نطاق واسع مع القبائل والشعوب التى تجاور سلطنته. كذلك فيما يختص بتصوره لمنابع النيل والمكان الذى يعتقد أن هذه المنابع توجد فيها.

فقد ذكر ڤرن أن السلطان لاكونو قد أخبر سليم بوجود مملكة بالقرب من سلطنته تقع على مسيرة عشرة أيام ناحية الشرق تدعى مملكة "برّى" Berri وصفها بأنها آهلة بالسكان الذين يتكلمون بلغة تختلف عن لغة قومه، وأن الطريق إليها خال من الماء، كما

(x) نسيم مقار (دكتور) البكباشي المصري سليم قبطان والكشف عن منابع النيل (القاهرة، عام ١٩٦٠، ص ٩٩ - ١٢٠).

لا يجرى فى داخلها أنهار، وإنما يحصل أهلها على الماء اللازم من أماكن أخرى. وأضاف أنه على علاقات تجارية بهذه البلاد، إذ يحصل مواطنوه منها على حاجتهم من ملح الطعام الذى يمتاز بنقاوته وعلى النحاس والخرز الزجاجى ذات اللون الأبيض والأحمر والأزرق مقابل أدوات القتال المصنوعة من الحديد. كذلك أخبر بوجود سلسلة من المرتفعات تسمى "لوجاجا" logaja (وتعرف أيضا بإسم "لوكونجا" Lokonja) يقطنها قوم من آكلى لحوم البشر (نيام نيام) يحبون على أطرافهم الأربعة عندما ينهشون لحوم الآدميين كما يفعل الكلاب تماماً، كما أنهم لا يخلعون أسنانهم الأمامية كالقبائل والجماعات الأخرى التى جرت على هذا التقليد [ص ٣٧، ٥٦، ٥٧، ٦٩، ٧٠].

ويضيف "ڤرن" إلى ذلك أن السلطان قد طلب من البكباشى سليم أن يمنحه بندقية كتلك التى يحملها جنوده ليستطيع بها صيد هذه الجماعات من آكلى لحوم البشر (نيام نيام). ولكن سليم رفض طلبه. كذلك طلب منه معاونة جنوده بأسلحتهم النارية فى الاستيلاء على مملكة البرّى المجاورة ليضع يده على كنوزها (كنوز الذهب) مؤكداً له فى الوقت نفسه أنه سيبذل قصارى جهده لإنجاز هذا العمل فى أسرع وقت ممكن ليعود هؤلاء الجنود إلى مقرهم دون تأخير أو إبطاء. بيد أن سليم قبطان لم يعلق على أقوال لاكونو هذه بشىء، وإنما التزم الصمت ولم ينطق بكلمة واحدة [ص٣٣ – ٣٦ – ٦٨، ٨٧– ٨٨].

أما فيما يتعلق برأى لاكونو سلطان البارى فى منابع نهر النيل الذى أدلى به للبكباشى سليم قبطان، فيحدثنا فرن أن السلطان قد ذكر لسليم أنه لابد من السير فى مجرى النهر ثلاثين يوماً نحو الجنوب ليصل إلى بلاد "أنجان" Anjan التى يتفرع عندها "طوبيريه" Tu-birih (وهو الاسم الذى كان يطلقه سكان هذه الجهات على النيل الأبيض) إلى أربع أذرع أو مجارى مائية يصل إليها الماء من سلسلة المرتفعات الشاهقة.... [ص٢٣، ٨٣]. ويستطرد "ڤرن" قائلاً: "انه وعندما سئل لاكونو عما إذا كان الجليد يغطى تلك المرتفعات التى تخرج منها هذه الأذرع المائية للنيل الأبيض أجاب بالنفى. كذلك لم يستطع أن يقرر ما إذا كانت الأذرع الأربع التى تكون النيل الأبيض فى تلك الجهة تخرج من الصخور أو من سطح الأرض بحجة أنه لم يقدر له السفر بعيداً إلى تلك الجهات" [ص ٢٣، ٨٣].

ويقول "ڤرن" "إنه على أثر ذلك قرر سليم قبطان مواصلة السير جنوباً فى مجرى النيل الأبيض بصحبة لاكونو سلطان البارى نفسه ليرشده على الطريق إلى منابع هذا النهر، وليضمن بوجوده مع الحملة عدم وقوع أى اعتداء عليها من القبائل والجماعات الأخرى التى سيلتقى بها أثناء سيرها نحو الجنوب" [ص ٦٢].

كشف جزيرة جانكير Janker:

وفى ٢٥ يناير عام ١٨٤١ وصل "ڤرن" مع حملة البكباشى المصرى سليم قبطان إلي جزيرة فى مجرى النهر فى أقصى الحدود الجنوبية لمواطن البارى تعرف بجزيرة "جانكير Janker (وقد ذكروا أيضا لقائد الحملة عند وصوله إليها اسم ريم Riem) [ص ٧٦].

وقد قضى الرحالة "ڤرن" برفقة سليم قبطان والمهندسين الأوروبيين: تيبو ودارنو وسابا تييه ثلاثة أيام فى هذه الجزيرة يستطلعون أحوالها ويكتشفون خصائصها الطبيعية والجغرافية، وكذلك طبيعة مجرى النهر فى هذه المنطقة [ص ٧٨، ٨٠].

ويصف الرحالة "ڤرن" سكان هذه الجزيرة ونشاطهم الاقتصادى "بأنهم جماعات من الزنوج تعيش على تربية الماشية والضأن والماعز، وتمارس إلى جانب حرفة الرعى الرئيسية زراعة الذرة والسمسم والتبغ والقطن، وأنهم يتعاملون بهذه السلع والمنتجات"[ص٨١، ٨٩].

وأما عن الخصائص الطبيعية والجغرافية للجزيرة التى كشف عنها سليم قبطان بمعاونه المهندسين الأوروبيين، وما كان من أمر الحاجز الصخري الذي وجدوه في مجري النهر جنوب الجزيرة من الشرق إلى الغرب فيحدثنا عنها الرحالة "ڤرن" بقوله "إن الأعمال الكشفية التى قام بها سليم قبطان بمعاونة المهندسين الأوروبيين الذين رافقوه أوضحت أن جزيرة جانكير هذه تقع قبالة مكان مرتفع من الأرض (عند غندكرو) وأن قسماً كبيراً منها يغلب عليه الطابع الصخرى ذى التربة الرملية التى لا تصلح للزراعة بينما القسم الآخر منها يصلح للإنتاج الزراعى. كما دلت أعمال الكشف على وجود حاجز صخرى جنوب الجزيرة يمتد عند مجرى النهر من الشرق إلى الغرب، فتتدفق عليه المياه بشدة تدفقها على جنادل النوبة" [ص ٦٤، ٦٥].

ثم يصف "ڤرن" موقف البكباشى سليم قبطان ورفقائه من المهندسين الأوروبيين من هذا العائق المائى (الحاجز الصخرى) بعد أن اكتشفوا أنه يعوق الحملة عن متابعة سيرها جنوباً فى مجرى النهر للكشف عن منابعه. وما كان من أمر الاقتراح بالانتظار عند غندكرو لحين حلول موسم الأمطار-يصف ذلك بقوله "إن سليم قبطان ورفقاءه من المهندسين الأوروبيين سرعان ما أدركوا بعد كشف هذا الحاجز الصخرى الذى يعترض مجرى النهر جنوب جزيرة جانكير أنه لا سبيل إلى التقدم جنوباً، وأنهم إذا أرادوا مواصلة السير نحو الجنوب إلى منابع النيل، فعليهم الانتظار فى هذه المنطقة لحين سقوط الأمطار وارتفاع منسوب المياه فى النهر، وبذلك تغطى الصخور الجنادل التى تعترضه، فيتيسر للسفن المرور فيه" [ص ٨١].

وأخيراً يحدثنا الرحالة "ڤرن" عن اعتراض البكباشى سليم والمهندسين الأوروبيين على الإقتراح السالف الذكر مشيراً إلى أنه قدم اقتراحاً بهذا المعنى-ويشرح بوضوح وصراحة

الأسـبـاب الواقـعـيـة من وراء عـدم إمكان الحـملة الانتظار فى هذا المكان الذى حـدده (غندكرو)، وبالتالى اتخاذ القرار النهائى والحاسم بالعودة إلى الخرطوم، إذ يقول "إنه قدم اقتراحاً بهذا المعنى وحدد مكان الإنتظار بغندكرو، ولكن اعترضوا على اقتراحى الذى يرمى إلى انتظار الحملة لحين حلول موسم الأمطار بأن المؤن التى زودت بها الحملة لمدة عشرة أشهر لا يمكن أن تكفيها إذا تأخر موعد عودتها عن الميعاد المحدد لذلك. ومن ناحية أخرى لا يمكن الاعتماد على منتجات سكان هذه البلاد من الغلات الغذائية، لأنهم لا يزرعون منها إلا ما يكفى حاجتهم الضرورية، فلا يوجد لديهم فائض من هذه الغلات يحرصون على خزنه. وقد كان إنتاجهم الحيوانى وحده كافياً لأن يعوضهم أى نقص فى إنتاجهم الزراعى من المواد الغذائية. يضاف إلى ذلك أنه حتى لو توافرت الغلات الغذائية لدى المواطنين، فإن رجال الحملة لم يعودوا يملكون الوسائل الفعالة للحصول عليها. فالسلطان لاكونو زعيم البارى الذى يمتد نفوذه إلى تلك الجهات سوف يبدو أمام حاجة الحملة إليه فى هذا الشأن أكثر تعاليا من ذى قبل، كما أن شدة إسراف رجال الحملة فى توزيع الخرز الزجاجى بين المواطنين قد أضعف من قيمته الشرائية كسلعة يمكن الحصول بها على سلع ومنتجات هذه الجهات. وفوق هذا وذلك فإن بقاء الحملة فى هذه المنطقة البعيدة من شأنه أن يعرضها لهجوم مفاجىء من سكان هذه الجهات، وبخاصة أنهاأخذت تبعد عن المناطق التى يبسط لاكونو عليها نفوذه الفعلى والمباشر" [ص ٨١، ٨٣].

ويختم الرحالة "ڤرن" حديثه قائلاً "ومن أجل هذا كله رفض اقتراحى (السالف الذكر) الخاص بانتظار الحملة عند غندكرو لحين سقوط الأمطار، وقرر سليم قبطان ورفقاؤه العودة إلى الخرطوم" [ص ٨٥].

العودة إلي الخرطوم:

وفى ١٨ مايو عام ١٨٤١ غادرت حملة البكباشى سليم قبطان الكشفية (الثانية) غندكرو إلى الخرطوم ومعها صاحبنا الرحالة "ڤرن" بعد أن وصلت إلى خط عرض ٢ ٤٢َ ٤ً شمال خط الاستواء.

وهكذا انتهت رحلة "ڤرن" فى السودان الجنوبى وأعالى النيل التى زار خلالها مناطق وقبائل وشعوب لم يقدر لغيره من الرحالة الأوروبيين زيارتها من قبل.

بقيت للرحالة "ڤرن" كلمة لا ينبغى أن نغفلها أو نتجاهلها، حرصاً على أمانة الكلمة التى إلتزمنا بها سواء في عرضنا لمشاهداته ودراساته فى أقاليم السودان المختلفة التى قدر له زيارتها أو فى التعليق الموضوعى عليها، ونعنى بها ما أبداه "ڤرن" من رأى شخص فى حكم محمد على فى السودان.

ولئن جاء رأى "ڤرن" هذا مسبقا فى أول كتاب رحلته السالف الذكر، إلا أننا قصدنا

بعرضه فى نهاية ما سجلناه من مشاهداته ودراساته في الأقاليم السوادنية المختلفة، أن يأتى حكم الباحث على مدى صواب هذا الرأى بعد أن تكون قد أتيحت له فرصة الإلمام بحقائق وخصائص هذا الحكم من خلال تلك المشاهدات والدراسات.

رأي الرحالة "فرن" في حكم محمد علي في السودان:

لقد عبر الرحالة "ڤرن" عن رأيه الشخصى فى حكم محمد على فى السودان بقوله "إن محمد على قد ضحى بابنه إسماعيل، كما أنه عن طريق الدفتردار خرب وأفقر البلاد الجميلة، لمجرد أن يؤمن لنفسه الطريق إلى مناطق الذهب، مع أنه كان فى إمكانه أن يصل إلى هدفه بأحسن من ذلك لو أنه عمل على إنعاش البلاد بكل الطرق المختلفة وعلي إعادة الثقة التجارية، ذلك أن هذه البلاد التي كان قد قام فيها منذ زمن بعيد السوق التجارية الذى كان يأتى إليه الذهب أولاً على شكل تبر وحبات كانت تفصل من رمال السيول ويحفظ فى قرون الغزال. وفى كردفان وسنار نجد الذهب على شكل حلقات تزن الواحدة أوقية ونصف الأوقية، وكذلك على شكل أسلاك ذهبية ولكن دائماً يحول بعد وزنه وصهره إلى سبائك ذهبية، وتلك لا يزدرى بها محمد على" [ص ٢].

ويستطرد الرحالة "ڤرن" قائلاً "إن كل هدف محمد على من حروبه التى خاضها بعناد وصلابة هو أن يغنى بسرعة وبأى ثمن. إن الحروب التى قام بها، وكذلك المصانع والمؤسسات التى أنشأها أنقذت موارده، ولم يجد فى حيرته بداً من أن يحقق بسرعة فكرة الاستيلاء على كنوز فازوغلى وكردفان" [ص ٥].

مصادر البحث

أولا : المصدر الأصلي

Werne: Expedition to Discover the Source of the White Nile in the Year 1841, 1841., (London, 1849)

ثانيا : مصادر ثانوية

أ - وثائق ومخطوطات :

١- وثائق غير منشورة بسراى عابدين (قصر الجمهورية) بالقاهرة

٢- مخطوط تاريخ ملوك السودان وأقاليمه إلى حكم إسماعيل (النسخة المحفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة).

ب - مصادر عربية :

ب - مصادر عربية

١- سامارکو (دکتور) : رحلة محمد على إلى السودان (تعريب طه فوزى)، القاهرة، ١٩٤٧.

٢- فردريك (بك) نيقولا : مصر والجغرافيا (تعريب أحمد زكى).

٣- نسيم مقار (دكتور) : البكباشي المصري سليم قبطان والكشف عن منابع النيل، القاهرة، ١٩٦٠.

4- Darnaud: Documents et Obseruations sur le cours du Bahr-el-Abiad.

5- Deherain: Le Soudan Egyptien Sous Mehemet Ali, Paris, 1898.

6- Richard Hill: Ariographical Dictionary of the Anglo Egyptian Sudan, Oxford 1951.

7- Robinson: The Rulers of thc Sudan ... Journal of the African Society, Vol. xx/v

8- Waalkeley: The Story of Khartoum, S.n.&R., Vol. xv///.

الفصل الثامن

الرحالة چورج ميللى G. Melly

ظروف رحلته إلى السودان (١٨٥٠ - ١٨٥١):

قام چورج ميللى G. Melly وهو انجليزى الأصل برحلته إلى مصر والسودان بصحبة والدته وأخيه وأخته، وكانت زيارته للسودان فى أواخر عام ١٨٥٠ وأوائل عام ١٨٥١ مدة حكمدارية عبد اللطيف باشا. وقد وصل چورج ميللى فى رحلته جنوبا حتى مدينة الخرطوم، حيث لم يسبقه إلا القليل من السائحين، كما أن اشتراك السيدات فى رحلته إلى الأقاليم الجنوبية حتى الخرطوم يُعد الأول من نوعه. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على ما أصبح يتمتع به السودان فى ظل الإدارة المصرية من أمن وأمان أغرى الرحالة الأوروبيين على اختلاف أجناسهم وجنسياتهم بزيارته والسياحة بين ربوعه.

أما الطريق الذى سلكه چورج ميللى ورفقاؤه من أفراد أسرته إلى السودان فقد ركبوا نهر النيل من وادى حلفا إلى دنقلة، ومنها اخترقوا الصحراء (صحراء أرجاب تشاجوا Ar-gab Teshagoa) إلى جبل البركل، ثم عبروا نهر النيل إلى مروي، ومنها اخترقوا صحراء بيوضة إلى المتمة أو وادى بشار Bashara، ومنها ساروا إلى الخرطوم. أما فى العودة شمالاً فقد ركبوا نهر النيل فى قوارب من الخرطوم إلى بربر، ومنها ركبوا الإبل إلى كرسكو مخترقين الصحراء [ص ٢٥٨ - ٩]. وبذلك أتيحت للرحالة ميللى أن يطرق طريق القوافل الشرقى عبر صحراء كرسكو (صحراء العتمور) الذى لم يسلكه فى رحلة الذهاب، وبالتالى قدر له أن يصف لنا المدن والقرى الواقعة على هذا الطريق مثل كرسكو وأبوحمد، وأن يحدثنا عن نفوذ العبابدة فى هذه الصحراء.

ولقد سجل الرحالة چورج ميللى رحلته فى السودان فى كتاب من جزءين تحت عنوان "Khartoum and the Blue and White Nile" (الخرطوم والنيل الأزرق والنيل الأبيض). وقد طبع كتاب الرحلة فى لندن عام ١٨٥١ أى فى نفس العام الذى أنهى فيه الرحالة ميللى رحلته فى السودان.

الأهمية التاريخية والعلمية للرحلة:

لقد تمت زيارة الرحالة ميللى للسودان فى أواخر عام ١٨٥٠م واوائل عام ١٨٥١م أى فى نهاية حكم محمد على وبداية عهد عباس الأول، ومن ثم فإن مشاهداته ودراساته فى البلاد السودانية التى زارها والتى دونها فى كتاب رحلته تعطى لنا صورة واضحة كما رآها شاهد عيان- لأحوال السودان فى هذه الحقبة من تاريخه الحديث، وهى ميزة تميزت بها رحلته عن رحلات الذين سبقوه فى زيارة هذه البلاد وخلال النصف الأول من القرن التاسع

عشر ممن تعرضنا لهم بالدراسة.

ولقد عبر ميللى عن رأيه فى حكم عباس وإدارته فى السودان بقوله "مهما يقال فى أخلاق عباس الشخصية، فإن حكومته تبدو أكثر ميلاً لمساعدة التجارة الحرة، كما أنه أكثر نفعاً للبلاد من أى حاكم سابق. ويضيف إلى ذلك قوله "وما دام عباس يتبع نصيحة أصدقائه الحاليين-فإن من المأمول فيه أنهم سيعضدون استقلال مصر". أما عن سياسة عباس نحو نفى الموظفين وإبعادهم إلى السودان فيرى الرحالة ميللى أن فيها مصلحة للسودان، إذ يقول "ونتيجة نفى وإبعاد الموظفين إلى أقاليم الخرطوم وبربر ودنقلة وفازغلى وغيرها، تحكم هذه الأقاليم حكماً مرضياً، حيث يصبح جميعها تحت إدارة رجال أذكياء تنقلوا كثيراً وامتازوا بدقة الملاحظة".

على أن ميللى قد صور لنا فى كتاب رحلته استياء الأوروبيين من سياسة الاحتكار التى تمسك بها الحكمدار عبد اللطيف باشا بالنسبة لبعض السلع والمنتجات السودانية ذات القيمة التجارية مثل الصمغ والعاج، وعبر عن رغبة هؤلاء الأوروبيين فى هذه السلع وغيرها، وما يمكن أن تجنيه هذه الشركات والمؤسسات من أرباح، فضلاً عن إمكان تصريف السلع والمصنوعات الأوروبية التى تلقى رواجاً فى أقاليم السودان المختلفة. وهو بذلك يشير إلى بداية التطلع الاستعمارى الأوروبى للسودان الذى أخذ يظهر فى أواخر حكم محمد على، عندما أخذت الدول الأوروبية تمارس ضغوطها على سياسته الاحتكارية فى أقاليم السودان التى خضعت للإدارة المصرية، وتطالب بحرية التجارة فى السلع والمنتجات السودانية التى احتكرها.

كذلك وصف لنا الرحالة ميللى ظاهرة هجرة الفلاحين فى بعض المناطق السودانية التى قدر له زيارتها لحقولهم ومساكنهم تحت وطأة الضريبة التى فرضتها الحكومة عليهم، واستمع إلى شكاوى المواطنين منها وقد أنحى باللائمة على شيوخ القرى بالدرجة الأولى إلى جانب الحكام الأتراك.

كما تبدو أهمية الرحالة العلمية فى وصف الرحالة ميللى لطرق القوافل الصحراوية التى سلكها فى رحلته، وبخاصة الطريق الصحراوى من مروى إلى الخرطوم عن طريق المتمة عبر صحراء بيوضة، وهو وصف لايخلو من التفصيل والدقة.

كذلك وصفه الدقيق لمدينة الخرطوم وقت زيارته لها (١٨٥٠/١٨٥١م)، وأيضا المنطقة التى تقع فيها، إذ وصف منازلها من حيث الشكل والمواد التى تبنى منها، والأثاث الذى تحويه، وعدد سكانها من المسلمين والمسيحيين واليهود، والمؤسسات الأوروبية فيها، وما تقوم به هذه المؤسسات من نشاط دينى وعلمى. كما تناول النشاط التجارى داخل المدينة، فوصف المتاجر على اختلاف أنواعها، والسلع والمنتجات المحلية والأوروبية التى تعرض فيها، وأبدى ارتياحه لوجود بعض المصنوعات الإنجليزية بين هذه السلع، وتمنى أن يتسع مجال التجارة بالسلع والمنتجات المصنوعة فى بلاده إنجلترا، وأن تقام مؤسسات وشركات تجارية أوروبية فى الخرطوم وغيرها من المدن السودانية.

وتبدو أيضاً أهمية حديث الرحالة ميللى عن الخرطوم من المعلومات التى أفضى له بها عبد اللطيف باشا حكمدار السودان فى أحد اجتماعاته معه خاصة يدخل الحكومة من منطقة الخرطوم، والتى علق الرحالة ميللى على تقديراته "بأنها تثير الدهشة والفزع."

وإلى جانب وصف مدينة الخرطوم قدم لنا وصفاً لبعض القرى والمدن السودانية الأخرى مثل بربر وكرسكو، وأبوحمد، ودار حامد، ووادى حلفا، وإن كان وصفه لهذه البلاد قد جاء موجزا ولكن معبراً.

وفوق ذلك فقد حدثنا الرحالة "ميللى" عن الاهتمام بالتعليم الدينى وانتشاره فى بعض المناطق السودانية التى زارها، فهو يذكر أنه وجد فى مدينة الحافر مدرسة يصفها بأنها مدرسة كبيرة يقوم الفقهاء فيها بتدريس القرآن الكريم. وقد تحدث معه أحد فقهائها فى الشئون المحلية المتعلقة بفرض الضريبة على الأهالى مما سنتناوله بالتفصيل فى حينه.

وأخيراً ينبغى ألا يفوتنا أن نشير إلى جانب علمى تضمنه كتاب الرحلة، فقد حرص الرحالة ميللى أن يرفق به ملحق بدرجات الحرارة وملاحظاته على الطقس فى الأماكن المختلفة التى قدر له زيارتها فى مصر والسودان خلال رحلته، إلى جانب أنه ضمن الكتاب خريطة جغرافية توضيحية لسير الرحلة، والطرق الصحراوية التى سلكها فى الذهاب والعودة، والأماكن والمدن التى تقع عليها.

وصف الطريق إلى الخرطوم عبر صحراء بيوضة:

لقد أشار الرحالة "ميللى" فى كتاب رحلته إلى أن هناك طريقين للقوافل عبر صحراء بيوضة يصلان مروى بالخرطوم، أحدهما من مروى إلى الخرطوم مباشرة، والآخر من مروى إلى المتمة الواقعة على شاطىء نهر النيل على مسافة ستين ميلاً شمال الخرطوم، ومنها إلى الخرطوم ذاتها. وقد قارن الرحالة "ميللى" بين الطريقين "بأن الطريق الأول أقصر من الطريق الثانى بمسيرة يومين، وأن الطريق الأول يتوافر فيه الماء والعشب، حين تسقط الأمطار شتاء، إلا أن الكثير من البدو الأشرار يتوافدون عليه، لذلك فإن التجار أخذوا يفضلون الطريق إلى المتمة (الطريق الثانى)، بعد أن قتلت فيه جماعة من المسافرين منذ ستة أعوام. أما فى فصل الصيف فإن الطريق الأول يعد آمناً" [ص ١٠٢].

وقد وصف الرحالة "ميللى" طبيعة الطريق الذى سلكه من مروى إلى المتمة أو (وادى بشارة) عبر صحراء بيوضة "بأنه طريق "جبلى" تتخلله سلسلة من الجبال المرتفعة السوداء، وهو كثير الشبه بأحد ممرات الألب. والممر الذى تسير فيه الإبل هو الذى اختطته القوافل التى تمر فيه على الدوام ويجد المسافر فى بداية الطريق على مسيرة أربع ساعات آبار مياهها غير عذبة لا تصلح لشرب الإنسان، وإن كانت الإبل تستقى منها. بيد أن المسافر لا يعدم وجود آبار مياهها عذبة" [ص ٦٥]. وقد صادف الرحالة "ميللى"

فى طريقه بئراً ماؤه عذبة وعميق جداً يقول "إن العرب يقومــون بسحب الماء من البئر فى "دلو" من الجلد يفرغونهـا فى أحواض محفـورة فى الأرض وإنه فى هذه البئر وتستقى جـمـاعـات من العـرب ترعى قطعـانهـا المـخـتلفـة على الأعـشـاب التى تـنمـو على المنحدرات"[ص٦٥].

ويمضى الرحالة "ميلي" فى وصف الطريق الذى سلكه من مروى إلى المتمة فى طريقه إلى الخرطوم عبر صحراء بيوضة، ويقارن مناظره بما شاهده فى سوريا فيقول "إن السير فى صحراء بيوضة كان أسعد مرحلة فى رحلته الصحراوية، فهى كثيرة الشبه بصحارى سوريا، وإن المرء ليدهش حقاً حين يرى فى هذا الطريق بعض المناظر التى تشبه إلى حد كبير متنزه فى إنجلترا أكثر من كونها صحراء فى إفريقية. والواقع أنه فى هذه الصحراء تتوافر الخضرة والأعشاب، وتظهر فى بعض المناطق أشجار السنط ذات الحجم الكبير، وحيث توجد الأشجار توجد الطيور الجميلة والحمام واليمام بكثرة. كذلك تكثر الغزلان. وإن هذه الصحراء يكثر فيها المواطنون خلال موسم الشتاء، إلا أن الخوف من جور الترك ومضايقتهم، وما تتطلبه مقتضيات الضيافة والكرم تجعلهم يتجنبون الطرق التى يتردد المارة عليها كثيراً، ويخفون أنفسهم فى أكثر الأودية عزلة، حينما يستطيعون الحصول على المرعى لقطعانهم" [ص ٦٩ - ٧٣].

وعند نهاية هذا الطريق لاحظ الرحالة "ميللى" الحقول الكثيرة ذات التربة الخصبة التى يقوم البدو فيها بزراعة المحاصيل الجيدة من الذرة والشعير والذرة العويجة عقب سقوط الأمطار، لكنهم يضطرون لسوق قطعان الماشية والأغنام إلى الأماكن التى يوجد فيها ماء المطر بين الصخور كل أربعه أيام [ص ٧٥].

وبعد مسيرة عشرة أيام فى طريق رملى صخرى وصل الرحالة "ميللى" ورفقاؤه إلى النهر، حيث شاهدوا الشواطىء الغنية بالذرة [ص ٧٢]. وحيث تقع مدينة المتمة. وقد وصفها "بأنها تضم حوالى مائة وثلاثين بيتاً من البيوت الصيفية التى تشبه الخيام والمصنوعة من الطين وسيقان الذرة" [ص ٧٥].

وأما بقية الطريق من المتمة إلى الخرطوم فيصفه الرحالة "ميللى" بقوله "إن المسافر فيه يمر بغابات السنط التى يتزاحم عليها الحمام، وتوجد كميات كبيرة من الصمغ فى هذه المنطقة. كما توجد على هذا الطريق بعض القرى التى تتكون من البيوت الريفية التى تشمل عادة فناء (حوش) محاط بسياج من الطمى أو سيقان الذرة الجافة أو أغصان أشجار السنط. وفى هذا الفناء يوجد الحيوانات سواء أكانت حصاناً أو حماراً أو جملاً. ووسط هذا الفناء أو فى جانب منه يوجد فى الغالب البيت المصنوع من الطمى وأغصان السنط المتشابكة والمغطى سقفه بأوراق وسيقان الذرة. والأثاث يتكون من مرتبة وعدد من الحصر والكراسى الواطئة ودرع وسهم وسرج للجمل وما شابه ذلك" [ص ٧٧-٧٩].

وصف مدينة الخرطوم (عام ١٨٥٠/١٨٥١):

يصف الرحالة "ميللى" مدينة الخرطوم وقت زيارته لها عام (١٨٥٠/١٨٥١م) "بأنها تقع على بعد حوالى ثلاثة أميال من التقاء النيل الأزرق والنيل الأبيض، وفى منتصف المسافة توجد قريتان، يشتغل سكان إحداها ببناء السفن" [ص ٨٣].

ويمضى "ميللى" فى وصفه قائلاً "وبالخرطوم عدة منازل من أشهرها مقر الحاكم بمكاتبه، وبيت الحكومة القديم، وكنيسة وإرسالية للكاثوليك. أما عدد المنازل التى تشتمل عليها الخرطوم فتبلغ حوالى ثلاثة آلاف منزل. وفن البناء فى هذه المنازل على درجة كبيرة من البدائية. كذلك الشوارع لا يوجد بينها طرق عمومية. وأحسن المساكن هى ما يمتلكها إما موظفو الحكومة أو المقيمون الأوروبيون. على أن بعض المساكن لا تخلو من وسائل الرفاهية والراحة. وبالإضافة إلى الحدائق الجميلة والمناخ السار، فإنه ليس من الصعب على المرء أن يوفق فى معيشته داخل بيت جدرانه من الطمى" [ص ٨٣، ١٠٨، ١٠٩].

أما عن عدد السكان فى الخرطوم فيقدرهم الرحالة "ميللى" وقت زيارته لها عام (١٨٥٠ / ١٨٥١م) بثلاثين ألف نسمة بما فى ذلك أفراد الجيش [ص ١١٤-١١٥]. ويصفهم بقوله "إن سكان الخرطوم ينقسمون إلى مسلمين ومسيحيين ويهود. والمسلمون يمثلون الغالبية، ولهم مساجد يصلون فيها، وأما المسيحيون فيقدر عددهم بحوالى خمسين نسمة، وهم ينتمون إلى إرسالية الروم الكاثوليك، ولهم كنيسة يؤدون فيها فروض العبادة، إلى جانب مدرسة لنشر تعاليهم الدينية وتعليم الجيل الجديد من المعتنقين لمذهبهم. وأما اليهود فعددهم حوالى اثنى عشر. والجميع يعيشون جنباً إلى جنب متحابين جداً، وإن كان فى بعض الأحيان يحدث أن يتبدل هذا الوفاق بتعصب أعمى. والجميع تفرض عليهم الضرائب مع قليل جداً من التحيز والمحاباة. والحكومة غير مكترسة بمصالحهم على حد سواء" [ص ١٠٩].

أما عن النشاط الصناعى فى الخرطوم فقد شاهد الرحالة "ميللى" صناعة السفن التى وصفها لنا بقوله "إنه يسود كثير من النشاط فى منطقة بناء السفن المجاورة، والسفن التى تصنع طويلة بوجه خاص، كما تصنع القوارب المكشوفة التى تستخدم للملاحة فى النيل. وجميعها تصنع عادة من خشب النخيل، ولكنها صناعة رديئة جداً" [ص ١١١].

أما عن النشاط التجارى لأهل الخرطوم، فقد عبر عنه الرحالة "ميللى" وقت زيارته (١٨٥٠/١٨٥١م) بقوله "إن النصيب الأكبر من تجارتهم يتمثل فى منتجات حدائقهم وحقولهم التى يحصلون منها على إنتاج وفير".. "والأسواق تتكون من أربعة شوارع مسقوفة، وأربعة شوارع مكشوفة. الشوارع الأولى عبارة عن الحوانيت المنظمة، وهى مملوءة بمختلف أنواع السلع والبضائع من بينها مصنوعات من مانشستر ومصنوعات من شيفلد مثل السكاكين والمقصات، وأوان فخارية من ستافورد شير. أما الشوارع المكشوفة فأغلبها عبارة عن خيام تباع فيها السنمكة وحشائش البحر ومختلف أنواع

العشب والحشيش. والتجار هنا يصدرون الصمغ والسنمكة وزيت الخروع ومقادير كبيرة من العاج إلى كرسكو بعد شحنها بطريق النيل إلى بربر" [ص ١١١].

ويعلق على النشاط التجارى فى الخرطوم وقت زيارته لها، وما يمكن أن تسهم به السلع والمنتجات الإنجليزية التى من صنع بلاده فى هذا النشاط فيقول "إنه فى الإمكان أن تقوم تجارة أوسع فى البضائع الإنجليزية أكثر مما هى عليه الآن، وهذه التجارة ينبغى أن تتوغل جنوباً فى الداخل ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً. وبذلك يمكن الحصول على ربح من مقادير العاج الضخمة التى تجمع هناك، إلى جانب السلع الأخرى الثمينة التى يمكن الحصول عليها بسهولة من هذه الجهات" [ص ١١٢].

وفى موضع اخر يذكر الرحالة ميللى فى كتاب رحلته "إن أحد التجار الأوروبيين فى الخرطوم قال له إنه إذا قامت شركة أوروبية فى هذه البلاد، فإنها سوف تجنى أعظم الأرباح، كما أنه فى الإمكان أن تنخفض بواسطتها أسعار الصمغ العربى والعاج وغيرها (من المنتجات والسلع السودانية) انخفاضاً كبيراً فى أوروبا، ولكن عبد اللطيف باشا (الحكمدار) بإعتبارة أكبر تاجر فى هذه الجهات، فإنه لا يشجع المضاربة التجارية بوضع كل العراقيل فى طريق المغامرين الأوروبيين" [ص ٩٣].

وفى إحدى لقاءات الرحالة "ميللى" مع لطيف باشا حكمدار السودان أفضى إليه الحكمدار بحديث تناول فيه دخل الحكومة من مديرية الخرطوم ومقدار ما يرسل إلى القاهرة سنويا. يقول الرحالة "ميللى": "إن عبد اللطيف باشا لم يعد فى آخر اجتماعاته يكتم عنى سراً عن حالة البلاد، إذ صرح بأنه يدفع جميع نفقات مديرية الخرطوم، وإنه إلى جانب ذلك يرسل سنوياً إلى القاهرة من ثمانية عشر إلى عشرين كيساً (حوالى تسعين إلى مائة ألف جنيه)، وأضاف إلى ذلك أن البدو العراة يملكون مائة ألف ثور لا يقبل واحداً من هذه الماشية" [ص ١٢١]. وقد علق الرحالة "ميللى" على تصريحات الحكمدار لطيف باشا "بأنها تثير الدهشة والفزع، وأنه لم يحاول أن يناقشه فى مثل هذه التقديرات واكتفى بأن أمضى بقية الوقت معه فى السمر السار" [ص ١١١].

وصف مدينة بربر (عام ١٨٥٠ / ١٨٥١):

يصف الرحالة "ميللى" مدينة بربر عاصمة إقليم بربر وقت زيارته عام (١٨٥٠/١٨٥١م) "بأنها تشبه كثيراً جميع العواصم الأخرى فى الشرق. بيد أنها أكبر مدينة فى بلاد النوبة، ويقدر عدد سكانها بحوالى ثمانية آلاف نسمة، ولكن من الصعب تحديد عدد السكان بالضبط، بالنظر إلى أن الأهالى لا يدلون بأعدادهم كاملة للحكومة، اعتقاداً منهم بأن كل من تسجله الحكومة فى سجلاتها معناه أنه أدرج فى قوائم القرعة العسكرية (التجنيد) أو الضرائب" [ص ١٤٧].

(×) نسيم مقار (دكتور) البكباشي المصري سليم قبطان والكشف عن منابع النيل (القاهرة، عام ١٩٦٠، ص ٩٩ - ١٢٠).

ويضيف الرحالة "ميللى" إلى ذلك "أن السكان فى بربر فى تناقص مستمر، وهم مع ذلك مستمرون فى دفع نفس الضريبة التى كانت مقررة في عهد محمد على، بالرغم من أن أعداداً منهم نزحت إلى الصحراء. بيد أن الباقين يدفعون عن أولئك النازحين الذين لا يدفعون. كذلك إذا كان لأحدهم جار مفلس فعليه أن يدفع عنه الضريبة المقررة عليه، لأن شيخ القرية مفروض عليه أن يورد لحاكم الإقليم مقدار الضريبة المقررة سنوياً بالتمام"[ص١٤٧].

ويعلق الرحالة "ميللى" على ذلك بقوله "إن الظلم والاستبداد الذى يلاقيه المواطنون البؤساء إنما هو بوجه خاص من رئيس قريتهم، فالسلطة التى يمارسها هؤلاء الحكام الصغار واسعة، فهم إذا أحسوا بكراهية نحو أى شخص تحت حكمهم، أخذوا يسخرون من ابنه الأكبر. وبذلك لا تعوزهم الحيل فى إذلاله. وهم دائماً يتبعون وسائل الابتزاز والاغتصاب"[ص ١٤٨].

ويقارن الرحالة ميللى هذا النظام فى حكم القرى في بربر (والسودان عموماً) تحت حكم الإدارة المصرية بنظام حكم القرى فى مصر العليا ومصرالسفلى فيقول "والحكومة المركزية أخذت تستغنى تدريجياً عن الشيوخ حكام القرى فى مصر العليا. وأما فى مصر السفلى فقد أصبحت الأداة الحكومية (السلطة) كلها تقريباً فى يدها. وهى خطوة لا يمكن أن تطبق إلى أبعد من ذلك" [ص ١٤٨].

وفى موضع آخر من الكتاب يتحدث الرحالة "ميللى" عن شدة وطأة الضرائب على سكان القرى فى إقليم بربر، وتأثيرها السيىء على توزيع السكان فى الإقليم، وانخفاض الإنتاج الزراعى هناك على الرغم مما تمتاز به التربة من ارتفاع خصوبتها. يقول الرحالة "ميللى" "إنه يوجد فى إقليم بربر قرى لا حصر لها، ولكن عدد السكان بالنسبة لكثرة القرى ضعيف جداً، فنصف المنازل غير مسكون. ويقال إن السبب هو ثقل الضرائب. فمن هذا الإقليم الصغير إقليم بربر تستلم حكومة القاهرة ستة آلاف كيس سنوياً. وفى هذه المنطقة ذات الخصوبة المرتفعة لا يوجد أكثر من خمسة آلاف شخص فى مقدورهم دفع الضريبة. وهم يتعاونون جميعاً على أداء هذا المبلغ. وبذلك يبلغ متوسط ما يجب على الواحد منهم أن يدفعه ستة جنيهات. [ص ٤٠].

ويستطرد الرحالة "ميللى" قائلاً "ونتيجة لذلك أصبحت شواطىء النهر لمسافة أميال وأميال تترك دون زراعة، حيث أصبحت الصحراء تعج بالعرب الذين يفضلون شغف العيش فى هذه الوديان القاحلة المظلمة (عن السكنى فى القرى). مع ملاحظة أن ربع الضريبة فقط يدفع نقداً، والباقى يؤخذ من المحصول الذى تحصل عليه الحكومة بأنسب الأسعار" [ص ١٨٢].

ويصف الرحالة "ميللى" المنازل فى بربر "بأن أغلبها مبنية من الطوب الجاف، وإن كان الأمر لا يخلو من وجود منازل مبنية بالطوب الأحمر التى يقطنها المواطنون البارزون[ص١٥٠]. وعن النشاط التجارى فى بربر يقول الرحالة "ميللى": "إن الأسواق

عبارة عن شوارع مزدحمة توجد بها الخيام المفتوحة التى تعرض فيها المشتريات والمبيعات مثل الحنطة والقطن، أو معدات الإبل، أو منتجات البلاد الواقعة فى العروض الشمالية"[ص ١٥٠].

وهناك مدن وقرى أخرى سودانية أقل أهمية وصفها الرحالة "ميللى" من خلال زيارته لها. وقد جاءت فى أماكن متفرقة من كتاب رحلته وكان وصفه لها موجزاً. فقد وصف كرسكو "بأنها أول مدينة نوبية يقابلها المسافر إلى السودان، وهى عبارة عن مجموعة أكواخ مبنية من الطمى" [ص ٢٣٧]. ووصف "أبو حمد" التى تصل الخرطوم بكرسكو "بأنها عبارة عن عدد قليل من المنازل التى نصفها تقطنه الفيران والحمام" [ص ١٩٩]. كما وصف "دير حامد" بأنها قرية كبيرة فى بلاد النوبة تشتهر بالبلح الذى يترك بعضه على النخيل ليجف فيصبح صلباً جافاً لا تتوافر فيه حلاوة البلح العادى، وهو أحسن طعماً. وأما البعض الآخر فعندما ينضج يوضع فى جرات [ص ٣٢].

أما وادى حلفا فيصفها بقوله "إن الناظر إلى وادى حلفا على الخرائط يتوقع أن يجدها مدينة كبيرة أو على الأقل مكان على جانب من الأهمية، ولكن فى الحقيقة لا تخرج عن كونها مدينة مصرية متواضعة يبلغ عدد سكانها حوالى ثلثمائة نسمة".

وفى إقليم عطبرة لفت انتباه الرحالة "ميللى" ظاهرة غريبة لم يشهدها أو يسمع عنها من قبل فى وطنه انجلترا أو فى بلاد الشرق الأخرى التى زارها فى مصر وسوريا، "فقد اعتادت أفراس النهر أن تخرج بكثرة من نهر العطبرة إلى حقول الحنطة والفول المجاورة لتمشى عليها وتدوس المحاصيل بأقدامها، وتعيث فيها فساداً. وهى تكاد لا ترى بالنهار، وإنما تلجأ ليلاً بأعدادها إلى الجزر التى تقع فى النهر، حيث تستنشق الهواء، ثم تتدحرج فى حقول البرسيم واللوبيا" [ص ١٤٢]. ويضيف الرحالة "ميللى" إلى ذلك "أنها من أجل ذلك فهى مكروهة من الأهالى الذين يسمعون صوتها الغريب، بينما تتلف وتخرب ممتلكات أحد المواطنين البؤساء الذى يبدو فى هذه الحاله متكاسلاً، فلا يسرع إلى اتخاذ الإجراءات العاجلة لإرهابها، ربما اعتقاداً منه أن هذه إرادة الله، أو لأنه كاره بعض الشىء الخروج فى الظلام" [ص ١٤٢]. ويستطرد الرحالة "ميللى" قائلاً "إن أهالى جزيرة على مسافة جنوب بربر طلبوا (عندما كان هو فى الخرطوم) من الحاكم أن يمدهم بقوات لإخراج هذه الحيوانات فأرسل مائة جندى لصيدها" [ص ١٤٢]. ويعلق الرحالة "ميللى" على ذلك بقوله "إن قنص هذه الحيوانات على يد قوات الحكومة لهو أكثر تسلية لها مما تفعله ضد قبائل الشلك جنوب كردفان" [ص ١٤٣].

المصدر الأصلى للبحث

Melly, G., Khartom and the Blue and White Niles (2vols.), London, 1851.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رقم الإيداع ٩٣٢٥ / ١٩٩٦
الترقيم الدولى .I.S.B.N
977 - 5508 - 10 - X



* [illegible] ١٩٤٨.

* حصل على [illegible] عام ١٩٥١ [illegible] عن موضوع «أسواق السودان الاقتصادية في [illegible]» [illegible] على الدكتوراه عام ١٩٥٩ موضوعها «أحوال السودان الاقتصادية ١٨٢١ - ١٨٤٨».

* كتاب «البكباشي المصري سليم قبطان والكشف عن منابع النيل» عام ١٩٦٠.

* في ١٩٦١ أصدر سلسلة الرحالة في السودان في النصف الأول من القرن التاسع عشر:

(١) الرحالة بانم

(٢) جون بتريك

(٣) برون روليه

* عام ١٩٨٣ الأسس التاريخية للتكامل الاقتصادي بين مصر والسودان في النصف الأول من القرن التاسع عشر ١٨٢١ - ١٨٥٠

* صدر له عام ١٩٩٢ كتاب «مصر وبناء السودان الحديث» وله عدد من المقالات والأبحاث التاريخية وعدد من [illegible]